بدأ صدورها في 2012م الرقم الدولي: 2321-7928

مـجـلـة الهـــند

مجلة فصلية محكّمة

المجلد: 12 العدد: 2

أبريل-يونيو 2023م

مدير التحرير

د. أورنك زيب الأعظمي

المشارك في التحرير

د. هيفـــاء شاكـري

نائب مدير التحرير

د. محمد معتصم الأعظمي

تصدر عن

مولانا آزاد آئيديل إيجوكيشنال ترست

بولفور، بنغال الغربية

المراسلات المتعلقة بالاشتراك في الطباعة والنشر توجه إلى:

عنوان البريد:

مولانا آزاد آئيديل إيجوكيشنال ترست، بولفور، بنغال الغربية رقم البريد: 731235

الهيأة الاستشارية

د. مثنى حارث الضاري (العراق)	د. سناء شعلان (الأردن)
د. صالح البلوشي (عمان)	السيد محمد دانش الأعظمي (البحرين)

هيأة التحكيم

د. بشري زيدان (مصر)	د. حسن يشو (قطر)
د. عامر خليل الجراح (تركيا)	د. محمد فضل الله شريف (الهند)

هيأة التحرير

د. أورنك زيب الأعظمي (مدير التحرير)	د. هيفاء شاكري (المشارك في التحرير)
د. محمد معتصم الأعظمي (نائب مدير التحرير)	د. محمد شفاء الرحمن المدني (عضو)

عنوان البريد الإلكتروني:

(1) aurang11zeb@yahoo.co.in

(2) azebazmi@gmail.com

موقع المجلة: www.azazmi.com

الاشتراك السنوي:

1000 روبية (للطلاب) 1500 روبية (للأساتذة والمكتبات)

قواعد النشر في المجلة

بالنسبة للبحوث التي ترسل للنشر في المجلة، يرجى مراعاة القواعد الآتية:

1. تقبل المجلة نشر البحوث باللغة العربية، إذا توافرت فيها الشروط التالية:
   أ. أن يتسم البحث بالأصالة والابتكار، والجدة العلمية والمنهجية، وسلامة الاتجاه.
   ب. أن يلتزم بالمناهج والأدوات والوسائل العلمية والمعتبرة في مجاله.
   ج. أن يكون البحث دقيقًا في التوثيق والتخريج.
   د. أن يتسم بالسلامة اللغوية.
   ه. الأفضل أن يتناول البحث موضوعًا جديدًا ذا صلة بالعلوم العربية والإسلامية ومساهمة الهند في مختلف العلوم والفنون والآداب وما إليها.
2. ألا يزيد البحث عن خمسين صفحة، والرجاء من الباحثين استخدام (Amiri) على حجم 11.5.
3. ألا يكون البحث قد سبق نشره أو قدّم لأي جهة أخرى من أجل النشر.
4. يرفق بالبحث ملخص له في حدود صفحة.
5. أن يقر صاحب البحث بأن بحثه عمل أصيل له.
6. تخضع البحوث إلى تحكيم لجان علمية أكاديمية متخصصة وفق المعايير المعتبرة.
7. تحتفظ المجلة بحقها في حذف أو إعادة صياغة بعض الكلمات والعبارات التي لا تناسب مع أسلوبها في النشر.

تعبر المقالات المنشورة عن آراء كاتبيها واجتهاداتهم الشخصية.

في هــذا العــدد

الصفحة

الافتتاحية	- د. أورنك زيب الأعظمي	7
مقالات وبحوث:		
تفسير تدبر القرآن (23)	- الشيخ أمين أحسن الإصلاحي ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	9
هل عزير ابن الله؟	- محمد عاصم كمال الأعظمي	44
[وأكثر هذا الناس ليس لهم عهد]	- د. أورنك زيب الأعظمي	72
المبين (4)	- السيد محمد سليمان أشرف البهاري ترجمة: د. ضياء القمر آدم علي التيمي	79
تدبير التداعيات الاقتصادية والاجتماعية لجائحة كورونا من خلال نوازل فريضة الزكاة، دراسة فقهية تحليلية	- د. بدر الدين بن أحمد الحميدي	91
الدر اليتيم (3)	- الشيخ ماهر القادري ترجمة: د. عظمت الله	134
الجامعة الملية الإسلامية (12)	- عبد الغفار المدهولي ترجمة: د. هيفاء شاكري	152
التسامح والتعايش الإنساني في الإسلام (عصر الخلافة الراشدة) نموذجًا	- د. محمد حسن محمد إمام الباشا	166

الهند وثقافتها كما تتجلى في كتاب "حول العالم في 200 يوم"	- د. عظمت الله	184
أدب المراسلات:		
صور وخواطر .....من خلال رسائل جبران	- د. هيفاء شاكري	195
استعراض كتاب:		
خير الماعون في منع الفرار من الطاعون	- د. محمد فضل الله شريف	209
نافذة على التاريخ:		
فاتحة صحيفة "البلاغ" الأسبوعية	- الشيخ أبو الكلام آزاد	228
الندوات والمؤتمرات:		
ندوة دولية حول "الثقافة والحضارة الهندية في كتابات العرب وغير العرب"	- د. غياث الإسلام الصديقي	257
الوفيات:		
الشيخ صلاح الدين الإصلاحي	- د. محمد معتصم الأعظمي	268
قصائد ومنظومات:		
رثاء العلامة أبي عبد الجليل محمد طيّب المكي	- الشيخ محمد يوسف السورتي	272

ISSN: 2321-7928

الافتتاحية

أعزائي القرّاء،

السلام عليكم ورحمة الله و بركاته

يسرّنا كثيرًا أنْ نقدّم إليكم العدد الجديد لمجلتنا العلمية (مجلة الهند) التي قطعت في فترة قصيرة جدًا شوطًا بعيدًا في مجال البحث والتحقيق ونقل التراث العلمي الهندي والعربي، نشكر الله جلّ جلاله على أنه وفّقنا لخدمة اللغة العربية وعلومها ولنشر ما أنتجه وطننا الحبيب الذي اشتهر منذ القدم لأياديه البيضاء على العلم والأدب والفن.

يحتوي هذا العدد على تسعة بحوث علمية وقراءة في مجموعة رسائل واستعراض لكتاب جديد وفاتحة لصحيفة "البلاغ" للشيخ أبي الكلام آزاد ووفاة عالم هندي للتفسير والأدب وقصيدة رثى فيها شاعرٌ هنديٌ أستاذَه الجليلَ (العلامة أبا عبد الجليل محمد طيّب المكي رحمه الله تعالى).

فالمقالة الأولى هي الحلقة الـ23 للترجمة العربية لتفسير "تدبّر قرآن" وتقدّم تفسيرًا للآيات (81-129) من سورة آل عمران، والمقالة الثانية تدرس عقيدة اليهود في عزير وتعالج هذه القضية بأسلوب علمي رصين، والمقالة الثالثة تتبع ورودَ لفظ "الناس" مفردًا في كلام العرب وتدلّ على معناه في ضوء شواهد عديدة من شعراء العصر الجاهلي والإسلامي، والمقالة الرابعة هي الحلقة الرابعة للترجمة العربية لكتاب "المبين" للسيّد محمد سليمان أشرف، والمقالة الخامسة تتناول بالبحث التداعياتِ الاقتصادية والاجتماعية لجائحة كورونا من خلال نوازل فريضة الزكاة وتقدّم دراستها الفقهية التحليلية، والمقالة السادسة هي الحلقة الثالثة للترجمة العربية لكتاب "درّ يتيم" للشيخ ماهر القادري، والمقالة السابعة هي الحلقة الـ12 للترجمة العربية لكتاب عبد الغفار المدهولي عن تاريخ الجامعة

الملية الإسلامية، والمقالة الثامنة تعالج قضية التسامح والتعايش الإنساني في الإسلام وتعرض عصر الخلافة الراشدة كنموذج، والمقالة التاسعة تصوّر ثقافة الهند في ضو كتاب "حول العالم في 200 يوم" للصحفي أنيس منصور. أتبعنا هذه البحوث العلمية قراءة في رسائل جبران خليل جبران، استعراضًا للترجمة العربية لكتاب "خير الماعون في منع الفرار من الطاعون"، فاتحة لصحيفة "البلاغ" للشيخ أبي الكلام آزاد، تقريرًا لندوة علمية دولية عقدها قسم اللغة العربية بجامعة دلهي (الهند) ووفاة عالم هندي للتفسير والأدب وينتهي هذا العدد على قصيدة رثى فيها الشيخ محمد يوسف السورتي معلّمه المرحوم العلامة أبا عبد الجليل محمد طيّب المكي.

وأخيرًا نشكر كلَّ مَنْ ساهم في هذا العدد من الباحثين والمترجمين وأعضاء هيأة التحرير، وكلَّ من كانت له جهود مضنية في إخراجه في صورته الحالية وتقديمه إليكم.

نسأل الله تعالى أنْ يجعله في ميزان حسناتنا يوم نلقاه.

د. أورنك زيب الأعظمي

ISSN: 2321-7928

تفسير تدبر القرآن

(تفسير سورة آل عمران)

- الشيخ أمين أحسن الإصلاحي[1]

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي[2]

﴿23﴾

21- تفسير الآيات (81-91)

والآن أحال أولًا إلى ميثاق جامع أخذه الأنبياء من أهل الكتاب بخصوص تعضيد النبي الخاتم وحمايته ومن ثم أقرّه أهل الكتاب كجماعة ولكنهم الآن، كما مضى، يعرضون عن أداء مسؤولياته.

ثم سأل أهل الكتاب باستعجاب: إذا أعرضوا عن الإيمان بالنبي الخاتم وأداء مسؤوليات ميثاقهم الذي أوثقوه مع الله فهل يريدون دينًا آخر غير دين الله؟ فإن دين الله هو الإسلام الذي دين الكون كله فإن كل جزء من هذا الكون يعبد الله ويطيعه طوعًا أو كرهًا.

ثم أحال إلى كلمة جامعة للأمة المسلمة وقال: إذا لم يرد هؤلاء أن يتحرّرزا من عُقَد عصبياتهم فاتركوهم على ما هم عليه وأعلنوا بأننا نؤمن بالأنبياء كلهم ولا نفرّق بين أحد منهم وإننا لنعبدنّ الله.

ثم ذكر عواقب جرائم أهل الكتاب وقال: إنّ هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم وكذّبوا

[1] كاتب ومفسر هندي له مؤلفات عديدة ترجم البعض منها إلى العربية والإنجليزية

[2] مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي، الهند

الرسول الخاتم بعد معرفتهم إياه لن يمكن أن يستفيدوا من هدى الله. إنهم يستحقون اللعنة من الله وملائكته وعباده كلهم. والآن اتلو الآيات التالية في ضوء هذا المدخل:

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِىۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

22- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِىۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾

أضيف الميثاق في "مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ" إلى المفعول لا إلى الفاعل فلا يعني أنّ الميثاق أخذ من النبيين بل المعنى أنّ الله أخذ الميثاق من بني إسرائيل عن النبيين، وكان هذا الميثاق، كما ذكر، لكي يؤمنوا بمن جاءهم من الأنبياء لاسيما النبي الخاتم

وينصروه لأنهم كانوا أهل كتاب وحكمة وأمناءَ لهما. وقد ذكر هذا الميثاق في القرآن الكريم بأساليب مختلفة فجاء، مثلاً، في سورة المائدة:

"وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٢"• (سورة المائدة: 12)

في هذه الآية جاءت كلمة "الرُسُل" وهي عامة ولكنه صرّح في آية أخرى عن النبي الأمي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فقال تعالى:

"... فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧"• (سورة الأعراف: 156-157)

فيتجلّى من هذه الآيات أنّ اليهود والنصارى كليهما أخذ منهما الميثاق للإيمان بالنبي الأمي ونصره ولكنهما لم يعتنيا به، ونجد معالم لهذا الميثاق في التوراة والإنجيل إلا أنها قد علاها غبار التحريف فهي لا تبدو للعيان. وسنتناولها بالبحث في موضع يناسبنا.

والمراد من "رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمۡ" هو النبي الأمّي وقد أوضحنا معنى "مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمۡ" في سورة البقرة. وهنا جانب مهم من هذا أنّ بروز النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وصفاته وأعماله قد صدّقت ما جاء في التوراة والإنجيل من النبوءات التي كان أهل الكتاب ينتظرون بظهورها وكان لهم أن ينتظروها لأن تصديق هذه النبوءات ترفع ذكرهم أول ما ترفع وتعطيهم فرصة الافتخار. ولمعنى التصديق المذكور هنا لنتذكّر

قول شاعر حماسي قال:

فدت نفسي وما ملكت يميني فوارس صدّقوا فيهم ظنوني

فإن يتفكّر اليهود والنصارى عن هذا الجانب فيجدوا أن بعثة النبي ﷺ لا تصدّق إلا صحفهم ولكنهم كذّبوا مَنْ صدّقهم، وهذا من سوء حظهم، وهكذا خانوا تلك الأمانة التي قد جُعِلُوْا مسؤولين عنها.

ولـ"قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى" موقع خاص لا بد من تحضيره في الذهن وإلا فلن يمكن فهم شدّة هذه الفقرة؛ كان من عادات الشريعة الموسوية أنه كلما كانت تنزل إرشادات من عند الله فلم يقتنع موسى بقراءتها على أصحابه أفرادًا فحسب بل كان يجمع بني إسرائيل كلهم أو على الأقل رؤساءهم وكانت التابوت توضع أمامهم ثم كان موسى يقرء عليهم الحكم بعد حمد الله ثم يطلب من كل منهم إقرار الطاعة لهذا ثم يؤكّد على شهادتهم بعد هذا الإقرار ثم يُشهد الله عليه وفي النهاية ينبّههم على أجور وعواقب هذا الحكم في الدنيا والآخرة وهكذا فكان كل أمر من الله ونهيِه يبلغ درجة الميثاق بين الله وبين بني إسرائيل وبعد هذا من العجب العجاب أن الشريعة التي قد وجّه هذا القدر من العناية بصيانتها قد مزّقها حاملوها كل ممزّق. في ضوء ما قلنا تفكّروا في قوله تعالى "فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ" فستجدون شدة "بَعْدَ ذَٰلِكَ" الحقيقية ووعيده المراد. وكلمة "فاسق" لم يرد بمعناها الحقيقي بل هي تعني ما تعنيه في قوله تعالى عن إبليس "فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ" (سورة الكهف: 50).

أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

والآن سأل مستعجبًا من إعراض أهل الكتاب وفرارهم عن أداء مسؤولياتهم وقال: ماذا تعني محاولتكم للفرار عن الإسلام ونبيه؟ هل يريد أهل الكتاب هؤلاء دينًا غير دين الله فدين الله منذ أنْ خلق الكون هو الإسلام وهذا الدين الذي بعث به كافة الأنبياء والرسل وهذا هو دين الكون كله فيتبع هذا الدينَ الشمسُ والقمر والسحاب

والهواء والسماء والأرض كلها فإنّ الإسلام أصله تفويض الذات إلى الله فهل شيء في الكون يعتدي على حكم الله وأمره فما تراه من المعتدي في نطاق خياره الضيّق، الذي أقامه الله له وشاءه له، ليس سوى أنه عاجز ومتبع لسنن الله في النطاق التكويني فهل أحد يسعه الفرار من قانون الحياة والموت فيقتضي العقل والفطرة أنْ يتبع الإنسان في نطاق حريته الضيّق سننَ وقوانينَ الله الخالق والمالك الذي يتبع قوانينَه وسننَه في نطاقه التكويني وهكذا فتكون كل ذرة من كونه متغنّية نفس الأغنية ومخرجة نفس الصوت ويقع التوافق بين نطاق حريته وبين نطاق تكوينه وبفضل تفويض حريته التي وهبها الله المرء إلى مشيئته تعالى يتلوّن بلون الملائكة والأنبياء وهذا هو الإسلام، وهذه هي صبغة الله، وهذا هو دين الله وهذا هو دين آدم الذي دعا إليه نوح ومشى عليه إبراهيم والآن يدعو إليه النبي الخاتم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكن من العجب أنّ أهل الكتاب يتركونه فيبحثون عن دين آخر غير هذا!!

وفي "وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ" إشارة إلى الواقع أنه كما لا مفرّ من اتباع قانون الله في الحياة فكذلك لا ملجأ من قانونه بعد المماة فمن يعتقد أنه ينجو بعد الموت من كل شيء فهو ليس كذلك بل هو يرجع إلى خالقه ومالكه ويفوّض نفسه إليه في النهاية.

قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾

قد مضت هذه الآية في سورة البقرة وقد تناولنا كلماتها ومعانيها بالبحث والتحقيق فليراجع تفسير الآية (136) من سورة البقرة. والآن أعلن عن كلمة الإسلام الجامعة على لسان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسياق الكلام هو أنه إذا أراد أهل الكتاب دينًا آخر غير الإسلام فاتركوهم إلى أهوائهم فليهم الشيطان بهم في وادٍ يودّه لهم فلا تضيعوا أوقاتكم وراءهم بل أعلنوا بأنا آمنّا بالله ودينه الذي هو دين كافة الأنبياء ولا نفرّق بين أحد من تلك الأنبياء فنؤمن بالبعض ونكفر بالآخر. إننا نؤمن بكل منهم

ونطيع الله وحده ونفوّض أنفسنا إليه.

وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾

وبعد أنّ أوضح الدلائل في حق الإسلام صرّح الآن بأنّ مَنْ يطلب دينًا غير الإسلام أو يتبعه، يهودية كانت أم نصرانية أم ديانة أخرى غير هاتين، لا يقبله الله فلا يلقى مثل هؤلاء المُحدِثين سوى الحرمان في الآخرة.

كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾

ناقشنا كلمة "الهدى" في تفسير سورة البقرة ولها ثلاث مراحل إذ المرحلة النهائية منها هي هدى الآخرة ففيها يهدى إلى الغاية والهدف فيلقى العبد ما سعى ويرى ما قدّمه حاضرًا. وقد استخدمت هذه الكلمة في هذا المعنى في غير موضع من القرآن الكريم ويخطر ببالي مرارًا أنها استخدمت هنا لهذا المعنى إلا أنّ الأستاذ الإمام يريد بها المعنى العام للهدى فهو يرى أنّ الهدى التي نفي عنها لبني إسرائيل هو من حيث القوم لا من حيث الأفراد والمعنى أنّ القوم الذي ارتكب جرائم شنيعة كهذه كيف يمكن أن يفتح له سبيل الإسلام.

والمراد من الشهادة في "شهداء" هي شهادة القلب بأن قلوب أهل الكتاب هؤلاء تؤمن بأنه رسول حقّ وما يرز لها من الآياتٍ مبينةٌ إلى حد أنها تشهد بصدقها قلوبُهم ولكنهم يكذّبون بها لمجرد البغي والعصبية والحسد.

هذا توجيه ما سبق من الآية، كيف يجعل الله مفلحين من كفروا بعد إيمانهم ومن جاءهم آيات مبينة لهذا الرسول فيكذّبون بها وتشهد قلوبهم بأنه رسول حق فتكذّب به ألسنتُهم فمن يفعل ذلك يظلم على فطرته، وعقله، وروحه وهذه من سنن الهل أنه

لا يفلح من قد محا آثار سبيله بيديه ويضلّل نفسه فعقابه أن يلعنه الله والملائكة والناس أجمعون وتأكيد "أَجْمَعِينَ" مع الناس أنّ الفجّار يلعنون عليهم يوم القيامة كما يلعنهم الصالحون من الناس. وأما لعنة الصالحين فهي واضحة ولكن لعنة الفجّار تأتي لأجل أنهم ضلّوا بسببهم فقد صرّح القرآن أنّ الضالين يلعنون على رؤسائهم وبالعكس فيقول الضالون إنكم قد أضللتمونا فلو لم تقعوا في سبلنا لما ضللنا فيردّ عليهم الرؤساء أننا علّمناكم كما كنّا فقد شقي حظكم بأنكم لم تتبعوا سبيل الرشد والهدى.

والعائد في "خَٰلِدِينَ فِيهَا" هي جهنم فلو أنّ كلمة "جهنم" لا توجد ظاهراً ولكن اللعنة التي ذكرت آنفًا قد وفّرتْ قرينةً لم يحتج إلى ذكرها في شكل كلمة فكأن اللعنة قد قامت مقام العذاب وفي الأدب العربي أمثلة عديدة على هذا وسنتناول هذا الأسلوب بالبحث في سورة الحديد فقال في هذا العذاب أنه لا يخفّ في مرحلة من مراحله ولا يمهلون فيه فحينما يقعون فيه لا يخرجون منه للأبد فلا يفلت من هذا العذاب سوى من اعتبر بهذه التنبيهات فتاب وأصلح وأعلن عما ارتكبه من إخفاء الحق والله توّاب رحيم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

هذا ذكر من لا تقبل توبته وهؤلاء من ارتكبوا ما سلف من الجرائم فكفروا بعد إيمانهم ولم يتوقفوا عند هذا الحد بل ازدادوا كفراً ولما بلغت النفس الحلقوم تابوا قولًا ولم يتوبوا عملًا فلم يُصلحوا أعمالهم ولم يُعلنوا عما قاموا به من إخفاء الحق ولم ينفقوا في سبيل الله ولم يسدّوا نقصهم بتعضيد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بل ماتوا متمنّين، كما ذكر القرآن، أن الله سيغفر لهم فصرّح القرآن أنّ من يحيى في مثل سوء الفهم هذا ليست توبتهم نصوحًا ولا تقبل هي أبدًا.

ومثلهم مثل من كفر بعدإيمانه ومات في هذه الحالة فصرّح بأنه لو أعطى الذهب بقدر الأرض في فديته فلن تقبل فديته وهذا الأسلوب لم يأت سوى بيان شدة عدم إمكانية نجاته وإلا فلا يكون لدى أحد شيء كهذا للافتداء ولا تكون فيها مثل هذه المعاملة ففي "وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ" نفي الأمنية الكاذبة التي كانوا يطوون من قبل سلفهم الصالح فقد صرّح عن عدم تقدّمهم لمعونتهم.

قد مضى هذا المعنى في سورة البقرة ولقد فصّلنا القول هناك ونودّ أن ننقل فيما يلي تلك الآيات لكي يتجلّى بعض ما خفي من جوانب هذا المعنى. قال تعالى:

"إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢". (سورة البقرة: 159-162)

23- تفسير الآيات (92-99)

لو تذكّرت ما مضى آنفًا فلا يشكل عليك فهم سلسلة الحديث التالي فقد ابتدئ من الآية (63) أنما يدّعي اليهود والنصارى بأنهم على ملة إبراهيم هذه دعوى باطلة فليس عليها سوى هذا النبي وأصحابه إلا أن اليهود والنصارى يخلقون أنواعًا من المؤامرة والتحريف فيحاولون إخفاء الحقائق وتضليل الناس لكي يفلتوا عن التضحية بأنفسهم فيؤدّوا بعض تقاليد التديّن الظاهرية ويبلغوا بها الدرجة العليا من الوفاء بالوعد.

فأولًا أزال سوء التفاهم بأنه لا يبلغ المرء درجة البرّ بمجرد أداء تقاليد كاذبة يرائي فيها فإن البرّ هو ما تنفقه مما تحبّه من الأموال فلن يتشجع المرء على التضحية في سبيل الله ما لم ينفق ما أحبّه وظنّه نفيسًا له.

وفي غضون هذا الحديث ردّ على اعتراض اليهود الذي أثاروه على كون المسلمين على

غير ملة إبراهيم وذلك لأن المسلمين أحلّوا من الأطعمة ما كان حرامً في شريعة إبراهيم مثلاً الإبل التي ادّعوا فيها أنها كانت محرّمة في شريعته هي ليست بحلال طيّب لدى المسلمين فحسب بل هي أحبّ مال لديهم ويعتبرون نحره أضخم ثواب. ولم يريدوا بهذه الدعاية سوى إيقان العامة بأن محمدًا (صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وأصحابه على غير ملة إبراهيم فردّ عليهم القرآن بأنّ هذا مما افتراه اليهود فتشهد التوراة ذاتها بأنها لم تحرّم إلا في شريعة موسى.

وبعد أن ردّ على هذا الاعتراض الضمني دعاهم إلى اتباع ملة إبراهيم مشيرًا إلى تلك النبوءات التي جاءت عن كون الكعبة بيتًا عتيقًا، ومركزًا للهدى، ومصدرًا للبركة إلا أنهم حاولوا إخفاءها ثم نبّههم على الآيات التي تشهد بصراحة أنّ إبراهيم قد سكن بهذه الأرض ولا غير واعتبرها دارًا للأمن ومركزًا للحج والعبادة ولم تزل ذريته تحيي ذكراها منذ آلاف سنة.

ثم لام في الآيتين الأخيرتين أهل الكتاب بأن السبيل الذي تم تقريركم للهداية إليه من الأسف الشديد أنكم تحاولون صدّ الناس عنه وإخفاء معالمه وآثاره. والآن اتلوا الآيات التالية في ضوء ما قلنا. قال تعالى:

لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

24- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢

قد مضى تحقيق كلمة "البرّ" في تفسير سورة البقرة. هذه الكلمة روحها الوفاء بالوعد وأداء الحقوق والواجبات سواء كانت هي حقوق وواجبات الله أو عباده فقد كانت بنو إسرائيل صفراً فيما يتعلق بالوفاء بالوعد ولكن كانوا يظنون بأداء بعض التقاليد والأعراف أداء ظاهراً أنما يحتلونه من الدرجة في الوفاء بوعد الله لم يبلغها أحدٌ ولن يبلغها للأبد وعلى هذا فقد كانوا يعتبرون أنفسهم ورثة إبراهيم وغيره من الأنبياء ولن يرضوا عن أن يباريهم أحدٌ في هذا المجال. ولقد قطع القرآن دابر زعمهم الباطل هذا بأن البرّ لا يحصل عليه لمجرد دعاوٍ فارغة أو أداء تقاليد معدودات بل هو يتطلب التضحية بنفيس المرء فستكون دعواكم هذه فارغة ما لم تقدّموا أضاحي ما علق بكم من الأموال الأنفس.

وهذا المقياس لتمييز المحبة والوفاء مقياس كفى به كاشفًا عن كل ما خفي في قلوب بني إسرائيل فإنهم كانوا يحاولون أن يظهروا أنهم متديّنون بدون تقديم أيّ أضحية ولكن طلب التضحية بعليقهم كان يذهب بكل ما حاولوا إخفاءه وهم كانوا يعرفون أن إبراهيم الذي يدّعون ميراثه لم يبلغ ذروة الوفاء بالوعد إلا بتقديم أضحية ولده الوحيد الحبيب، ولقد قام القرآن بالتعريض لهذا الأداء الظاهري للتقاليد والواجبات في غير موضع منه فقال مثلاً:

"لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧" (سورة البقرة: 177)

والمراد من "وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ" لازمه أي بما أن الله عليم بما تنفقونه من مال فلتطمئن قلوبكم إلى أنه لا يضيّع شيئًا مما أنفقتم فإن أنفقتم دينارًا فستجدون ثوابه من عشرة دنانير إلى سبعمئة دينار بل فضله فوق ذلك مما لا حدّ له ولا نعدّ.

كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩٤

هذا ردّ ضمني لاعتراض اليهود الذي أشرنا إليه آنفًا فكانت اليهود يدّعون أنهم هم الورثة لملة إبراهيم لا المسلمون ومما كان يقدّمونه من الدلائل على دعواهم هذه أنما أحلّه المسلمون كان بعضها محرّمًا في ملة إبراهيم ولم يحلّه المسلمون فحسب بل يقفون تقواهم وإنفاقهم على ذلك. ولعلهم أشاروا بذلك إلى نحر الإبل فإنها كانت من أحبّ الأموال لدى العرب بينما هي كانت محرّمة في شريعة اليهود كما جاء في الأحبار.

وقد ردّ القرآن هنا فكرتهم الباطلة بهذه المناسبة فقال أنما يطيب طعامه من الأغذية والأطعمة كانت حلالًا عند بني إسرائيل أولًا ومنها الإبل التي يعيبونها إلا أنّ يعقوب قد حرّم بعض الأشياء على نفسه قبل نزول التوراة فانظروا في التوراة فلا تجدون حرمة الإبل وما شابهها في العهد الإبراهيمي.

والطيبات التي حرّمت في التوراة خلافًا لملة إبراهيم هي ثلاث: أحدها ما قد تم تحريمها لأجل فقهاء اليهود وتحريمهم وتحليلهم واختلافاتهم فهم أفتوا عن تحريم شيء ومن ثم أدخلت فتواهم هذه في التوراة فأصبحت جزءً منها ونالت درجة الكتاب الرباني، وما وقع في التوراة من مثل هذه المختلقات لا مجال للبحث عنها هنا بما أنها تتعلق بتاريخ التوراة وهذا موضع لا يتعلق بنا.

وثانيها: ما تم تحريمه لأجل بغي اليهود ومحاجتهم وتساؤلهم فقد طرحوا عددًا من الأسئلة عن شيء حتى ضاق نطاق جوازها وتحوّل طيب إلى غير طيّب لهم.

وثالثها: ما قد كان يحترز أكله كبارهم وشيوخهم مثلًا أن يعقوب لم يكن يأكل بعض الأشياء لاجتنابه أو لميله الطبعي أو ذوقه الخاص فضمّت اليهود مثل هذه الأشياء إلى إبراهيم وجعلها من محرّمات التوراة.

هذه هي المحرّمات التي سمّيت في القرآن بالإصر والأغلال وقد أنبئ في صحف اليهود أنّ رسولًا يبعث في ملة إبراهيم فيحلّ ما حرّموا على أنفسهم وينجّيهم عن الإصر والأغلال التي وضعوها في أقدامهم وأعناقهم وسنتناول هذا الموضوع بالبحث المشبع حين تفسير سورة الأنعام فنكتفي هنا بالإشارة إليها.

فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ الآية: أي من لا يرجع عن موقفه من هذه المحرّمات ويصرّ على كونها من عند الله فهم يفترون على الله ومن أظلم ممن يفتري على الله!

قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

أمر بأن يقول للناس إنما تقولون افتراء على الله وبهتان عظيم عليه فما أشار إليه الله حق فلا تحاولوا ضمّ بدعكم إلى ملة إبراهيم بل اتبعوا ما يدعو إليه هذا النبي الخاتم من الملة الإبراهيمية فهو كان حنيفًا فلم يختر سبيلًا غير سبيل الله ولم يكن من المشركين.

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾

المراد من بكة[1] هي مكة وبه سمّيت في الصحف القديمة وهي تعني لغة "مدينة" مثل بعلبك (مدينة بعل) وهذا مثال لتحريف اليهود في أسماء العرب فجعلوها بكاء من بكى يبكي

[1] كتب الإمام الفراهي عن بكة في كتابه مفردات القرآن (ص 317-319): "اختلفوا في اشتقاق مكة. ولا شكّ أنها مبدّلة من "بكّة" لمجيئها في القرآن. وهكذا كان اسمها عند حلول إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وذرية إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في واديها: المستعمرة، كما ترى في لفظ "بعلبك". وهذه الكلمة هي التي تبدّلت في العربية: بُقعة. وأصلها من الفارسية. وهي "بغ" كما ترى في "بغداد". ومنها كلمة "باغ" للبستان. ولما جاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من ملك بابل جعل لمكة اسمًا من لسانه".

بكاءً وهكذا فجعلوا وادي بكة وادي بكاء[1] لكي يخفوا معالم إبراهيم وذبحه ولده إسماعيل ويرغّبوا الناس عن النبي الخاتم فذكر القرآن مكة باسمها القديم لكي يشير إلى اسمها القديم الذي كان مذكوراً في صحف التوراة القديمة وهو الآن موجود فيها كالزبور.

في هذه الآيات إشارات إلى المعالم التي تدل على أن البيت الذي بناه إبراهيم لعبادة الله كان هو بيت الله بمكة فجعله مركزًا لملته وفيه دعا "رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا" و"مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ".

ولا يحتاج إلى دليل أنّ البيت الذي بناه إبراهيم لعبادة والله والذي ذكر في التوراة ببيت إيل (بيت الله) لم يكن سوى بيت الله بمكة لا ببيت المقدس لأن بيت المقدس تم بناؤه على أيدي داؤد وسليمان وهما كانا بعد إبراهيم بمآت سنة وهذا أقوى دليل على أن هذا البيت سيكون مركزًا لكل ما عزم عليه ودعا إليه إبراهيم لا بيت المقدس.

فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ: هناك آيات بيّنات على أن هذا البيت الذي بناه إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فلو أن اليهود قد حاولوا أن يمحوا تلك الآيات ولكن التوراة تحتوي حتى اليوم على دلائل قوية تكشف القناع عن كافة تحريفات اليهود وتسلّط الضوء على الحق ولقد ناقشنا هذا الموضوع في تفسير سورة البقرة حين مبحث القبلة فمن يرد التفصيل فليقرأه فلا نودّ إعادة ما قد كتبناه من قبل.

وبعد الإشارة إلى الآيات بالإيجاز اختار أسلوب الخاص بعد العام فذكر ثلاثة أشياء، (1) أنه مقام إبراهيم، (2) ومن دخله كان آمنًا، (3) وعلى كل من استطاع السبيل إليه أن يحجّه.

ولو أننا قد ناقشنا هذا كله في تفسير سورة البقرة ولكن نودّ أن نشير بالإجمال إلى جوانب هذه الأشياء الثلاثة التي تثبت أن هذا البيت مما بناه الله وهو مركز لملة إبراهيم.

[1] راجع: المزمار: 84

المراد من مقام إبراهيم، كما أشبعنا البحث عنه في تفسير سورة البقرة، أن إبراهيم قد خصّ هذا الموضع لقيامه بعد الهجرة وفيه ذبح ابنه بمروة، وأقامه لخدمة بيت الله وإقامة الصلوة، وبه أقام جيله منذ قرون. هذا كله ثابت من التوراة قطعًا لن يقوم رجل عادل بإنكاره.

وتشير "وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا"إلى أن إبراهيم قد دعا لأمن ولده وأجياله حينما كان يقيمه به فهذه الأرض وهذا البيت مظهران لذاك الدعاء. وقد نقل القرآن دعاء إبراهيم ذاك كما يلي:

"وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾" (سورة إبراهيم: 35)

وهذا من بركات هذا الدعاء أن قد أقيمت سنة الأشهر الحرم واعتبر جريمةً أذى أحد من البشر حتى ما لا يعقل من الخلق.

ويبدو من "وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ..." أنما دعا له إبراهيم من أن يكون هذا البيت مرجعًا للناس ومأواهم قد ثبت من كل بقعة من بقاعه ولقد ذكر القرآن الكريم دعاء إبراهيم كما يلي:

"رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾". (سورة إبراهيم: 37)

وكذا ما قيل لإبراهيم من قبل الله تعالى عن الإعلان عن حجه قد قامت سنته منذ تلك الفترة وهي تستمر حتى اليوم. قال تعالى:

"وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ

عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾". (سورة الحج: 26-27)

والهدف من وراء ذكر هذه الآيات كلها، كما ذكرناه آنفًا، إثبات أنّ بيت الله بمكة هو البيت الوحيد الذي بناه إبراهيم وهو يجدر بأن يكون مركزًا لملته ودعوتها فتوجد في التوراة اليوم إشارات وقرائن، على الرغم من أنهم بذلوا أقصى جهودهم لمحوها، تكفي كاشفة القناع عن الحق ولمن يرد تفصيل هذه القضية فليقرأ تفسيرنا لسورة البقرة.

وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ: أي إذا أصر أحد على عناده بعد هذا التوضح والتفصيل وادّعى أنما يسلكه هو ملة إبراهيم وأن بيت المقدس مما بناه إبراهيم وهو مركزه فهو ينكر آيات الله والله لا يعبأ بكفره أو إيمانه بعد أن أتمّ الحجة عليه.

وعلى هذا الجزء من الآية يبنى الحديث الذي جاء فيه: "من ملك زادًا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديًا أو نصرانيًا". (الترمذي، رقم الحديث: 812) نرى أنّ معاملة هذا الرجل تعكس على إعراض اليهود والنصارى الذي مارسوه بشأن بيت الله والذي أضاعوا به إيمانهم.

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

والآن يهدّد أهل الكتاب ويوعدون على تكذيبهم بالآيات المذكورة في صحفهم والمتعلقة بملة إبراهيم، وبيت الله، والنبي الخاتم ومن ثم على حشوهم أذهانَ الناس بالشكوك فليعلموا أنما يقومون به من المعالمة السيئة مع الله وآياته كأنهم يقومون بها أمام أعين الله وهو يرى كل شيء. وأنهم كانوا شهداء دالّين على هذه الطريقة ولكنهم أصبحوا قطّاعي الطرق مضلّين عنها فلا يخفى على الله ما يقومون به من ترغيب الناس عن هذا السبيل وإعادة مَنْ وقع على الصراط المستقيم إلى الطريق الوعر المليئ بالضلال.

25- تفسير الآيات (100-109)

حتى الآن وجّه الخطاب إلى أهل الكتاب وعندما ما تمّت الحجة عليهم لفت الخطاب إلى المسلمين فهم ينبّهون على أن لا يؤمنوا لأهل الكتاب عسى أن يعودوا في التهلكة التي كانوا فيقعوا في الظلام بعد أن جاءوا إلى النور.

ثم أشارهم على الشعور بتقدير هذه النعمة الكبرى والشكر عليها والتي حصلوا عليها في صورة هذا النبي وكتابه العزيز وهداهم إلى الطريقة التي يمكن أن ينجوا باختيارها من الفتن التي كان يثيرها أهل الكتاب لتضليلهم كما دلّهم على النظام الاجتماعي الذي لا بد منه للثبات على الصراط المستقيم لهذه الملة وإلا فستلقى نفس العاقبة التي لقيها أهل الكتاب أنفسهم. والآن اتلوا الآيات التالية في ضوء ما قلنا، قال تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَـٰنِكُمۡ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٠١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَـٰتُۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَـٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلۡكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

26- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ١٠٠

والمراد من "فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ" فريق أهل الكتاب الذي قد مضى تفصيل معارضته ووسوسته. وقد كان فيما بين أهل الكتاب، كما مضى، فرقة منصفة ولذا فقد لاحظ القرآن في كل موضع منه أن لا يمسّها جانب من الظلم فلما أكّد المسلمين عليه من اجتناب وساوس أهل الكتاب ومعارضاتهم أشار بالإيقان إلى تلك الجماعة التي أريد اجتنابها. وقد اقتضى الإنصاف وهذا ما وافقته مصلحة الدعوة وحكمتها.

وجانب التنبيه الخاص في هذه الآية هو يمكن لأحد أن يخدع بما أنهم من أهل الكتاب فلن يقولوا خطأ وضلالة ولكن من الواقع أنهم أعداء ألدّاء للإسلام فلا يَدَعونه إلا وهو كافر إذا وقع أحد بحبالتهم.

وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٠١

الاعتصام أخذ شيء بالقوة فالاعتصام بالله هو الاستقامة على أحكام الله وإرشاداته بكل سهل وحَزَن معرضًا عن كل مخالفة.

فالآية تعني أنه ولو أنّ الكفر والردة دليلان على شقاوة المرء في كل حالة ولكنكم لو اخترتم هذا السبيل حينما تتلى عليكم آيات الله ورسول الله بين ظهرانيكم فستكون هذه نهاية حرمانكم وشقاوتكم وهذا يعني أنكم كبوتم في وضح النهار ولم تبقوا أدنى شائبة للعذر لكم ثم دلّ على طريق احتناب هذه الكبوة وهو الاستقامة على سبيل الله وأنْ تؤمنوا بما تتلى عليكم من آياته ولا تزلّوا عنها على كل مخالفة ومعارضة.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢

والآن أوضح حقيقة الاعتصام بالله وتلك أن تتقوه كما يرام، ولو أن التقوى مطلوبة من العباد قدر مستطاعهم بحيث أن القرآن ذاته قد أوضحها قائلًا: "فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ" (سورة التغابن: 16) ولكن هناك فرق بين تقوى الله ومخافة الآخرين ولذا قال "ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ" كما يرام فأولها أنّ على العباد من حقوق الله ما ليست للآخرين وثانيها أنّ الحدود التي حدّدها الله للعباد والعواقب التي أعدّها إذا ارتكب تجاوزها فهي لرفاهيتهم الدنيوية والأخروية فالتزامها لا يفيد الله شيئًا بل هي للعباد ذواتهم وثالثها أنّ العباد ليسوا على خفاء من الله حتى إنه يعرف ما توسوس به القلوب ورابعها أنْ لا عاصم من بطشة الله وهو يقدر على أن يجزيه في الدنيا والآخرة كلتيهما وجزاؤه خالد لا يزول فلن يفهم العباد معنى التقوى تمامًا ما لم يضعوا أمامهم هذه الجوانب كلها لتقواه ودعْهم أن يؤدّوا حقها حق الأداء فمن يترك شريعة الله خوفًا من الناس ضلالهم مبني على هذا الأساس بأنهم لا يفرّقون بين مخالفة الناس وغضب الله.

وفي "وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ" بيّن هذه الحقيقة الدقيقة أن تقوى الله هذه ليست مؤقتة بل هي تمتدّ حتى الموت فبها يحيون وعليها يموتون، فبها تبتدئ الحياة وعليها تنتهي فإن انقطعت هذه السلسة في وسط الطريق أو في أيّ مرحلة من مراحلها فسيبطل كل ما سعى لها، وكذا يضمن أسلوب الآية أنّ هذا الطريق ليس بسهل بل هو حزن وفيه أنواع من المدّ والجزر فلا بد من المرور بأنواع من البلاء والفتنة ولا بد من مواجهته لشتى وساوس الشياطين وتسللات الأعداء فتارة يراودهم الحرص وأخرى يعدهم الخوف فمن بلغ الغاية محافظًا على إيمانه بكل مرحلة من مراحله ولقى الله بنفسه في هذه الحالة هو يتقي الله كما يرام وهذا هو معنى الاعتصام بالله.

وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣

الحبل يعني الرسن ومن هنا تدرّج في معنى العلاقة والإصر لأن الحبل يربط الشيئين بعضهما بالبعض، يقول شاعر حماسي:

ولكني وصلت الحبل منه مواصلة بحبل أبي بيان[1]

ومن ثم تدرجّ في معنى الميثاق لأن الميثاق يعمل عمل الحبل. والقرآن بنفسه قد استخدمها في هذا المعنى فقال: "إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ" (سورة آل عمران: 112). والمراد منه القرآن في الآية التي نحن بصدد البحث عنها فإن القرآن كميثاق بين الله وعباده فالاعتصام بحبل الله لا يعني ظاهر المعنى لأنّ الله ليس بمن هو يمكن مسحه وأخذه فصورة الاعتصام به هي الاعتصام بكتابه لأنه واسطة بيننا وبينه تعالى فكأن "وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ" توضيح لـ"مَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ".

هذا ما ذهب إليه قتادة والسدي وعبد الله بن عباس ومجاهد والضحاك وقد روى ابن جرير عن أبي سعيد الخدري:

"قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض".[2]

كأنه هو الذي يربط العباد بربهم فمن اعتصم به فكأنه اعتصم بالله فمن يعبّر عنه بعهد الله من السلف يريد بحبل الله هو القرآنَ الذي هو كالميثاق بين الله وعباده وعلى هذا فقد عبّر عن الصحف السماوية بالميثاق والعهد وسنقوم بالبحث المشبع حول هذا الموضوع في سورة المائدة.

وتأكيد "جَمِيعًا" مع الاعتصام ونهي "وَلَا تَفَرَّقُواْۚ" قد أوضحا أنه مطلوب من حيث الجماعة فليعتصموا جميعًا بهذا الحبل وبه تجمع شمل المسلمين وإن تركوه فتتشتّت هي وإن جاء الضعف فيه وقام مقامه حبال أخرى وجعلوا مستويات أخرى للتمييز بين

[1] (وهو ربيعة بن مقروم)، شرح ديوان الحماسة، 701/2 وديوانه، ص 59

[2] تفسير الطبري، 646/5

الحق والباطل فتتشتّت شملهم كما حدث مع اليهود والنصارى.

ثم ذكّرهم تلك النعمة الكبرى التي نزلت على هؤلاء العرب بفضل هذا الكتاب فقد كانت كل قبيلة عربية عدوًا للأخرى قبل نزول هذا الكتاب وكانوا يخوضون في معارك دامية قبله فكانت آلهتهم مختلفة وأهدافهم غير موحّدة ولكنه لما جاء هذا الحبل الرباني قد نظمهم في سلك واحد فأصبح من كان عدوًّا صديقًا حميمًا للآخر وهذا يعني أنهم لو أراردوا أن يبقوا هذه الحالة الجديدة فيتبعوا الله ويعتصموا بحبله وإن ضعفت هذه العلاقة ولم تقوِ قبضتهم به فسيعودون إلى جاهليتهم القديمة التي كانوا فيها. كنتم على شفا حفرة من الهلكة فأنقذكم الله به فلا تحاولوا السقوط فيها مرة أخرى تاركين هذا الحبلَ المتينَ.

وبما أنّ هذا مكان مهم والإرشادات التي تعطى هنا لها علاقة وطيدة مع مستقبل المسلمين وإن وقع خطأ أو زلة فعسى أن تنفتح أبواب متعددة للفتن العمياء فقام الله ببيان إرشاداته هنا كما أشرنا إليه لكيلا يبقى باعث على الضلال. وعلى هذا فقد قال تعالى "كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ الآية.

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾

هذا إرشاد للأمة إلى تلك العناية التي لا بد منها للاستقامة على الاعتصام بالله وإقامة الناس عليه فقيل لهم أن يعيّنوا جماعة منهم تدعو الناس إلى الخير وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر. والمراد من المعروف والمنكر هما للشريعة والمجتمع كليهما، وما استخدم لها من كلمتي الأمر والنهي فهما تعنيان عادة أنهما لا يتمان بمجرد النصح بل يجب أن تعطى خيارًا وسلطانًا من الحكومة، وإن أريدت مجرد الدعوة وتبليغ الدين فكفاها كلمة "يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ" ولم يحتج إلى "يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ". وعندنا هذه الآية

تثبت إقامة الخلافة في هذه الأمة وعلى هذا فأوّل ما قام به المسلمون بعد وفاة النبي (صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ) هي إقامة الخلافة على منهاج النبوة، وكان هذا المعهد يهدف أصلاً إلى رقابة اعتصام المسلمين بالله. والطرق التي تم اتخاذها لها كانت ثلاثًا، الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن هذه الطرق الثلاث وجدت في عهد الخلافة الراشدة كافة الأقسام التي ثبتت ذرائع لأداء كافة مسؤوليات الملة الداخلية والخارجية.

وليست "وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ" متعلقة بهذه الجماعة الخاصة فحسب بل هي إشارة إلى الأمة كلها فالأمة التي تعتني بالاعتصام بالله هذه العناية ستلقى الفلاح في الدنيا والآخرة.

ثم نبّه المسلمين عن عاقبة اليهود والنصارى بأنهم تركوا حبل الله على الرغم من تنبيهات بيّنة من الله ثم عنوا حبل الله مهما وقع بأيديهم من الحبل، الأمر الذي قد سبّب الاختلافات بينهم، التي صعب القضاء عليها فقال لهؤلاء المسلمين بأن لا يضيّعوا دنياهم ولا آخرتهم فإنّ ما سلكه اليهود والنصارى ليس طريقًا للفلاح بل هو يستلزم العذاب الأليم.

يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٨ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ١٠٩

إذا تفكرت في هذه الآية في ضوء نظم الكلام وجدت ما يلي:

1. أنّ أهل الكتاب قد وقعوا في الاختلاف والفوضى بعدما حرموا الاعتصام بحبل الله وهذه الفوضى والاختلاف عبارة عن الرجوع إلى الكفر بعد الإيمان.
2. من ينعم عليه الله بأنه يعطيه حبله، إذا تركه، لشقاوة حظه، وأوقع بعنقه غلاً آخر لقي اسوداد الوجه يوم القيامة قدرما تمتع من نعمته فلا يتلألأ إلا وجه من اعتصم بهذا الحبل في كافة الظروف. إن هؤلاء يستحقون فضل الله ونعمته.

3. أنّ ما وجّه من هذه التنبيهات حق أي لا بد من أن تقع فلن يظنها الناس وعيدًا فارغًا فيصرفوا النظر عنها فإنهم سيتسبّبون إلى اسوداد وجوههم بأنفسهم ولا يرجع فضله إلا إليهم ولقد نبّههم الله عن هذا من قبلُ لأنه لا يريد أن يجزي أحدًا قبل أن تتمّ حجته عليه.
4. كل ما في السماوات والأرض يملكه الله فتعرض كافة القضايا له فهو يفصل عنها ويفعل كيف شاء فإن عقد أحدٌ الأمل مع آخر فأمله هذا ليس سوى وهم يثبت سرابًا بعد ظهور الحقيقة.

لنعلم هنا أنّ هذه التنبيهات كلها توجّه إلى المسلمين لكي يحذروا كافة هذه الأخطار.

27- تفسير الآيات (110-120)

كانت التنبيهات المذكورة أعلاه تنبئ عن الواقع أن أهل الكتاب الذين كانوا قد تمتعوا من منصب الخلافة قد ثبتوا غير جديرين به من كل جهة فتم عزلهم عن هذا المنصب وفوّض الله هذه الأمانة إلى تلك الأمة التي كانت جديرة به. وكذا بشّر المسلمين أنّ أهل الكتاب لا يقدرون على إلحاق الضرر بكم مهما حاولوا بل سيلقون هزيمةً في مكان وينالون الذلة والهوان.

وخلال هذا الحديث أثنى على من استقام على الحق من أهل الكتاب ومن ثم اعتنقوا الإسلام.

ثم أشار إلى مرض أهل الكتاب الأساسي الذي قد عرقل سبيلهم إلى اعتناق الإسلام كما أوضح أنما يقومون به من أنواع الرياء للقيام على الدين ستذهب هواءً ولا تعود بشيء لهم.

ثم نبّه المسلمين وأمرهم بقطع كافة العلائق معهم فإن قلوبهم ليست فيها سوى العداوة لكم ولم يبق فيهم رمق من الخير والصلاح. في ضوء هذا المدخل اتلو ما يلي من الآيات:

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ

ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿١١٢﴾ *لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾

28- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾

"كان" هنا تامّة كما جاءت في قوله تعالى "كَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا"، وفي "خير أمة" إشارة إلى الواقع بأنكم على شارع سويّ للدين فالدين الذي قد أنزله الله قام أهل الكتاب بخلق العوج فيه فأضلّوا السبيل والآن أقامكم الله لكي تهدوا الناس. ونفس الحقيقة قد بيّنها الله تعالى في سورة البقرة كما يلي: "وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا

لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ" (143) فقد ذكرنا هناك أنّ هذه الأمة على الصراط المقتصد وعلى هذا فهي خير أمة. وأما "لِلنَّاسِ" فقد أضيف فيه مضاف وذلك إصلاح الناس وهدايتهم والشهادة عليهم كما قال "لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ".

تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ: هذا دليل على كون هذه الأمة خير أمة وهذا يعني أنكم خير أمة لأنكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله وهذه إشارة إلى أنكم لم تحتلوا هذا المنصب على أنكم من أعلى نسب وأجمل حسب كما ظنّه أهل الكتاب بل لأنكم حمّلتم مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فثبت من هذا أنّ هذا المنصب مقيّد بالصفات والمسؤوليات لا على الانتماء إلى جماعة خاصة فيقلّب الأمر ظهراً لبطن ويبطل الحق ويحقّ الباطل كما فعله اليهود والنصارى.

وفي "تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ" إشارة إلى أنّ الأساس هو الإيمان بالله فإذا تمتع أحد من عزة أو فضل فلا يحصل عليه سوى الإيمان بالله فلا يعترف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا وأن يشترط بالإيمان بالله فالنصائح والعظات الفارغة التي تصدر من المنابر والمسارح مثلها مثل ما قال الله تعالى عن علماء اليهود "أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ". (سورة البقرة: 44)

الفسق هنا للخروج عن الإيمان والطاعة وقد قمنا بشرحه في موضع آخر.

هذه الآية إعلان عن منصب الإمامة لهذه الأمة نظراً للنظم كما أسلفنا القول فقد كتبنا في مدخل هذه السورة تحت الدعاء "ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ الآية" أنه يضمر الأمر بعزل أهل الكتاب وبإقامة الأمة المسلمة مقامهم ولذا فقد تم توضيح أنواع نقض العهد من قبل اليهود والنصارى بالتفصيل ثم أعلن أنّ منصب خير أمة يستحقه المؤمنون لا اليهود والنصارى، ولقد قال عن اليهود والنصارى أنهم لو آمنوا بالقرآن والنبي لكان خيراً لهم وما يختفي في "لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ" من الإشارات يشير إلى غضب المتكلم الذي لا تكاد الكلمات تبيّنه ثم قال بأسلوب ملؤه الحسرة إنهم أهل الكتاب مع أن المؤمنين منهم

قلائل فقد كان أغلبيتهم من الناقضين للعهود والمنكرين للأحكام.

لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾

"أذًى" يعني الحزن والضرر والمعنى أنّ أصلهم مقطوع فليست فيهم قوة لإلحاق ضرر كبير إليكم فلا يقومون سوى بالطعن والبهتان والافتراء فليست لهم قوة فوق ذلك وإن خرجوا مواجهين لكم فسيولّون الأدبار وينالون ذلة لا ينصرهم أحدٌ وقد صدّق هذه النبوءة القرآنية ما حدث فيما بعد فقد جاء نفس المعنى بهذه الكلمات "وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا" (186).

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ: أي ألزمت الذلة بهم مثل ضرب الطبن على الجدار وفيه إشارة إلى أنهم اختاروا سبيل الذلة بدل العزة فجعلت الذلة لازمة بهم وأما "أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ" فهذه إشارة إلى إحاطة الذلة بهم وسعة نطاقها بالنسبة لهم فالذلة نصيبهم أينما هم حتى أنهم أذلاء في مركزهم فلا منطقة في العالم ينالون بها عزة ويقبلون بها للقيام أمام الأعزة والكرماء.

وفي "إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ" إشارة إلى أنهم لو قاموا في مكان فليس بسطوتهم وعزتهم بل قد أمّنهم أيّ ميثاق من أهل الله أو قد لجأوا إلى قبيلة مجاورة لهم ولكن هذه المآوي موقتة لا تدوم فما عقده النبي ﷺ من العهود مع القبائل المعادية لهم قد قضي عليها لأجل نقضهم لها وفسادهم في الأرض فإما قتلوا بجريمتهم أو نفوا من أرضهم، وما عقدوه من المواثيق مع القبائل الأخرى قد جاءت تحت الإسلام شيئًا فشيئًا فبطلت تلك المواثيق أو بقيت غير مؤثرة لهم فالشجر الذي لا يقوى أصله حتى متى يقوم على العمد، وتأتي تحت هذا الحكم دولة اليهود المزعومة اليوم كما أشرنا إليه في موضع

آخر من هذا التفسير فهي ليست قائمة على قوتها بل هي تقوم بـ"حَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ" أي على أمريكا وإنكلترا والشيء الذي يقوم على غيره سواء له أهو قائم أم منهار.

وقد أوضحنا معنى "وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ" في تفسير سورة البقرة بأنه ذكر شقاوة اليهود وعاقبتهم بأنهم قد رجعوا بغضب من الله من حيث حسن لهم أن يرجعوا بعزة دنيوية وأخروية، الأمر الذي قد ضرب الذلة عليهم فقد جعلهم الله على منصب الإمامة والشهادة فإن بقوا مؤدين هذه المسؤولية وثابتين على ميثاقهم لنالوا العزة في الدنيا والآخرة ولكنهم لم يتحملوا هذه المسؤولية لدناءة همتهم وحبّهم للدنيا فاستحقوا الغضب من الله ولنضع أمامنا أنه مهما علا المكان صعب الصعود فيه وكذا وخمت عاقبة السقوط منه.

والمراد من "وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ" عدم العزيمة ولقد أوضح القرآن فتور همة أهل الكتاب بأمثال عديدة مبينة يتضح منها أن اليهود كانوا يحبّون الدنيا ولم تبق فيهم عزيمة على طلب الآخرة والتضحية لها فلم يجمعوا خواطرهم على التضحية بأبخس أشيائهم الدنيوية على أعظم أجر في الآخرة فيبدو من التوراة أنّ موسى قد لعن على هذا الجانب منهم غير مرة كما لامهم فيه مَنْ تأخر عنه من الأنبياء كما أشار إليه القرآن في غير موضع منه فمثل الكلب مثل لفتور همتهم وستعلمون إذا تفكّرتم أنّ فتور عزيمتهم هو الذي سبّب لزوم الذلة بهم.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ الآية: هذا هو السبب وراء هذه الذلة والمسكنة والغضب فقال إنهم كانوا ينكرون آيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق وذلك لأن آيات الله وسيلة للعلوّ والعزة فمن ينكرها ويستمر في إنكارها فلا يستحقون إلا الذلة وقد بيّن القرآن هذه الحقيقة بمثل قال فيه: "وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ" (سورة الأعراف: 176)، ونفس الأمر مع من يقتل الأنبياء والآمرين بالقسط فإن الأنبياء يكونون خير الناس ونخبتهم وتسعد بهم الإنسانية وتبلغ بهم ذروة الكمال فإن قام أحد بقتلهم فهل تسعد إلا بغضب الله والذلة؟!

ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ: هذا سبب لكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء أي أنهم

قد اعتادوا على العدوان وتجاوزهم عن حدود الله، الأمر الذي حملهم على الكفر بآيات الله وقتل الأنبياء وفي النهاية إنهم استحقوا الغضب من الله وضربت عليهم الذلة والمسكنة.

وبعد توضيح الأجزاء تدبّروا جانب النظم فيها فستعلمون أنما قيل في الآية السابقة قد ذكر في اللاحقة دليله أي هل أمكن لمن ضُرِبَتْ عليه الذلة في كل مكان ولا يحيى إلا على معونة منك هل أمكن له أن يضرّ بك؟

لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

"أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ" هي جماعة قائمة على ميثاق الله وشريعته، "يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ" أي هم يتلون كتاب الله في الليل ويصلّون فتلاوة القرآن والصلوة بالليل دليل على القيام بعهد الله فلا يقوم بهما إلا من يشعر شديدًا بمسؤوليته الكبرى. وأما التعبير عن الصلوة بالسجود فهو لأن السجود أهم أركان الصلوة، وأنه آية بيّنة للخشوع والخضوع، وأنه أخرجه اليهود من صلوتهم كما أشرنا إليه في هذا التفسير.

هذا بيان الشرذمة القليلة من أهل الكتاب التي قد استثنيت من أغلبية أهل الكتاب التي قد ذكرت في الآية السالفة فقال إنّ أهل الكتاب كلهم ليسوا كما ذكرنا بل فيهم من يستقيم على ميثاقه، ويصلّي ويسجد في الليل، ويؤمن بالآخرة، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويسابق في الخير، فقد كان فيهم مَنْ آمن بالنبي غير سرّ كما كان فيهم مَنْ لم يؤمن به حتى الآن إلا أنه كان مؤمنًا صادقًا في الداخل حتى آمن به فيما بعد فقد أحصاهم القرآن من بين المتقين والصالحين فما يقوموا به من خير لا يحرموا أجره فسيلقون أجر ما قاموا به من قبل دخولهم في الإسلام وإلى نفس الجماعة أشار في نهاية هذه السورة حيث قال:

"وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ

لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾". (سورة آل عمران)

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

هذا بيان أهل الكتاب الذين قد اعتكفوا على كفرهم فقال فيهم إن الأموال التي قد ألهتهم عن الله لن تعصمهم عن بطشة الله وعذاب جهنم فهم يدخلون فيها ولا يخرجون منها أبدًا وما ينفقونه من أموالهم أداءً للتقاليد ورياءً لا ينفعهم شيئًا يوم القيامة فمثل إنفاقهم مثل مزرع أصابته ريح ذات صرّ فأهلكته فما يقوم به المرء من أعمال الخير مع الكفر والشرك يذهب باطلًا فالكفر والشرك نار باردة لا تعود بما بذله المرء من الجهود إلا باطلة لا عائدة فيها وقد جاء في الآية السابقة أنّ من استقام على إيمانه من أهل الكتاب ثم آمن بالقرآن بعد نزوله قد ضمّت حسناتهم السالفة إلى ما قاموا به من بعدُ فأوضح في هذه الآية أنّ من لم يثبت على ميثاقه ولم يدخل في الإسلام سيبطل ما قدّمه من الخير من قبلُ.

وفي "وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ الآية" إشارة إلى أنّ الله لم يرتكب ظلمًا لهم بل هذا مما قاموا به بأنفسهم فالشجرة تبقى سالمة إذا بقي أصلها ثابتًا وقويًا فإن قطع أصلها أو قلعت فلا ينفعها مهما رشّ الماء على أوراقها فإن يلم أحدٌ على خرابه فهو هو ولا يلام الله وسنته.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ ۖ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً: البطانة وليجة الرجل فبطانته أسرته من زوجته وأولاده، وخوّاصه

ومن يحفظ غيبه. والخبال هو الفساد ف"لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا" يعني أنهم لا تفوتهم أيّ فرصة لإفسادكم وتشتيت شملكم. والعنت هو المشقة والمصيبة. ف"وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ" يعني أنهم يأملون أن تزلّ أقدامكم في هذا الطريق وأن تقعوا في المشاكل. والمراد من "قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ" تلك الأحاديث التي تطوي بين جنبيها عداوة شديدة للإسلام وهي تشير إلى أنّ أهل الكتاب يتحمّلون كل شيء سوى الإسلام وأتباعه فقد نقل القرآن الكريم قولهم هذا بأنّهم يرجّحون حتى المشركين على المسلمين علنًا فيقولون إنهم أهدى من المسلمين. (هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾). [سورة النساء: 51]

والضمير في "هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ" تخلّل بين "ها" و"أولاء" فالهاء حرف للتنبيه يستخدمه العرب عندما يريدون التوكيد على أمر. ومثله مثل "ها أنا ذا".

ولقد فصّلنا القول عن "تُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ" في سورة البقرة. فالفرق بين الصحف القديمة وهذا القرآن هو الفرق بين الجزء والكل فقد أعطي أهل الكتاب جزءًا من كتاب الله وأخّرَ إعطاء الكتاب كله إلى بعثة الرسول الخاتم فنجد تكرار ما يلي عن أهل الكتاب "أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ" (سورة آل عمران: 23) فكتاب الله الكامل هو القرآن المجيد كما أنّ دينه الكامل هو الإسلام فلمّا يؤمن المسلم بالقرآن الكريم فهو يؤمن بكتاب الله كله مما نزل من قبل ومما نزل من بعدُ، والقرآن جامع لهذا الكل.

ومعنى "وَإِذَا خَلَوْاْ" أنهم إذا كانوا في جلساتهم الخاصة كما قال في سورة البقرة في نفس السياق: "وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ" (الآية: 14)

ولقد وجّه إلى المسلمين تبيه يشبه تنبيهم الماضي في الآية 28 فلو أنّ الخطاب عامّ ولكن المراد منهم المسلمين، كما أشرنا إليه في تفسير الآة 28، الذين إما لم يدركوا كيد أهل الكتاب لسذاجتهم أم لم يريدوا قطع علائقهم معهم لضعف إيمانهم، والحال أنّ علاقة أيّ مسلم مع أهل الكتاب لم تبق مخلصة بل كانت للمؤامرة أيما كانت. فقد نبّه القرآن بصراحة ونهائيًا بألّا يجعل المؤمنون بطانة ممن ليس منهم فإنهم لا يألون بأيّ ضرر لكم،

إنهم لا يتمنّون النجاح في هدفكم بل على الرغم من ذلك إنهم يتمنّون لكم وقوع المشاكل والمصائب. ولقد تبدو عداوتهم من كلامهم وأما ما في صدورهم فهو أشدّ وألدّ مما يبدو. ثم قال إننا قد بيّنّا هذا الأمر لهم فإنْ لم يدركوا بعد ذلك فسيلقون عاقبته.

ثم عيّرهم بأنكم توطّدون أواصر المحة معهم وأما هم فلا يحبّونكم شيئًا وإنكم تؤمنون بالكتاب كله وتؤمنون بالأنبياء أجمعين وأما هم فلا يرضون بأنْ يؤمنوا بكتابكم. وإذا لقوكم قالوا إننا معكم لكي يخدعوكم[1] وإذا خلوا إلى أشياعهم عضّوا عليكم الأنامل.

وضمن هذا الحديث قال على لسان النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عن هؤلاء الذين يعضّون الأنامل على المؤمنين بأن موتوا بغبظكم ولا تستطيعوا بإلحاق أيّ ضرر بالإسلام وأتباعه.

وبعد هذا الاعتراض اتصل الحديث بسلسلة الكلام الماضية وقال إنهم إذا لقيتم نجاحًا فيحزنون وإذا لقيتم خسرانًا فيغمرهم السرور. ولكنكم إذا استقمتم وأعرضتم عما أمرتم بالإعراض عنه فلا يضرّكم كيدهم فالله محيط بكل ما لديهم من الكيد والمؤامرة. ولتوضيح هذه الفقرة النهائية للآية ليراجع الآيتين (125 و186) من هذه السورة. ولنعضّ بالنواجذ نكتة مهمّة لابن جرير تحت "وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ" فهو يقول: "فنهى الله المؤمنين به أنْ يتخذوا من الكفّار به أخلّاء وأصفياء، ثم عرّفهم ما هم عليه لهم منطوون، من الغشّ والخيانة، وبغيتهم إيّاهم الغوائل، محذّرَهم بذلك منهم ومن مخالّتهم".[2]

29- تفسير الآيات (121-129)

والآن يأتي عرض الأحداث والظروف التي وقعت بعد غزوة بدر، وهذه السلسلة للكلام تنتهي إلى نهاية السورة. وقد أوضحنا في تمهيد مضامين هذه السورة أنّ الهزيمة التي لقيها المسلمون في غزوة أحد من سوء تدبير إحدى وحدات جيشهم قد أثرتْ في كل جماعة كانت لها أيّ علاقة بهذا النزاع الجاري بين الإسلام والكفر، فالذين كانوا

[1] أوضحنا هذه النكتة في سورة البقرة فراجعوها

[2] تفسير الطبري، 708/5

ضعفاء من بين المسلمين قد تغيّروا بعد هذا الحادث، الأمر الذي اغتمه المنافقون فجعلوا يوسوسون في قلوبهم عن الإسلام ومستقبله والنبي الخاتم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. كما أنّ اليهود قد تشجّعوا بهذا الحادث فتحمّسوا في خلق الدعايات ضد الإسلام وممارسة الأنواع من الكيد الخفي مقابل الرسول. وفي جانب آخر أنّ الأذى الذي أصاب قريشًا من هزيمة بدر قد زال بهذا الحادث وجعلوا يتشجّعون على هزم الإسلام وأتباعه من جديد.

ولذا اقتضت هذه الأوضاع أن يتمّ عرض وقائع أحد فإزالة جميع الأخطاء التي كان المعارضون يخلقونها في أذهان الناس. كما أنّها وفّرت أجمل فرصة للتنبيه على زلات وأخطاء المسلمين ولإرشادهم إلى تجنّبها لكي تطهر هذه الأمة من الأخطاء وتكون قابلة لتحمّل مسؤوليات هذا المنصب العظيم الذي ولّوه في آية "كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ". فلما وصل الحديث إلى غلبتهم وعدم تضرّرهم بكيد أعدائهم بشرط أن يتحلوا بالصبر والتقوى خُلقت أحداث غزوة أحد فرصة جميلة لبيان الأخطاء والزلات التي توجد في المسلمين من حيث الجميع والتي تسبّبت لهذه الهزيمة، وما هي الدروس التي تحويها لإصلاح الأفراد والجماعة وتزكيتهم.

في ضوء هذا المدخل اتلو ما يلي من الآيات:

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

30- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

بَوَّأَ يُبَوِّئُ: أقامه ومكّنه وولّاه، والمقاعد جمعُ مقعد هي ما يجلس فيه ولكنها توسّعت لمعنى المراصد. وإذا كانت قرينة تدلّ على جبهات الحرب فلا بأس في إرادتها.

هذه الآية تمهيد للعرض القادم لأحداث غزوة أحد وللآثار التي برزت منها. وبما أنّ هذه الحرب كانت حديثة العهد بالوقوع فلم تكن خافية على أحد ولذا كفت الإشارة إلى أحداثها بدون تسميتها. ولكنه إذا كان هذا العرض للأوضاع والآثار التي كانت تمتّ بعض جوانبها بكيود بعض الجماعات الخفية أو هي كانت متعلقة بالأخيلة والانطباعات العقلية والقلبية فنبّه الله سبحانه في التمهيد محيلًا إلى صفتيه السميع والعليم على أنه لا مجال لأحد أن يسأل عن هذا العرض وينتقده فيردّده لأنه من لدن مَنْ يعرف بكلّ شيء فما قال أو رأى يبنى على ما لا يخطئ من السمع والعلم.

إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

الفشل هو فتور العزيمة والانخلاء عن الإرادة القوية فالحرب أهمّ شيء فيها العزيمة والتشجّع، وأما أسبابها وما والاها فهي تأتي بعدها ولذا أول ما قام به هو التنبيه على ضعف بعض الجماعات من هذه الناحية.

الأذلّة جمعُ الذليل وهو ضدّ العزيز الذي يعني الغالب والقوي وفوق بطشة الآخرين فالذليل يعني الضعيف والمفلس وكلحم على وضم لغيره فالرذالة الخلقية ليست من أصول هذه الكلمة بل هي من لوازمها البعيدة وعلى هذا فتستعمل هذه الكلمة للمعاني الحسنة كمثل "أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ" (سورة المائدة: 54) أي أنهم أشدّاء كالصخور إذا أراد الكفّار أن يدنوا إليهم فيلينوهم لأهدافهم وأمانيهم ولكنهم ألين من الوردة إذا كان الأمر مع المسلمين فلهم أنْ يستفيدوا منهم كيفما شاؤوا. فلا تدلّ هذه الكلمة هنا إلا على ضعف المسلمين العددي والمادّي خلال تلك الفترة.

الجماعتان اللتان أشير إليهما في الآية هما بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس كما ذكره المفسّرون، فقد انولد فيهما شيء من الجبانة من أجل وسوسة المنافقين ولكنهما تذكّرتا فيما بعد وأصلحتا، فالواقع أنّ المنافقين لم يكونوا يريدون أن يخرجوا لهذه الحرب وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدرك هذا الضعف منهم فأراد أنْ يتأكّد من الواقع قبل النهوض لها والخروج فعرض للمسلمين سؤالًا ليمتحنهم: هل نواجه قريشًا كائنين في داخل القرية أو بارزين خارجها فأجاب المسلمون المؤمنون حقًّا ما رجي منهم بأن نقاتلهم خارج القرية ولكنّ المنافقين جعلوا يبيّنون فوائد المواجهة من داخل القرية. فلمّا تأكّد النبي من الواقع واتضّح له ضعف المنافقين ففعل ما كان يعزم وما كان أدلى به أصحابه الفدائيّون. فلما رأى المنافقون أنّ كيدهم هذا قد فشل فلو خرجوا مع المسلمين ولكن رئيسهم ابن أبيّ أثارهم بعد خروجهم وانفصل عن المسلمين مع ثلاثمئة رجل قائلًا إنهم لم يسمع لمشورتهم. ولا شكّ أنّ هذا الفصل قد أثّر في حماس بعض جماعات المسلمين لأنّ المسلمين كان عددهم ألف جندي مقابل ثلاثة آلاف جندي من الكفّار فإذا انفصل الثلاثمئة جندي من الألف جندي وفرّوا حين الحاجة إليهم الشديدة فهذا أمر عجيب وحدث شديد تأثر به من كان ضعيفًا في العزيمة والإرادة.

فنبّه القرآن على هذا الضعف وقال إنّ المسلمين الذين يخرجون للجهاد في سبيل الله الله وليّهم وناصرهم، ويقتضي الإيمان الحقيقي أنْ يؤمن المسلمون بنصر الله وحكمته كاملًا فإذا كان الله معهم فلا يضرّهم فرار المنافقين والجبانين عنهم.

وبعد أنْ أوضح ما يقتضي الإيمان فالتوكّل على الله ذكّر ما حدث في غزوة بدر بأنّ الله نصركم بعد أنْ كنتم قليلًا عددكم وضعيفًا عُدَدُكم وأعطاكم فتحًا عظيمًا فلم تقنطون من هذا الرب القاهر الجبّار فهو ناصركم اليوم ووليّكم فلا يخذلكم.

وجاءت كلمة التقوى في "فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ" كما بيّنّا لمعناها الأوسع أي احذروا سلوكم طريق الضعف والجبان خلاف ما يقتضيه الإيمان والتوكّل واتخاذ الله هو الوليّ، ومثلُ هذا الحذر (التقوى) لازمٌ لشكر الله فمن يكون عاريًا عن العزيمة

والشجاعة يهزمهم الشيطان في كل خطوة ويختارون سبيل الباطل بدل سبيل الحق، ولا يقدر مثل هؤلاء الناس على أنْ يؤدّوا حق الشكر لله جلّ جلاله.

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

"مُسَوِّمِينَ" من السومة والسيمة التي تعني العلامة والآية فالخيل المسوّمة تلك الخيول التي تكون عليها علامة. وأما مجيء هذه الصفة للملائكة فيعني أنّ الله يرسلهم خاصة لهذا الأمر وأنهم سيحملون هذه العلامة المبيّنة لهذه الحرب خاصة.

هذه إحالة إلى ما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمسلمين ليعيد إليهم عزيمتهم حينما انفصل عنهم ابن أبيّ بثلاثمئة رجل من حزبه فتأثر به شديدًا بعض جماعات المسلمين كما مضى في الآية السالفة فقال النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): إذا انفصل عنا مجرد ثلاثمئة فرد فلا بأس فهل لا يكفيكم أنْ يمدّكم الله بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بدل ثلاثمئة فردٍ ملآن بالجبانة فالمنزلون يشير إلى أنهم قد أرسِلوا من عند الله كالمدد الحربي الحاضر.

فـ"بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ" تأييد من الله لما قال النبي الكريم فما قاله النبي للمسلمين ومنّاهم فقد منّاهم على اتكاله على الله ورحمته ونصره بأن يسدّ الله هذا الفراغ القليل بما يرسله من الملائكة الحاضرين فأيّد الله قول النبي وزاد فيه ألفي ملكٍ ولكن بشرط "إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ" أي إن صبرتم واجتنبتم معصية الله ورسوله. وتشهد وقائع غزوة أحد أنّ الله قد أوفى بما وعد فقتّل المسلمون في أول هجمتهم أعداءهم الكفّار وهزموهم. ولكن بعد أنْ هزموهم ظهر من إحدى جماعاتهم ضعف وخلّوا جبهة خطيرة فارغة مخالفين طاعة الله حريصين على الغنيمة، الأمر الذي تسبّب في تحوّل الفتح إلى الهزيمة بسبب ضعفهم للصبر والتقوى. ولقد ذكر هذا الأمر فيما يأتي بما يلي:

"وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ

عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾". (سورة آل عمران)

وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾

فالضمير في "جَعَلَهُ" يرجع إلى وعد النصر الذي ذكر في الآية الماضية. والمعنى أنّ ما وعدكم الله من النصر كان بشرى لكم مقابل ما أصابكم من ضعف وفتور عزيمة بخذل المنافقين إياكم، وإنْ لم تأتكم هذه البشرى فليؤمن المؤمنون أبدًا أنّ الفتح بيد الله وهو عزيز وقاهر يهب من يشاء الغلبة وهو حكيم فلا يكون أيّ عمل منه خاليًا من الحكمة. وسنناقش هذه الآية مزيدًا في سورة الأنفال.

"لِيَقْطَعَ طَرَفًا الآية" تبيّن التشجيع الخاص بهذه المناسبة فقد أراد الله أن يكسّر قوة قريش نهائيًا فيرجعوا أذلّة أو على الأقل أنْ يكسر جزءً من قوتهم.

لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

هذه الآية كالالتفات إلى النبي الكريم فما اتخذه المنافقون من المعاملة في هذه الغزوة وما ألقاه عليه من التأثير على المسلمين بعد معاملتهم هذه قد مضت الإشارة إليه فيما سلف. ومن البديهي أنّ النبي قد حزن بهذه المعاملة فعزّاه الله تعالى بأنّ هذا ليس من أجلك ولست مسؤولًا عنه فقد أدّيت واجبك كما يرام فالآن إذا ظلمت جماعة نفسها فلا تحزن عليها وفوّض أمرها إلى الله فإنْ أحبّ أن تتوب فيوفّقها للتوبة فيعفو عنها وإنْ لم تكن قابلةً لها فيعذّبهم لأنّ بيده ملك السماوات والأرض فيصفح عمن يشاء ويعذّب من يشاء. وفي النهاية أحال إلى صفتيه الغفور والرحيم فأوضح أنّ الله غفور ورحيم فلا يعذّب أحدًا إلا إذا استحقّ ذلك العذاب.

ISSN: 2321-7928

هل عزير ابن الله؟

- محمد عاصم كمال الأعظمي[1]

المسلمون جميعًا يعتقدون أنّ الله تعالى واجب للوجود، قديم من أزل، ليس لله أم ولا أب، ولا اتخذ الله صاحبة ولاولدًا، منزّه من كل عجز البشر وصفاته، وأموره وعاداته، ولا يوجد أحد سواه متصفًا بالقدامة والوجوب والازلية؛ فلا علاقة بين القديم والحادث وبين من هو واجب ومن هو ممكن، ولا يتصور أيّ صلة للأول بالثاني، ومعموم أنّ جميع صفات الله تعالى مثل: العلم، والقدرة، والسمع، والبصر ونحو ذلك مما هو فوق كلّ شيء ويفضل عليه؛ مع أنه لو كان يليق بالله سبحانه البنون والبنات لما اكتفاه الواحد فحسب؛ بل كان يقتضي أن يستمر إلى ألف مئة، وألف ألف مئة؛ لكثرة قدرته وزيادة علمه؛ فإنا نجد في هذه الدنيا كثيرًا من الناس مَنْ يولد لهم نحو مئآت من الأولاد، وأكثر أولاد الأمة المعاصرة- على الأقل- ما بين الثلاثة إلى العشرة؛ فكيف يمكن أنْ يفوق الخلق العجوز ربَّه- تعالى عن كل ذلك- فهو لم يجد إلا أن يتخذ واحدًا ابنًا له.... ثم يتوجه الخطاب إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى بحيث أنه لوكان السيد عيسى ابنًا لله [كما يزعم النصارى] فهل يجعلون أمه مريم زوجةً لله- عياذًا بالله- وكذلك لو يجعل العزيرابنه- سبحانه- [حسب زعم اليهود] هل تتّخذ أم العزير زوجةً لله المنزَّه عن كلّ شرك ونسبة؟ .... حينها يقحمون ولا يجدون جوابًا؛ والله القادر يقول: "وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣". (سورة الجن: 3). ولما لم يوجد أي مجانسة بين الخلق وخالقه فجْعل أحد خلق الصمد الواحد ابنًا له من سوء الأدب وإسناد نقائص البشر إلى الرب تعالى.

[1] رئيس التحرير لمجلة پاسبان(باللغة الأردية) الصادرة عن إدارة پاسبان علم وأدب، لال كنج، أعظم جراه، يو.في، الهند

الهيكل الأساسي للبحث: تناول الباحث في هذا البحث بيان: المراد من قوله تعالى: "وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ" والباحث لم يقسم هذا البحث إلى أبواب وفصول، بل سمه إلى عناوين رئيسة مختلفة، ثم وضع عناوين فرعية تحت كل عنوان رئيسي، فيحتوي البحث على عناوين شتى، ومطالب عديدة: 1- فحوى كلمة الابن لغةً واصطلاحًا وتأويلاً. 2- مَن القائل: "عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ"؟ وهل قال بذلك اليهود كلهم أو بعضهم؟. 3- ردود على اعتراضات موجهة نحو القرآن العظيم والدين المبين. 5- لم أضيف القول إلى الجميع من اليهود في القرآن؟. 6- من هو عزير؟ وما الذي جعل اليهود تزعم ببنوة عزير لله؟.....، وفي صفحاته الأخيرة خاتمة البحث وثبت المراجع والمصادر، أما فيما يتعلق بالمنهج الذي اتبعته في هذا البحث، فهو منهج تاريخيٌّ، وتحليليٌّ.

معنى الابن لغةً: الابن: الولد، أصله: بني أو بنو، (الجمع): أبناء، والاسم: البنوة[1]. وفي "الكليات": الابن: أصله: (بني) بالياء لما قيل أن معناه أنه يبنى على ما بنى أبوه. والبنوة لا تدل على كونه بالواو كالفتوة، والفتى: (وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ).[2]

ويستعار الابن في كل شيء صغير، وقد يكنى لكل ما يحصل من جهة شيء أو تربيته أو كثرة خدمته أو قيامه بأمره أو توجهه إليه أو إقامته عليه هو "ابنه"، كما يقال: أبناء العلم، وأبناء السبل "فيقول الباحث: ومن هنا سُمّي السيد عزير ابنًا، وذلك لتوجهه في أكثر أحواله شطر الحق، والقيام بالخدمات الجليلة، ونشر العلم".... ثم اعلم أنّ المعنى الحقيقي للابن: هو الصلبي، كذا للولد مفردًا وجمعًا[3]. اهـ.

ذكر العلامة عبد الحميد الفراهي ضمن "ابن الله والرب والأب" أنّ كلمة الابن في العبرانية تستعمل لمعنيين: 1-للنسبة: كابن السيل. 2-للعبد :كالرجل، والفتى والغلام.

[1] القاموس المحيط، ص 165

[2] سورة هود: 42

[3] الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، ص 26-27

ولفظ الابن ليس كلفظ "الولد"، فإن الولد صريح في الابنية ولذلك ترى في القرآن لم يشنع إلا لفظ "الولد" وبيّن أنّ في استعمال لفظ الابن مضاهاة بالكفر، فينبغي أن يجتنب كما أن لفظ "الرب" يشابه المعبود فبيّن في القرآن أنهم أفرطوا في هذين اللفظين. (ثم أورد أمثلة على ذلك من كتب اليهود والنصارى، والمقام لا يسمح بإيراده تماماً)[1]. اهـ.

ابن الإله (Son of God): "ابن الاله" يقابلها "بن إلوهيم" في العبرية، وهي عبارة تشير إلى ما يلي:

1. كل البشر باعتبار أن الإله هو أبٌ لكل الناس.[2]
2. أعضاء جماعة يسرائيل الذين يُشار إليهم في سفر "الخروج" باعتبارهم "إسرائيل ابني البكر"،[3] وفي سفر "التثنية" باعتبارهم "أولاد للرب إلهكم"،[4] وفي سفر "هوشع" باعتبارهم "أبناء الرب الحي"[5] وفي سفر "أشعياء": فإنك أنت أبونا...أنت يارب أبونا".[6]
3. ملك اليهود "الماشيّح" الذي يُشار إليه بأنه ابن الإله: "قال لي انت ابني...أنا اليوم ولدتك[7] ولذا، كان أحد ألقاب شبتاي تسفي "ابن الإله البكر".
4. الملائكة.[8]
5. الأتقياء والعادلون "في الترجمة السبعينية فقط".

[1] مفردات القرآن، ص 22
[2] التثنية، 6/3، أشعياء، 7/64.
[3] الخروج، 22/4.
[4] التثنية، 1/14.
[5] هوشع، 10/1.
[6] أشعياء، 16/63.
[7] المزامير، 7/2. وأخبار أول، 13/17.
[8] التكوين، 2/6 وأيوب، 1/6،2/1.

6. الماشيح، في الترجوم، وفي بعض كتب الأبوكريفا الخفية، وفي التفسيرات...
7. يشير فيلون إلى اللوجوس باعتباره ابن الإله.
8. كان يشار إلى التوراة باعتبارها ابن الإله.

ومع هذا يجب التنبيه إلى أن هذه الفكرة رغم انتشارها هي مجرد طبقة جيولوجية واحدة تراكمت مع طبقات أخرى عديدة داخل النسق الديني اليهودي.... وكانت فكرة "ابن الإله" تعبيرًا عن شكل من أشكال الحلول المؤقت الشخصي غير المتكرر في التاريخ.... [هذا كل ما سطره صاحب "موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية" ملخصًا]. [1]

البنوة في التراث القديم: ولعل بعض الناس يستغربون أن يكون من اليهود مَنْ ينسب لله ابنًا، إذ المشهور أن الذين يقولون بذلك إنما هم نصارى، أما اليهودية فديانة توحيد، ولكن الحقيقة ليست كذلك لأنه إذا كان النصارى قد ادعوا أن المسيح ابن الله فإن اليهود قد ادعوا هذه البنوة لأكثر من شخص، و ماعزير إلا واحد مِن هؤلاء، وقد ذكره القرآن بالاسم لأنّ بعض يهود المدينة قد عيّنوه في جدالهم مع النبي-صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- تعيينًا....!

ومن ذلك ما جاء في العهد القديم من: "أن ابناء الله رأوا بنات الله أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساءًا من كل ما اختاروا.... وبعد ذلك... دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولادًا.[2] كما نسب مؤلف هذا الكتاب إليه- سبحانه- زورًا قوله لبني إسرائيل "أنتم أولاد للرب إلهكم".[3] وكذلك قوله عن إسرائيل أنه "ابنه الأكبر"،[4] وفي سفر "أيوب" نجد أنه قد "جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب"،[5] وترنمت كواكب الصبح معًا وهتف

[1] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، 516،517،518/5
[2] التكوين، 2/6. ويذكر التثنية (19/32)لله بنين وبنات أيضًا.
[3] التثنية، 1/14.
[4] الخروج، 23/22/4. وفي التثنية (7/32) مرتين أشير إلى هذه البنوة.
[5] أيوب، 6/1

جميع بني الله"،[1] ويقول كاتب "المزامير" (7/2) إن الله قال لداؤد: أنت ابني، أنا اليوم ولدتك"، وتجعل الآية 26 من المزمور السابع والثلاثين لله نسلًا، وتتكلم الآية 7 من المزمور التاسع والثمانين: يقول الله عن داؤد فيما يزعمون: "هو يدعوني أبي أنت....أنا أيضًا أجعله بكرًا أعلى من ملوك الأرض".[2] وفي "إشعياء" يضعون على لسان الله الكلام التالي: "لأنه يولد لنا ولد ونعطي ابنًا وتكون الرياسة على كتفه ويُدْعى اسمه عجيبًا مشيرًا إلهًا قديرًا أبًا أبديًا رئيس السلام"،[3] ويبتهل "اشعياء" لله قائلًا: "أين غيرتك وجبروتك، زفير أحشائك ومراحمك، نحوي امتنعت، فإنك أنت أبونا وإن لم يعرفنا إبراهيم وإن لم يدرنا إسرائيل، أنت يا رب أبونا ولينا منذ الأبد اسمك".[4] وفي سفر "إرمياء" يقول كاتبه مسندًا الكلام إلى الله تعالى: "صرت لإسرائيل أبًا، وأفراهيم هو بكري".[5] وفي "هوشع" يوصف بنو إسرائيل بأنهم: "أبناء الله الحيّ".[6] وفي التلمود أنّ أرواح اليهود تتميز عن سائر أرواح البشر بأنها جزء من الله مثلما أنّ الابن جزء من أبيه"[7]... وغير ذلك كثير، وقد سجّل القرآن زعمهم (اليهود والنصارى) "نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ".

قول اليهود: "نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ": قال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: وأتى رسول الله صَلَّىٰٓ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ نعمان بن أضاء وبحري بن عمرو وشاس بن عدي فكلموه وكلمهم رسول الله صَلَّىٰٓ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ

[1] أيوب، 7/38

[2] المزامير، 27/26/89. وقد رأينا قبلا أن ابنه الأكبر- تعالى عن ذلك- هو إسرائيل، وسترى بعد قليل أنه إفرائيم [وهو تناقض مضحك].

[3] أشعياء، 6/9. وواضح مدى التناقض بين تسمية المولود "ابنًا" وتسميته بعد قليل "أنا الله".

[4] أشعياء، 16/15/63.

[5] إرميا، 9/21. وقد مرّ في الخروج قول الله- على زعمهم- أن إسرائيل (لاإفرايم) كما رأينا في المزمور (89) أنه هو داؤد، وهو من تناقضات العهد القديم التي لا تكاد تحصى.

[6] هوشع، 10/1.

[7] مقارنة الأديان/اليهودية، ص 271،272 وإسرائيل والتلمود، ص 67.

ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته، فقالوا: ما تخوفنا يا محمد !نحن والله أبناء الله وأحباؤه، كقول النصارى فأنزل [الله] فيهم: "وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ"[1] الآية" أهـ.[2]

وقال ابن كثير: "ثم قال تعالى ردًّاً على اليهود والنصارى في كذبهم وافترائهم "وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ" أي: نحن منتسبون إلى أنبيائه، وهم بنوه وله بهم عناية، وهو يحبنا، ونقلوا عن كتابهم أنّ الله تعالى قال لعبده إسرائيل: "أنت ابني بكري"، فحملوا هذا على غير تأويله، وحَرّفوه، وقد ردَّ عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم وقالوا: هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام". أهـ.[3]

ثم أنه لم يكتف اليهود بأن جعلوا لله ابنًا، بل جعلوا له- سبحانه ماأعظم شأنه- أيضًا زوجة ... ولقد حدّد ارثرهرتزبرج في كتابه "Judaism": "الزمان والمكان اللذَين تم فيهما عقد الزواج بين الله وإسرائيل حسب افتراءات اليهود فقال إن ذلك كان في سيناء حين تجلى الله لموسى وبنى إسرائيل. وأضاف أنّ السماوات والأرض كانت شهود ذلك العقد[4] ... ويقول ول ديورانت إن "نشيد الأنشاد" المنسوب لسليمان هو في اعتقاد اليهود ترنيمة موحاة من السماء لتصور تصويراً مجازيًا اقتران يهود بإسرائيل عروسه المختارة".[5]

ويقول البروفيسور (Gordon Darnell Newby) أستاذ الدراسات الإسلامية واليهودية ومقارنة الأديان، في كتابه "تاريخ اليهود في الجزيره العربيه" في الصفحة 61:

مصطلح (ابن الله) يمكن إطلاقه على المسيح، ولكنه في الغالب كان يطلق عند اليهود على الرجال الصالحين وطبقًا للتقليد اليهودي لا يوجد أكثر صلاحًا ممن

[1] سورة المائدة: 18

[2] الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، 169/2. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

[3] تفسير ابن كثير، 68/3، 69

[4] اليهودية، ص 213

[5] العرب واليهود في التاريخ، ص 575

اختارهم الله ليرفعهم إلى السماء أحياء (كمركباوعزرا)ومن ثم فإنه من السهل أن نتصور أنه كان من يهود جزيرة العرب من يشترك في ممارسات فيها غلو مرتبطة بمركابا وعزرا بالقول أنهما ابنا الله.

إن كلمة (ابن الله) لها معنى مختلف بين اليهودية والمسيحية ففي اليهودية أو (العهد القديم) تقول "الموسوعة الكاثوليكية" إن هذا اللقب كان يطلق على:

قادة الناس أو الجماعات، الملوك، الأمراء، القضاة، الأنبياء، والملائكة، وشعب مملكة إسرائيل الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أفضل من غيرهم وسموا أنفسهم (أبناء وبنات الله) ولا يقصد أبدًا أن عزرا هو ابن لله بالنسب كما في المسيحية. إما في المسيحية فإن كلمة (ابن الله) يقصد بها حصرًا يسوع وليس أحد غيره، وهي تعني ابن الله المتجسد، وكلمة (ابن الله) استخدمها اليهود بكثرة في العهد القديم.

الابن المصطلح في الآية:

ومهما يكن من أمر، فهذه التسمية (تسمية العزير بابن الله) كانت أكبر من موضوع الإجلال والاحترام في أذهان جماعة منهم، وما هو مألوف عند العامّة، أنّهم يحملون هذا المفهوم على حقيقته، ويزعمون أنّه ابن الله حقًّا، لأنّه خلّصهم من الدمار والضّياع، ورفع رؤوسهم بكتابة التوراة من جديد، والشيء الوحيد الذي صدر عنهم- وفقًا لبعض الرّوايات- أنّهم قالوا: إنَّ هذا اللقب "ابن الله" إنّما هو لاحترام عزير... وفي "الاحتجاج" للطبرسي: أنّهم أطلقوا هذا اللقب احترامًا له لا على نحو الحقيقة.[1]

ولكنّنا نقرأ في الرّواية أنّ النّبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ سألهم بما مؤدّاه: "إذا كنتم تُجلّون عزيرًا وتكرمونه لخدماته العظمى، وتطلقون عليه هذا الاسم، فعلامَ لا تسمّون موسى، وهو أعظم عندكم من عزير، بهذا الاسم؟ فلم يجدوا للمسألة جوابًا، وأطرقوا برؤوسهم".[2]

[1] الاحتجاج على أهل اللجاج لأبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي

[2] نور الثقلين، 205/6، حديث طويل نقلنا خلاصته معنًى لا نصًّا.

وأتى مولانا عبد الماجد ببيان أن: العزير قد ذكر اسمه صريحًا في القرآن فقط لمرة واحدة (في سورة التوبة) وأن اليهود يجعلونه ابنًا لله تعالى؛ إلا أنه حشى عليه بقوله: "مجازًا"[1] ولا أدري عن من روى ذلك هو؟ ولا مدى صحته؟ أم بل علق عليه غيره من بعده.

أما عن البنوة المقصودة في الآية؛ فهي بنوة محبة واصطفاء، نفس الشيء حينما حرم الله تعالى في قوله "نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ"؛ فالبنوة هنا اختص بها عزرا حسب معتقد اليهود للبنوة؛ فلا يُمكن أن نقول إن عزيرًا هو الله لأن بنوة النصارى تقتضي ألوهية المسيح.

والبنوة ليس معناها الألوهية، وكذلك فإن الآية تقول عنهم " ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ "[2].... ولا يقول أحد بأن الرهبان والأحبار الله أو آلهة بل أرباب (جمع رب) مما يعني الشرك بالله وإعطائهم من القداسة والتصديق ما يُساويهم بالله في التقديس وهذا هو الشرك.

وجه الاشتباك: كان الصلحاء، في قديم الزمان وفي بعض الصحف، يطلقون على العظماء والأماثل كلمة "الابن" مجازًا حُبًّا لهم ومودةً إليهم، ثم مَن جاءوا من بعدهم عمّموها ووسّعوها وأطلقوها حقيقةً من أجل الخيانة والجهل، وجعلوهم- بمرّ الأيام- أبناء الله أصلًا، كما جاء عن عدة من المتقين أن الله أبوهم (بالمجاز) أي راض عنهم لأجل الشفقة حسب ما ورد في الحديث النبوي: "الخلق عيال الله"؛[3] فلا يعني ذلك أنّ الخلق كلهم عيال الله وأهله أصلًا وهو الله أبوهم (العياذ بالله)؛ بل المراد أنه- تعالى- متولي أمورهم، وخالقهم ورازقهم مثل أب يتولى أمور مَن تحت أيديه

[1] أعلام القرآن، ص 95

[2] سورة التوبة: 31

[3] البيهقي في شعب الإيمان، 6/2528. الراوي: عبد الله بن مسعود، والطبراني في المعجم الأوسط، 5/356.

ويرأسهم، ويكون هو مسؤولًا عنهم.[1]

هذا عن بنوة عزير لله التي ادعاها له فريق من اليهود وحكاها عنهم القرآن الكريم، ولكن! من عزير هذا؟ وأي فرقة زعمت أم تزعم بأنّ عزيرًا ابن الله؟ وما الأسباب الجوهرية التي جعلت اليهود تزعم ببنوة عزير لله؟ وهل حتمًا يؤمن اليهود بالعزير ابن الله؟ ولما ذا عمم الله النسبة إلى اليهود كلهم؟

وما إلى ذلك من الأمور والبحوث سيأتي الكلام عنها شافيًا وافيًا في الأبواب التالية- بإذن الله ومشيته تعالى-.

من القائل: عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ؟ اختلف أهل التأويل في قائل: "عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ"؛ فقال الماوردي في تفسيره: واختلف فيمن قال ذلك على ثلاثة أقاويل: أحدها: أنّ ذلك كان قول جميعهم، وهو مروي عن ابن عباس. والثاني: أنه قول طائفة من سلفهم. والثالث: أنه قول جماعة ممن كانوا على عهد رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. واختلف فيهم على قولين: أحدهما: أنه فنحاص بن عاذوراء وحده، ذكر ذلك عبيد بن عمير وابن جريج: "حَدَّثَنَا الْقَاسِم، قَالَ: ثنا الْحُسَيْن، قَالَ: ثني حَجَّاج، عَنْ اِبْن جُرَيْج، قَالَ: سَمِعْت عَبْد اللَّه بْن عُبَيْد بْن عُمَيْر قَوْله: "وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ" قَالَ: قَالَهَا رَجُل وَاحِد، قَالُوا: إِنَّ اِسْمه فنحاص".[2]

والثاني: أنهم جماعة وهم: سلام بن مشكم، ونعمان بن أبي أوفى، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، وهذا مروي عن ابن عباس: "حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، قَالَ: ثنا يُونُس بْن بُكَيْر، قَالَ: ثنا مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، قَالَ: ثني مُحَمَّد بْن أَبِي مُحَمَّد مَوْلَى زَيْد بْن ثَابِت، قَالَ: ثني سَعِيد بْن جُبَيْر أَوْ عِكْرِمَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس، قَالَ: أَتَى رَسُول اللَّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سَلَّام بْن مِشْكَم، وَنُعْمَان بْن أَوْفَى، وَشَاس بْن قَيْس، وَمَالِك بْن الصَّيْف، فَقَالُوا: كَيْف نَتَّبِعك

[1] خلفية النصرانية، ص 116

[2] تفسير معالم التنزيل

وَقَدْ تَرَكْت قِبْلَتَنَا، وَأَنْتَ لَا تَزْعُم أَنَّ عُزَيْرًا اِبْن اللَّه؟[1] اهـ.

ويحتمل أن يكون قد سبقهم إليه غيرهم، ولم ينقل إلينا؛ فإنه من المعلوم أن بعض النصارى الذين قالوا إن المسيح ابن الله كانوا من اليهود، وقد كان (فيلو) الفيلسوف اليهودي الإسكندري المعاصر للمسيح يقول: إن لله ابنًا هو كلمته التي خلق بها الأشياء- فعلى هذا لا يبعد أن يكون بعض المتقدمين على عصر البعثة المحمدية قد قالوا إن عزيرا ابن الله بهذا المعنى، وقد نُقل هذا القول عن بعض يهود المدينة، ونقل عن فرقة "الأصبهانية" اليهودية، وقد ذكر الجاحظ أن فريقًا من بقايا القائلين ببنوة عزير لله كانوا لا يزالون في عصره باليمن والشام وداخل بلادالروم.[2]

ويقول ابن حزم الأندلسي بأنّ هناك بعضًا من يهود (اليمن) يعتقدون أنّ عزيرًا ما هو إلا ابن الله.[3]

والمقريزي يقول: إن يهود فلسطين زعموا أن عزير ابن الله[4] (وأنكر أكثر اليهود ذلك).

كما يقول الشهرستاني- صاحب الملل والنحل-: إن الصدوقيين هم الذين قالوا ذلك من بين سائر اليهود؛[5] إلا أنّ صاحب موسوعة اليهودية رد عليه قائلًا: "ولا ندري مدى صحة ذلك، ولكننا نعرف أن الصدوقيين[6] أنكروا القيامة وخلود الروح؛ وفي النهاية ذكر أنه: ومنذ ظهور اليهودية الحاخامية لم يعد هناك أثر للإيمان بعقيدة "ابن الإله" في

[1] سيرة ابن هشام، 219/2، الأثر: 16620

[2] رسائل الجاحظ، 346/3.

[3] الفصل في الملل والأهواء والنحل، 178/1. وانظر كذلك كتابه: "الرد على ابن النغريلة" في رسائل ابن حزم الأندلسي، 67/3.

[4] موسوعة اليهود.

[5] الملل والنحل

[6] والصدوقيين (saducees) فرقة دينية وحزب سياسي تعود أصوله إلى قرون عدة سابقة على ظهور المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، اليهودية الأرثوذكسية- دراسة تحليلية، ص 32

اليهود لا عن العزير ولا فيما سواه.[1]

وفي "تفسير عثماني" (باللغة الأردية) للعلامة شبير أحمد العثماني: أن عالمًا هنديًا اسمه الحاج "أمير شاه خان" لقي في فلسطين، أثناء زيارته لها (قبل بضع عشرات من السنين) بعض اليهود ممن ينتمون إلى فرقة اسمها "العزيريون" لاتزال تعتقد أن عزيرا ابن الله.[2]

وقد ذكر د. عبد المنعم الحنفي في "الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية" جماعة اليهود الذين يزعمون أن عزيرًا هو ابن الله، وهم طائفة الصدوقيين.[3]

وصرح صاحب "قصص القرآن": بأن مَنْ قام بجولات الدول الإسلامية، وله شوق لدراسة ديانات أمم العالم، يطلع على أنه اليوم توجد في ضواحي فلسطين تلك الفرقة التي تؤمن بأن عزيرا ابن الله ويمثلون له تمثالًا، ويفعلون به ما يُفعل بالإله.[4]

الخلاصة: أن معظم أصحاب التفاسير والتواريخ والسير ذهبوا إلى أن الذين قالوا هذا القول من اليهود فهم بعض يهود المدينة، كالذين قال الله فيهم: " وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ"[5] والذين قال فيهم: "لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ".[6]

هل اليهود كلهم قالوا بذلك أم بعضهم؟ سئل شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: "عن قوله تعالى "وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ" كلهم قالوا ذلك أم بعضهم؟ وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "يُؤْتَى بِاليَهُودِ يَوْمَ القِيَامَة فَيُقَالُ ما كنتم تعبدون؟ فيقولون العزير ...الحديث. هل الخطاب عام أم لا؟

[1] موسوعة اليهودية، ص 518
[2] تفسيرعثماني، ص 253
[3] نقلًا عن "مع الجاحظ في رسالة الرد على النصارى"، ص 31
[4] قصص القرآن، ص 604
[5] سورة المائدة: 64
[6] سورة آل عمران: 181

فأجاب: بأن المراد باليهود جنس اليهود كقوله تعالى "ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ"،[1] لم يقل جميع الناس ولا قال: إن جميع الناس قد جمعوا لكم؛ بل المراد به: الجنس، وهذا كما يقال: الطائفة الفلانية تفعل كذا، وأهل الفلاني يفعلون كذا، وإذا قال بعضهم فسكت الباقون ولم ينكروا ذلك: فيشتركون في إثم القول".اهـ.[2]

وحشّى مولانا أشرف علي التهانوي تحت الآية المعنية: "قلت فسقط قول من قال إن اليهود ليس في عقائدهم ذلك، وأما التعبير بما يوهم الانتساب إلى الكل فتوجيهه ما قال النيسابوري: هذا قول ناس من يهود المدينة وما هو بقول كلهم؛ إلا أنه جارٍ على عادة العرب في إيقاع اسم الجماعة على الواحد: يقال فلان يركب الخيل أو يجالس الملوك ولعله يركب أو لم يجلس إلاواحدًا".[3]اهـ

وذكر القرطبي في تفسيره لهذه الآية: قال "هذا لفظ خرج على العموم ومعناه الخصوص، لأنه ليس كل اليهود قالوا ذلك".[4]

وقيل: إن من كان يقولها كانوا في زمان وقد انقضوا، وهذا متوجه للذم إليهم لأنّ بعضهم قد قاله، وعاضد هذا القول النقاش، فقال: (لم يبق يهودي يقولها بل قد انقرضوا).

ومن الأقوال المعاصرة، نستشهد بما ذكر في كتاب: "تفسير الوسيط في تفسير القرآن الكريم" للشيخ الطنطاوي، فيقول: وقد ذكر المفسرون هنا أقوالًا متعددة في الأسباب التي حملت اليهود على أنّ يقولوا "عزير ابن الله" وأغلب هذه الأقوال لا يؤيدها عقل أو نقل، ولذا فقد ضربنا عنها صفحًا". متابعًا (وقد نسب- سبحانه- القول إلى جميع اليهود مع أن القائل بعضهم، لأن الذين لم يقولوا ذلك لم ينكروا على غيرهم قولهم، فكانوا

[1] سورة آل عمران: 173

[2] مجموع فتاوى ابن تيمية، 47/15

[3] تفسير بيان القرآن، الكامل، 128/2

[4] تفسير القرطبي80/6

مشاركين لهم في الإثم والضلال، وفيما يترتب على ذلك من عقاب.[1]

عصارة القول أنه قد اتفق المفسرون على أن إسناد هذا القول إليهم يراد به بعضهم لا كلهم، وهو مبني على القاعدة التي بينت في تفسير بعض الآيات- التي تحكي عنهم أقوالًا وأفعالًا مسندة إليهم في جملتهم، وهي مما صدر عن بعضهم- وهي أن المراد من هذا الأسلوب تقرير أن الأمة تعد متكافلة في شؤونها العامة، وأن ما يفعله بعض الفرق أو الجماعات أو الزعماء منها يكون له تأثير في جملتها، وأن المنكر الذي يفعله بعضهم إذا لم ينكره عليه جمهورهم ويزيلوه يؤاخذون به كلهم.اهـ.

ردود على اعتراضات موجهة للقرآن العظيم والدين المبين: هل يؤمن اليهود بأن عزير ابن الله؟ يعتبر عزير بمكانة موسى عند اليهود؛ فموسى هو الذي أخرج بني إسرائيل من مصر، وعزير هو الذي أخرج بني إسرائيل من بابل؛ إلا أن عزيرًا لم يكن في معتقد اليهود ابنًا لله. (2) كتاب التوراة بطوله وعرضه لم يذكر أبدًا اسم "عزير" فيه، ولم يرد ذكر هذة العقيدة طوال تاريخ اليهود ولا في مخطوطات ولا في كتب ولا حتى عند الفرق الضالة والمهرطقة والمبتدعة. (3) ومما هو شائع في الفكر اليهودي عن عزير أنه ابن الله، مخالف لآراء المتخصصين المعاصرين، مثلًا: فالأستاذ ديفيد واينز (بروفيسور في الدراسات الإسلامية) لا يجد لهذا الادعاء أي دليل يسنده، ويشاركه الرأي الأستاذ جون كالتنر (بروفيسور في الشؤون المسيحية والإسلامية) مضيفًا بأنه لا يتوفر دليل على أن يهود المدينة قد حملوا فكرة بنوة عزير.(4) والأهم أنه لم يدّع هو عن نفسه ذلك ... فهذا يكفي لنقول إن العزير أو عزرا لم يطلق عليه ابن الله، وكذلك حتى في الكتب الأخرى كالتلمود لن نجد هذا المصطلح؟ فمن أين جاء القرآن بهذة الفكرة؟! وأين هو هذا اليهودي الذي عبد شخصًا اسمه "عزير" ودعاه "ابن الله"؟!! فأين قال اليهود عزير ابن الله؟(5) وكذلك في الحديث: "يوم القيامة اليهود كلهم

[1] تفسير الوسيط في تفسير القرآن الكريم لطنطاوي

سينادون: من كنتم تعبدون، فيقولون: عزير!" ومعلوم لنا أنّ اليهود من عصر قديم إلى الآن، لا يقولون بألوهية عزير لا في تلمودهم، ولا فيما يسمى بالتناخ، ولا فيما يسمى بالعهد القديم، والخطاب هنا شامل لهم! يعني كل اليهود! فأين تلك العبادة؟؟؟؟

نص الجواب: (وأقوى ما يستدل به في هذا الصدد هو سكوت اليهود القدماء):

يقول الحق تعالى في كتابه الكريم: "وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾". (سورة التوبة : 30)

الرد الأول: لا يتصور عاقل أن كتاب الله قد يأتي بأشياء خارجة عن الواقع أبدًا (والشهود كثيرة جدًا) فنحن لسنا نشك في صحة ما ذكره الله تعالى عن أولئك اليهود، ومن أصدق من الله حديثًا[1]؟! ومن أصدق من الله قيلًا؟[2]

الرد الثاني: أن اليهود المُستشكِلون يجهلون أن لغة العرب يجوز فيها نسبة القول للطائفة والجماعة ولا يلزم أن تكون من قولهم جميعًا، بل قد يكون القائل بعضهم ويُنسب القول لجميعهم، فهذه الآية لا تتحدث عن اليهود بصفة عامة بل عن يهود المدينة فقط فقد كانوا هم من انتشر فيهم هذا القول الفاسد بنسب عزير لله (أي المقصود باليهود جنس اليهود، لا كلهم وجميعهم، فـ(ال) للتعريف هنا لبيان الجنس، لا للاستغراق، والمراد هو بيان جنس من قال بهذا القول، لا أن جميع اليهود قالوا ذلك. وإنما صح التشنيع على جنس اليهود بذلك؛ لأن بقيتهم لم تنكر على قائل هذا المنكر الفظيع).[3]

الرد الثالث: يجهل اليهود أن في علوم القرآن ما يعرف بأسباب النزول وأسباب نزول هذه الآية وحده كفيل بدحض الشبهة؛ فنجد الرواية التالية لأسباب نزول هذه الآية

[1] سورة النساء: 87

[2] سورة النساء: 122

[3] أحكام القرآن للجصاص، 299/4

الكريمة: قال ابن إسحاق: وأتى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ سلام بن مشكم، ونعمان بن أوفى أبو أنس، ومحمود بن دحية، وشأس بن قيس، ومالك بن الصيف، فقالوا له كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزيرا ابن الله؟ فأنزل الله عزّ وجلّ في ذلك من قولهم: "وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ الآية".[1]

الرد الرابع: لم يقل القرآن المجيد بأن ذلك ما هو مكتوب في التوراة: في كتب اليهود ودينهم بل هذا هو قول اليهود فقط وهو ليس مشترط الصحة ولا إشارة بصحته في كتاب الله والدليل على ذلك تكملة الآية نفسها "ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ"؛وإلا ليكون في النهاية: "يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ".

الرد الخامس: وأيضًا قد صدر هذا القول بعد كتابة التوراة بزمن بعيد جدًا لهذا لم تدون فيه، حيث أن آخر كُتُب العهد القديم كتب في القرن الخامس قبل الميلاد بينما من آمنوا بهذا القول، سجلَهُ القرآن عليْهِم في القرنِ السابع بعد الميلاد.

الرد السادس: قال الحافظ ابن حجر- رحمه الله-: "قال ابن العربي في "شرح الترمذي" تبرأت اليهود في هذه الأزمان من القول بأن العزير ابن الله، وهذا لا يمنع كونه موجودًا في زمن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ لأن ذلك نزل في زمنه واليهود معه بالمدينة وغيرها، فلم يُنقل عن أحد منهم أنه ردَّ ذلك ولا تعقبه، والظاهر أنّ القائل بذلك طائفة منهم لا جميعهم، بدليل: أنّ القائل من النصارى إن المسيح ابن الله طائفة منهم لا جميعهم، فيجوز أن تكون تلك الطائفة انقرضت في هذه الأزمان، كما انقلب اعتقاد معظم اليهود عن التشبيه إلى التعطيل، وتحول معتقد النصارى في الابن والأب إلى أنه من الأمور المعنوية لا الحسية؛ فسبحان مقلب القلوب" انتهى من "فتح الباري"؛[2] فكونُ اليهود هؤلاء لا يقولون بتلك الأقوال لا يغيّر من الأمر شيئًا،

[1] المصدر نفسه

[2] فتح الباري، 359/3

فهي أقوال قد قيلت يقينًا، والتبرؤ منها الآن لا يعني أنها لم تُقل. الرد السابع: لا يوجد أي وجه للاستغراب في ادعاء اليهود بأن عزير ابن الله؛ فمن قتل الأنبياء مثل زكريا ويوحنا على سبيل المثال ومن عبد العجل الذهبي ورمال البحر المنشق بأمر الله وأمام أعينهم لا زالت عالقة بقدمه لا يستغرب منه أن يدعي للرحمن ولدًا.

الرد الثامن: المهم أن هذه المصادر الإسلامية هي الشاهد على صحة هذا القول والدليل أن لا أحد من اليهود في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعترض على ذلك بل لم يسجل التاريخ أي اعتراض حتى بعد قرون من وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما يدل على صحة هذه المصادر الإسلامية لتاريخ اليهود العرب؛ فكيف استطاع اليهود والنصارى والملاحدة وكل المشككين أن يتأكدوا من أن يهود المدينة لم يقولوا بأن عزيرًا ابن الله على الرغم من أن المتخصصين لا يوجد لديهم مصدر ثابت عن عقائد اليهود العرب أو ممارساتهم ولماذا نكذب المصادر التي بين أيدينا والتي تقول بأن فريقًا من اليهود كان يقول بذلك؟

كما روى الإمام أحمد والترمذي عن عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه لما بلغته دعوة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرّ إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم منّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها فرغّبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقدم عدي إلى المدينة، وكان رئيسًا في قومه طيئ وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي عنق عدي صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية: "ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ" قال فقلت: إنهم لم يعبدوهم فقال: (بلى! إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم).[1]

فلو كان ماذكره الله تعالى عن أجداد اليهود المعاصرين ليس له واقع لسارع أولئك الأجداد إلى تكذيب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلى الطعن في القرآن أنه يقول ما ليس

[1] صحيح الترمذي، رقم الحديث: 3095، الراوي: عدي بن حاتم الطائي، حديث حسن

بصحيح من اعتقاد وقول أجدادهم اليهود، وهذا لم يحصل؛ فالزعم إذن بأن اليهود قد أنكروا ذلك هو زعم باطل، فهم لم ينكروه، ولو كانوا قد أنكروه لتحدث عته القرآن أو روته على الأقل الأحاديث وكتب التاريخ كما حدث مع عدي بن أبي حاتم الذي أبدى دهشته لقول القرآن؛ فدلَّ ذلك على جهل المعترضين وأنهم إنما تكلموا بما ليس لهم به علم، وإلا لم يكن أجدادهم ليضيعوا هذه الفرصة الثمينة لو أنّ الله تعالى قد ذكر عنهم ما ليس من قولهم واعتقادهم!

الرد التاسع: أما قوله تعالى في نهاية الآية: "ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ"؛ فيشير الله سبحانه وتعالى أنّ اليهود والنصارى إنما يفترون على الله الكذب ويقولون بأفواههم أكاذيب ما أنزل الله بها من سلطان مثلهم مثل من سبقوهم إلى الكفر كالبوذيين القائلين بأن بوذا هو ابن الله أو من قالوا بأن كريشنا ابن الله من العذراء ديفاكي.

الرد العاشر: القرآن لا يدعي الاعتقاد بألوهية عزير ضمن القول بالبنوة، وهذا الظن يحمل على الإنكار.

الرد الحادي عشر: هذا الاعتراض يبنى على الجهل بالشرائع، والتلبيس، وكتمان الحق (كما هو عمل معروف لدى أهل الكتاب من اليهود والنصارى).[1]

الرد الثاني عشر: لم يقل أَحَدٌ مِن أمّةِ الإسْلام أن جميعَ اليهودِ قالوا ذلِك؛ بل قيل أنها طائفة فقط وهي المعنية، كانت في عصر نبي الله تعالى محمد.

الرد الثالث عشر: هل قال القرآن إنّ مراد اليهود بِالبُنُوّةِ أنّ "عُزَيْرا إله يُعْبَد"؟ لا: لم يقُل القرآن إن عِبادةَ عُزير هي عِبادةُ تأليهٍ. فالآية لا تتكلم عن تأليه عزير، ولا تلزمونا بسوء فهمكم الآية. لأنّ الآية إنما ترفض قول "ابن الله" مطلقًا.

الرد الرابع عشر: وذلك أنه رغم ثبوت صحة ما قاله القرآن الكريم في هذا الصدد، وقد أسلم عدد من يهود المدينة على يد النبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ولم يحدث أنّ أحدًا منهم قد

[1] قصص القرآن، 604/2.

استغرب هذه الآية أو استوضحها النبي لمجرد توضيح.

الرد الخامس عشر: وقد أقرّ القسيس الذي ناظره فخر الدين الرازي في أمر الإسلام والنصرانية بأن بعض اليهود قد قال ذلك فعلًا وكل ما عقب به هو أنه: "لا يلزم من قول واحد في وقت ما قول الجميع في جميع الأوقات" وقد وضح الرازي له أن قوله تعالى لا يقتضي فعلًا أن يكون إخبارًا عن الكل ولا في كل وقت".[1]

الجواب عن السوال النهائي: وما قيل في الآية، يمكن أن يقال نحوه في الحديث الذي أشير إليه في السوال، وهو حديث أبي سعيد الخدري مرفوعًا، وفيه: حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله: بر، أو فاجر، وغبرات أهل الكتاب، فيدعى اليهود فيقال لهم: من كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزير ابن الله، فيقال لهم: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد [رواه البخاري ومسلم]اهـ.[2]

ويحتمل أنه يكون المراد باليهود في الحديث، هو من كان يعتقد منهم هذا الاعتقاد في عزير، ويكون جواب من عداهم من اليهود بذكر معبودهم الذي أشركوه مع الله تعالى كأحبارهم وكبارهم.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح قوله: "كنا نعبد عزير ابن الله" هذا فيه إشكال، لأن المتصف بذلك بعض اليهود، وأكثرهم ينكرون ذلك! ويمكن أن يجاب بأن: خصوص هذا الخطاب لمن كان متصفًا بذلك، ومن عداهم يكون جوابهم ذكر من كفروا به، كما وقع في النصارى، فإن منهم من أجاب بالمسيح ابن الله، مع أن فيهم من كان بزعمه يعبد الله وحده وهم الاتحادية الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم"[3]..اهـ[4]

---

[1] مناظرة في الرد على النصارى، ص 39-40.

[2] البخاري في صحيح البخاري، رقم الحديث: 7439، الراوي: أبو سعيد الخدري، حديث صحيح/مسلم في صحيح مسلم 183، الراوي: أبو سعيد الخدري: حديث صحيح.

[3] سورة المائدة: 72

[4] فتح الباري

ثم إننا ننبه على أنّ الملل والمعبودات المذكورة في حديث أبي سعيد، ليس هي كل ما وجد في أنواع الشرك بالبشر على الأرض، فمن الناس من يعتقد البنوة في غير عزير والمسيح، كما يعتقد البوذيون في بوذا، بل إن من الناس من يعتقد أن الله تجلى في متبوعه الذي يشرك به، فالحديث إما أن يكون فيه ذكر أمثلة يقاس عليها، ويعرف من خلالها كيف يعامل الناس في المحشر، وإما أن يكون المذكور فيه إنما هو أصول الأمم والملل الأكثر عددًا من الأتباع.

اعترافات علماء التاريخ باحتمال نسبة هذا القول إلى اليهود: المصدر الأول هو من المصادر اليهودية نفسها حيث يقول الدكتور (Haim Zeev Hirschberg) وهو يهودي متوفى سنة 1976) في "الموسوعة اليهودية" في الصفحة 653: الصالحين (ويقصد اليهود) الذين عاشوا في اليمن، كانوا فعلاً يعتقدون أن عزير هو ابن الله.

المستشرق الأنجليزي (George Sale) يقول في كتابه "ترجمة القرآن" في الصفحة 152:

بعض المؤرخين قد أشاروا لي أن بعض اليهود القدماء في العربية ومنهم يهود المدينة واليمن قد قالوا بذلك، لأنه بعد ضياع الناموس ونسيانه أثناء السبي البابلي قام عزرا- بعد أن بعث بعد موته مائة عام- قام بإملاءالتوراة بالكامل من ذاكرته للكتبة وهو ما أعجبهم جدًا وأعلنوا أنه لا يمكن أن يقوم بذلك العمل إلا إذا كان ابنًا لله. وأختتم الرد بقوله تعالي: (قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبۡحَٰنَهُۥ..)[1]

هنالك بعض المصادر الأخرى ولكن اكتفي بما ذكرته لحد الآن، فهذا ما تيسر من رد إشكالات اليهود، وبه يتبين أنهم ينكرون أمرًا معلومًا مشتهرًا في التاريخ مما قاله أجدادهم القدماء من الباطل، وليعلم أن الأمر كان متاحًا لأن يكذِّب أولئك الأجداد ما ذكره الله تعالى عنهم، فلما لم يفعلوا عُلم أنه نقل صحيح، فعسى الله أن

[1] سورة يونس: 68.

يهدي قلوبهم للإسلام ويشرح صدروهم للإيمان.

فلم أضيف إلى جميعهم؟ وما هو مفاد قوله تعالى؟ قال الماوردي- رحمه الله-: "فإن قيل: فإذا كان ذلك قول بعضهم، فلم أضيف إلى جميعهم؟

قيل: لأن من لم يقله عندنزول القرآن لم ينكره، فلذلك أضيف إليهم إضافة جمع وإن تلفظ به بعضهم[1] أي أنّه ليس بين اليهود في عصرنا الحاضر من يدّعي أنّ عزيرا ابن الله، ولا من يعتقد بهذا الاعتقاد، ولا يلزم أن يكون لجميع اليهود مثل هذا الاعتقاد، إذ يكفي هذا القدر المسلَّم به، وهو أنّه في عصر نزول الآيات على النّبي محمّد (صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ)، كان في اليهود من يعتقد بهذا الاعتقاد، فعلام نسب القرآن هذا القول إليهم؟ ولماذا عمّم القرآن كل اليهود؟

ثانيًا: أن من كان يقولها كانوا في زمان وقد انقرضوا وهذا متوجه للذم إليهم لأن بعضهم قد قاله، قال النقاش: لم يبق يهودي يقولها بل انقرضوا، فإذا قالها واحد فتوجه أن تلزم الجماعة شنعة المقالة؛ لأجل نباهة القائل فيهم وأقوال النبهاء أبدًا مشهورة في الناس يحتج بها، فمن هنا صحّ أن تقول الجماعة قول نبيها.

ثالثًا: وقد ذكر رشيد رضا أن القاعدة في الأقوال والأفعال المسندة في القرآن في جملتهم رغم أنها صادرة عن بعضهم فقط هي الإشارة إلى أن الأمة تُعدّ متكافلة في شؤونها العامة، وأن ما يفعله بعض الفرق والجماعات اوالزعماء يكون له تاثير في جملتها، وأن المنكر الذي يفعله بعضهم يؤخذ الجمهور به، ماداموا لم ينكروا عليهم أويحاولوا إزالته، وذلك مثلما يصيب الوباء مجموع الناس ولا يقتصر على مرضاه الأصليين.[2] كما في قوله تعالى: "وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ".[3]

[1] تفسير النكت والعيون، 353/2

[2] تفسير المنار، 383/10.

[3] المصدر نفسه، 25 : 8

فالنسبة إلى الجنس مع أن القائل طائفة منهم أسلوب عربي معروف.

رابعًا: أن سكوت باقي الطائفة عن إنكار القول يعني إقرارهم للقول، فيصح- حينئذٍ- أن يُنسب للطائفة جميعها.

خامسًا: قال الشاه ولي الله الدهلوي: "القرآن كتاب كل عصر"؛[1] فواضح أنه مقال قيل وقد انقرض زمانها؛ لكن الأخذ منها، والاستفادة منها لابد أن يكون في كل زمان حتى قيام الساعة.

سادسًا: أن هذه الآية لاتحتمل النسخ، حتى يقال أنه منسوخ الحكم والواقعة؛ فذكر فقيه الدعاة العلامة "يوسف القرضاوي": "اليهود والنصارى كفار؛ لأنهم حرفوا كتبهم، وبدلوا دينهم، وقالوا على الله بغيرعلم، وشوهوا حقيقة الألوهية في كتبهم، ووصفوا الله بما لا يليق بجلاله وكماله، ونسبوا إليه نقص البشر، وعجز البشر، كما أنهم شوهوا صورة النبوة والأنبياء؛ فنسبوا إليهم من الرذائل ما لاينسب لعوام الناس، وهذا ثابت في (أسفار التوراة)التي يؤمن بها اليهود والنصارى جميعًا. وفي سورة التوبة- وهي من أواخر ما نزل أيضًا- جاء قوله تعالى: وقالت اليهود الآية.اهـ[2]

سابعًا: وإن انقرضت الفرقة التي كانت تعتقد ببنوة العزير ابن لله تعالى؛ إلا أنه أمر شنيع، وحادثة نكرة لايزال التاريخ يعرفها طوال زمانه؛ حتى لايكرر التاريخ به ثانيًا ولا يعيدها أي شخص أو فرقة أبدًا؛ فعلى شناعة هذه العقيدة والقول ما يدل قول الله تعالى في محكم التنزيل: "تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾".[3]

ثامنًا: وقال ابن عاشور: أحسب أنّ الداعي لهم إلى هذا القول أن لايكونوا أخلياء من

[1] الفوز الكبير في أصول التفسير، ص 99

[2] موقف الإسلام العقدي من كفر اليهود والنصارى، ص 36

[3] سورة مريم: 90

نسبة أحد عظمائهم إلى بنوة الله تعالى مثل قول النصارى في المسيح كما قال متقدموهم "ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ"[1]{[2].}[3].

ملخص القول: أن غرض المعترضين الأساسي والوحيد هو ضرب الدين الإسلامي بضرب مصداقية قرآننا العظيم، لكن هيهات لهم ذلك.

بعض العناوين الفرعية: شخصية عزير: وأما عن عزير ويقال له عزراء فقد جاء في قصص الأنبياء لابن كثير نقلًا عن ابن عساكر: أنه عزير بن جروه، ويقال ابن سوريق، ثم ساق نسبه إلى هارون بن عمران عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ثم قال: وكان ممن سباه بختنصر وهو غلام حدث، فلما بلغ أربعين سنة أعطاه الله الحكمة، ولم يكن أحد أحفظ منه ولا أعلم بالتوراة.[4]

عزير: اسم حبر كبير من أحبار اليهود الذين كانوا في الأسر البابلي، واسمه في العبرانية (عزرا) بكسر العين المهملة بن (سرايا (من سبط اللاويين، كان [ص168): حافظًا للتوراة، وقد تفضل عليه (كورش) ملك فارس فأطلقه من الأسر، وأطلق معه بني إسرائيل من الأسر الذي كان عليهم في بابل وأذنهم بالرجوع إلى أورشليم وبناء هيكلهم فيه، وذلك في سنة 451 قبل المسيح، فكان عزرا زعيم أحبار اليهود الذين رجعوا بقومهم إلى أورشليم وجددوا الهيكل وأعاد شريعة التوراة من حفظه فكان اليهود يعظمون عزرا إلى حد أن ادعى عامتهم أن عزرا ابن الله، غلوا منهم في تقديسه، والذين وصفوه بذلك جماعة من أحبار اليهود في المدينة، وتبعهم كثير من عامتهم.[5]

وعُرف عزرا بإخلاصه، وكان شجاعًا في شد عزيمة اليهود في العودة إلى إسرائيل، ثم

---

[1] سورة الأعراف: 138

[2] التحرير والتنوير، 168/11

[3] المصدر نفسه، 168/11

[4] قصص الأنبياء، ص 377

[5] التحرير والتنوير، ص 168/11

شد عزيمتهم إلى جانب زربابل في إعادة بناء وطنهم وإعادة بناء هيكل الله المدمرين؛ فحاز ثقة وإعجاب واحترام الشعب اليهودي.[1]

هل العزير حبر من أحبار بني إسرائيل أم أنّه نبي من الأنبياء؟ أرسل الله تعالى إلى بني إسرائيل العديد من الأنبياء والرُّسل، وقد ذُكر بعضهم في عديد من النصوص القرآنية صراحةً، كما أفردت السنة النبوية بعضهم، وبقي بعضهم مجهولًا لم يُذكر وقد اختلف أهل العلم فيه؛ فقد قال ابن كثير في البداية والنهاية: والمشهور أنه نبي من أنبياء إسرائيل، وأنه كان فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى.اهـ[2]. ورجح بعضهم عدم نبوته منهم أبو حيان.. وقد رُوي حديث يقول النبي -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: فيه "ما أدري أتبّع لعينٌ أم لا، وما أدري أعزير نبيّ أم لا".[3]

وهذا الحديث يُؤكّد أنَّ شخصية عزير اختُلِفَ فيها ولم يرد أثرٌ صحيحٌ فيها سوى آيات القرآن الكريم التي دلّت عليه دون ذكرنُبوّته من عدمها.

بعض مزاياه والتي جعلت اليهود تزعم بانه ابن الله؟ قال ابن عطيّة ملخصًا قول الطبري دون أن يتبنى قولًا في موضوع العزير ما يلي: وحكى الطبري وغيره أن بني إسرائيل أصابتهم فتن وبلاء وقيل مرض وأذهب الله عنهم التوراة في ذلك ونسوها، وكان علماؤهم قددفنوها أول ما أحسوا بذلك البلاء، فلما طالت المدة فقدت التوراة جملة فحفظها الله عزيرًا كرامة منه له، فقال لبني إسرائيل إن الله قد حفظني التوراة فجعلوا يدرسونها من عنده ثم إن التوراة المدفونة وجدت فإذا هي مساوية لما كان عزير يدرس، فضلوا عند ذلك وقالوا إن هذا لن يتهيأ لعزير إلا وهو ابن الله.

قال البيضاوى: وإنما قالوا ذلك(عزير ابن الله) لأنه لم يبق فيهم بعد وقعة "بختصر"

[1] اليهودية في ضوء القرآن، 150-151

[2] البداية والنهاية، 53/2.

[3] رواه أبو هريرة: البزار في البحرالزخار المعروف بمسند البزار، 166/15

سنة 586ق.م. من يحفظ التوارة وهو لما أحياه الله بعد مائة عام أملى عليهم حفظًا فتعجبوا من ذلك وقالوا: ما هذا إلا لأنه ابن الله.[1]

ملخص البحث: الإسلام بين غلو وتقصير، وبين قبول ونكير، نؤمن بالله تعالى كما هو بأسمائه وصفاته، وتنزهه من كل صفات البشر ونقائص البشرية، ولقد نزل الكتاب العزيز وجاء النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام بالصورة الصحيحة الكاملة عن الإله الحق سبحانه وجاءت النصوص القرآنية والنبوية بأحسن ما يمكن أن تأتي به واضحة لا لبس ولا غموض فيها، فوجه التطبيق في البحث أنا نسلم أن القائل هذا أصلًا كان في عهد النبي محمد، ووقت نزول القرآن، أو قبله قليلًا، بيد أنه لم يكن يوجد يهودي ينكر على هذا بالرغم من كثرة الجدل من عند أنفسهم، ولو كان هذا على خلاف الواقع لكانت لهم فرصة ذهبية للشن ضد القرآن ومن أنزله ومن أنزل عليه، وإذا ما يوجد يهودي يصدق بأنه لا يزعم شخصًا مثل عزير ابنًا لله سبحانه وتعالى فلا باس به، وهو لا يكذّب قول الله في ذلك، إلا أنّ الذي اشتبك به المعترضون كثيرًا أنهم يحملون الآية على الجميع من اليهود وإذاما يطلق على اليهود مطلقًا (صفحًا عن ذكر الكل والبعض) فلا يعارض النص القرآني ما يدعيه اليهود من عدم جعل عزير ابنًا لله، وبالتالي فلاحاجة إلى حمل كلمة الابن على المجاز بل المراد هنا الحقيقة، وهذا القول بالبنوة لا تلزم عبادة العزير ولا تأليهه، وما أحسن أن لا توجد الفرقة التي تسند إلى الله ما لا يليق بجلاله وقدرته، فهو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن ولن يكون أحد كفوًا له- سبحانه وتبارك وتعالى شأنه-.

[1] تفسير البيضاوي، 78/3

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. أحكام القرآن للجصاص أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، دار إحياء التراث العربي، 1992م
3. إسرائيل والتلمود لإبراهيم خليل أحمد، مكتبة الوعي العربي، مصر، 1967م
4. أعلام القرآن (بالأردوية) لعبد الماجد الدرياآبادي، مجلس نشريات إسلام، كراتشي، باكستان، 2003م
5. البداية والنهاية لابن كثير إسماعيل بن عمر الدمشقي، بيت الأفكار الدولية، لبنان، 2004م
6. التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن محمد ابن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م
7. تفسير ابن كثير للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل ابن كثير الدمشقي، دار الكتاب العربي، بيروت، 2005م
8. تفسير البغوي، معالم التنزيل للإمام أبي محمد، الحسين بن مسعود البغوي، دار طيبة، الرياض، 1409هـ
9. تفسير البيضاوي المسمّى بأنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي ناصر الدين أبي سعد البيضاوي، دار الشيد، دمشق، بيروت، 2000م
10. التفسير الصحيح (موسوعة التفسير المسبور من التفسير بالمأثور) للدكتور حكمت بن بشيربن ياسين، دار المآثر، المدينة النبوية، 1999م
11. تفسير القرآن الحكيم تفسير المنار لمحمد رشيدبن على رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.

12. تفسير النكت والعيون لأبي الحسن الماوردي، دارالكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.
13. التفسير الوسيط للقرآن الكريم للدكتور محمد سيد طنطاوي، دار المعارف، القاهرة، 1992م
14. تفسير بيان القرآن، الكامل، لأشرف علي التهانوي، إداره تأليفات أشرفية، ملتان، باكستان، 1426هـ
15. تفسير عثماني (بالأردوية) للعلامة شبير أحمد العثماني، مدرسة معاذ بن جبل، علي جراه، د.ت.
16. تفسير نور الثقلين لعبد علي العروسي الحويزي، موسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، د.ت.
17. الجامع الصحيح للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1400هـ
18. الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، موسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 2006م
19. الجامع لشعب الإيمان لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، مكتبة الرشد، الرياض، 2003م
20. خلفية النصرانية (بالأردوية) لسرفراز خان صفدر، مكتبة صفدرية، باكستان، 2010م
21. الرد على ابن النغريلة اليهودي (سلسلة رسائل) لابن حزم الأندلسي، تحقيق: د. إحسان عباس، د.ت.
22. سنن الترمذي لمحمد بن عيسى بن سورة الترمذي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، 1975م.

23. الصحيح لمسلم الإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، مكتبة قديمة آرام باغ، كراتشى، باكستان، ط2، 1956م
24. العرب واليهود في التاريخ للدكتور أحمد سوسة، شركة دار الوراق للنشر، بيروت، 2014م
25. فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ أحمد علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، 1379م
26. الفصل في الملل والأهواء والنحل لأبي محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري، دار الجيل، بيروت، ط2، 1996م
27. الفوز الكبير في أصول التفسير للإمام الشاه ولي الله الدهلوي، مكتبة البشرى، كراتشي، باكستان، 2011م
28. القاموس المحيط لمجدد الدين الفيروزآبادي، دار الحديث، القاهرة، 2008م
29. قصص الأنبياء لأبي الفداء إسماعيل ابن كثير، مطبعة دار التأليف، القاهرة، ط1، 1968م
30. قصص القرآن (بالأردوية) لحفظ الرحمن السيوهاروي، دار الإشاعت، كراتشي، باكستان، 2002م.
31. الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1998م
32. مجموعة الفتاوى لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد ابن تيمية، دار الوفاء، المنصورة، ط2، 2005م.
33. مسند البزار باسم البحر الذخار لأبي بكر محمد بن عمرو العتكي المعروف بالبزار، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، 2009م
34. مع الجاحظ في رسالة الرد على النصارى للدكتور إبراهيم عوض، مكتبة زهراء

الشرق، القاهرة، 1999م
35. المعجم الأوسط لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبي القاسم الطبراني، دار الحرمين، القاهرة، 1995م
36. مفردات القرآن للعلامة الإمام عبد الحميد الفراهي، دارالغرب الإسلامي بيروت، ط1، 2002م.
37. مقارنة الأديان/اليهودية للدكتور أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط8، 1988م
38. الملل والنحل لأبي الفتح الشهرستاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 1993م
39. مناظرة في الرد على النصارى لفخر الدير الرازي، تحقيق: د. عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986م
40. موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية للدكتور عبد الوهاب المسيري، دار الشروق مصر، 1999م
41. موقف الإسلام العقدي من كفر اليهود والنصارى للدكتور يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، 1999م
42. اليهودية الأرثوذكسية- دراسة وصفية- إعداد: سائد خليل قدورة عايش، ود. نسيم شحدة ياسين، الجامعة الإسلامية، غزه، 2006م
43. اليهودية في ضوء القرآن (بالأردوية) للسيد أبي الأعلى المودودي (ملخصًا)، إداره ترجمان القرآن، لاهور، باكستان، ط4، 2000م

ISSN: 2321-7928

[وأكثر هذا الناس ليس لهم عهد]

- د. أورنك زيب الأعظمي[1]

أوّل ما طرق بذهني قول عنترة بن شداد العبسي هذا الذي عنونتُ به المقالةَ والذي صدرُه:

لأيّ حبيبٍ يحسن الرأي والودّ[2]

فـ"الناس" كلمة تعني الأناس وتأتي لها صيغة الجمع كما قال حسّان بن ثابت الأنصاري:

قومٌ أباحوا حِماهم بالسيوف ولم يفعلْ بكم أحدٌ في الناس ما فعلوا[3]

وقال الكميت الأسدي:

لا ينبتُ الناسُ إلا في أرومتهم ولا ترى ثَمَرَ القِنوان في السَّلَمِ[4]

وقال عقيل بن عُلَّفة المري:

إنْ يحسدوني فإني غير لائمهم قبلي من الناس أهلُ الفضل قد حُسِدُوا[5]

وقال جرير:

رأى الناسُ البصيرةَ فاستقاموا وبيَّنَتِ المِراضُ من الصحاح[6]

وقال نصيب بن رَباح:

هو البدرُ والناس الكواكبُ حوله وهل شبّه البدر المنير الكواكب[7]

[1] مدير تحرير، مجلة الهند، وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي

[2] شرح ديوانه، ص 54

[3] شرح ديوانه، ص 275

[4] ديوانه، ص 398، سلم: نوع من العضاه

[5] شرح ديوان الحماسة، 154/1

[6] ديوانه، ص 78

[7] شعره، ص 60

ولكن استخدمها الشعراء كالواحد لا الجمع ونسرد فيما يلي نتفًا منه فقال أوس بن حجر:

أما حصانٌ فلم تُحجَبْ بكِلّتها قد طُفتُ في كلِّ هذا الناس أحوالي

على امرئ سوقةٍ ممن سمعتُ به أندى وأكمل منه أيَّ إكمال[1]

وقال عمرو بن ثعلبة الواقفي:

أما ترينا وقد حفّتْ مجالسنا والموتُ أمرٌ لهذا الناس مكتوب

فقد غنينا وفينا سامرٌ غنجٌ وساكنٌ كأتيّ الليل مرهوب[2]

وقال الأعشى الكبير:

ذاك دهرٌ لأناسٍ قد مضوا ولهذا الناس دهرٌ قد سنَح[3]

وقال لبيد بن ربيعة العامري:

ولقد سئمتُ من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس: كيف لبيد[4]

وقال صِرمة بن أبي أنس الخزرجي:

وأنتم لهذا الناس نورٌ وعصمةٌ تُؤمّون والأحلامُ غيرُ عوازب[5]

وقال الفرزدق:

وكنتم لهذا الناس حين أتاهم رسولُ هدى الآيات ذلّتْ رقابُها[6]

[1] ديوانه، ص 102

[2] موسوعة شعراء العصر الجاهلي، ص 216

[3] ديوانه، 508/2

[4] ديوانه، ص 225

[5] ديوان الشعراء المعمّرين، ص 380

[6] ديوانه، ص 55

وقال أيضًا:

فثنتانِ مجدُ الجاهلية فيهم، وهم قبل هذا الناس لله أسلموا[1]

وقال أيضًا:

فإنْ يك هذا الناس خلّف بينهم علينا لهم في الحرب كلُّ غَشوم[2]

وقال أيضًا:

وما كان هذا الناس حتى هداهم بنا اللهُ، إلا مثلَ شاءِ البهائم[3]

وقال المزرّد:

وقلتُ لهذا الناس إذ ينهشونني أسدّوا كما خيرُ الأمور سديدُها[4]

وقال زهير بن أبي سلمى:

فلو كان حمدٌ يخلد الناس لم يمت ولكنّ حمد الناس ليس بمُخلِد[5]

وقال الفرزدق:

والناسُ يعلمُ أننا أربابُهم يوم التقى حجّاجُهم بالمشعر[6]

فبدا من هذه الأمثلة أنّ "الناس" هنا لا يعني ما تعنيه الكلمة بل يعني الصنف الخاص من الناس وعلى هذا فجاءوا له بصيغة الواحد المذكر كما قال السموءل:

الموتُ حلو لما لاقت شمائلهم وعند غيرهم كالحنظل الكدر

[1] ديوانه، ص 568
[2] ديوانه، ص 595
[3] ديوانه، ص 619
[4] ديوانه، ص 60
[5] ديوانه، ص 41
[6] ديوانه، ص 292

الناس صنفان: هذا قلبه خزف عند اللقاء وهذا قُدَّ من حجر[1]

وقال الأعشى الكبير:

والناس شتى على سجائحهم مستوفقًا حافيًا ومنتعلا[2]

وقال النعمان بن بشير الأنصاري:

وقف الناس للحساب جميعًا فشقيّ معذّبٌ وسعيد[3]

وقال مروان بن أبي حفصة:

وما الناسُ إلا واردٌ لحياضكم وذو نهلٍ بالريّ عنهنّ صادر[4]

وقال أبو بكر الصديق:

صبرًا عن الطعن إذ ولّتْ جماعتُنا والناسُ من بين محروم ومغبون[5]

وأما قول الخنساء التالي:

والناس سابلةٌ إليك فصادر بغنًى ووارد[6]

وقول ذي الرمة التالي:

وذي شُعَبٍ شتّى كسوتُ فروجَه لغاشيةٍ يومًا مقطّعةً حُمرا[7]

---

[1] ديوانه، ص 99

[2] ديوانه، 490/2، سجائح جمعُ سجيحة: طبائعهم وخُلُق

[3] ديوانه، ص 91، "وسعيد" أي: سعيد في النعيم

[4] ديوانه، ص 54

[5] ديوانه، ص 106، ولكن استعملوه جمعًا أيضًا كما قال الأعشى الكبير:

يَمّمْتَ خيرَ فتًى في الناس كلهم الشاهدين به أعني، ومن غابا

ديوانه، 643/2

[6] ديوانها، ص 36

[7] ديوانه، ص 89

فشبّهت الخنساء فيه الناس بالورد من الإبل (السابلة أي: الذاهبة على الطريق)[1] كما كنّى بهم ذو الرمة بالجماعة التي غشيته فأنّثا الفعل.

[1] ونُقِلَ بيتُ طريح الثقفي التالي خطأ فجاء في مجموعة شعره (ص 81):

فالناسَ سائلةٌ إليـ ـكَ فصادرًا تَغني ووارِدْ

فالسائلة هي السابلة. والصواب سابلة.

المصادر والمراجع

1. ديوان أبي بكر الصديق وجمهرة خطبه ووصاياه ورسائله، صنعة: الدكتور محمد شفيق البيطار، مطبوعات مجمع اللغة السعيدة، الجمهورية اليمنية، صنعاء، ط1، 2020م
2. ديوان الأعشى الكبير بشرح محمود إبراهيم محمد الرضواني، وزارة الثقافة والفنون والتراث، إدارة البحوث والدراسات الثقافية، الدوحة، قطر، 2010م
3. ديوان الخنساء، اعتنى به وشرحه: حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت، 2004م
4. ديوان السموأل، شرح وتحقيق، علي سابا، مكتبة صادر، بيروت، د.ت
5. ديوان الشعراء المعمّرين، للدكتورة شمس الإسلام أحمد حالو، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، 2010م
6. ديوان الفرزدق، شرح الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م
7. ديوان الكميت بن زيد الأسدي، جمع وشرح وتحقيق: د. محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط1، 2000م
8. ديوان المزرّد بن ضرار الغطفاني، تحقيق: خليل إبراهيم العطية، مطبعة أسعد، بغداد، ط1، 1962م
9. ديوان النعمان بن بشير الأنصاري، تحقيق: الدكتور يحيى الجبوي، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط2، 1985م
10. ديوان أوس بن حجر، تحقيق وشرح: د. محمد يوسف نجم، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980م
11. ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1986م
12. ديوان حسان بن ثابت، شرح وتقديم: الأستاذ عبدأ مهنا، دار الكتب العلمية،

بيروت، لبنان، ط2، 1994م

13. ديوان ذي الرمة، تقديم وشرح: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995م
14. ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح وتقديم: الأستاذ علي حسن فاعور، دار التب العلمية، بيروت، ط: 1، 1988م
15. ديوان لبيد بن ربيعة العامري، دار صادر، بيروت، د.ت.
16. ديوان مروان بن أبي حفصة، جمع وتحقيق وتقديم: د. حسين عطوان، دار المعارف، ط3، 1982م
17. شرح ديوان الحماسة، كتب حواشيه: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م
18. شرح ديوان عنترة بن شداد العبسي، للعلامة التبريزي، دار الكتاب العربي، ط1، 1992م
19. شعر طريح بن إسماعيل الثقفي الأموي، دراسة و جمع وتحقيق: د. بدر أحمد ضيف، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، 1987م
20. شعر نُصَيب بن رَباح، جمع وتقديم: داود سَلّوم، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1967م
21. موسوعة شعراء العصر الجاهلي لعبد عون الروضان، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2001م

ISSN: 2321-7928

المبين

- السيّد محمد سليمان أشرف البِهَاري[1]

ترجمة من الأردوية: د. ضياء القمر آدم علي التيمي[2]

﴿4﴾

الباب الخامس

في فلسفة تطور اللسان

إن كمال تطوّر اللغة العربية الذي لا يمكن تخيل أيّ رتبة بعده الاشتقاق الكبير. وقبل أن أعرضه أرى من المناسب أن أتطرق- باختصارٍ- إلى المراحل اللغوية التي ساقها اللغويون في كتبهم؛ ليتضح أنّ الاشتقاق الكبير هو الحد النهائي لتطوّر اللغة العربية الذي لا تستطيع قوة الخيال- بعد وصولها إليه- أنْ توحي بما يجب القيام به لأجل تطوير هذه اللغة كمالًا.

يطبق أغلب علماء الألسنة في هذا العصر على أنّ أساس اللغة يقوم على مبدأ الحكاية الصوتية، فيذكرون أنّ الإنسان يتكلمون بما يسمعون من حولهم منذ أنْ ولدوا. لغة إيران فارسية، ولغة العرب عربية، ولغة إنجلترا إنجليزية، ولغة فرنسا فرنسية، فكل مولودٍ بشري ينطق بما يسمعه من أهل تلك البلدة، فطفل هندي- لو ولد في بيئة عربية، أو أنه وصل إليها بعد أن ولد قبل أن يشبّ، فمع أنّ أباه وأمّه هنديان، ولغة أسرته هندية

[1] الرئيس الأسبق لقسم العلوم الإسلامية بجامعة علي كره (الهند)

[2] أستاذ اللغة العربية وآدابها، بكلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية، بالجامعة المحمدية منصوره، ماليغاون، مهاراشترا، الهند.

منذ قرون طويلة- يحكي لما يحيطه حوله؛ إذ إنَّه يسمع العربية، فتكون لغته في هذه البيئة عربية، وتكون لغته الأم فيها لغة أجنبية؛ كما أنّ الهندية أجنبية لعربي أصيل.

والدليل الثاني: أنه لو تربّى مولود بشري في مكان ينأى عن بشر، ولا يتوافر فيه إلا الطيور والوحوش فإنَّه لا يقدر على النطق ولو بلغ الحلم، حتى وإن بلغ الكهول، وإنَّما ينطق بالأصوات التي أنس بها. ويختلف تصعد أصواته وتسفلها بحسب اختلاف أحاسيسه ومشاعره، وتنأى أصواته عما يشبه الأصوات الإنسانية، بل هو يحكي لما سمعه من أصواتٍ حوله.

والدليل الثالث: خذْ لغة بلدٍ تنطق حاليًا، ثم قارنْ بين هذه وتلك التي كانت تنطق قبل مئة سنة في هذه البلدة نفسها ترى بونًا كبيرًا فيما بين ماضيها وحاضرها، فلا تكون لغة اليوم لغة النشء الآتي؛ فكلما ينقضي قرن يحدث في اللغة تغييرات تجعل إحداهما أجنبية لأخراهما.

ملخص الدلائل الثلاثة: الأدلة الثلاثة المذكورة- فيما أعلاها- وإن كانت مبنيةً على أساس واحد، ولكنها تشير إلى أمر آخر- أيضًا؛ ملخصه أنّ أصوات الإنسان- في أول أمرها- لم تكن إلا محكية لأصداء الكون، ثم بدأ المحكي يتضح تدريجيًا أكثر من الأصل، حتى وصل إلى درجة لقبت فيها الأصوات باللغة. ومن ثمَّ، تبدأ مرحلة التطور من حيث كونها لغة. ومن الواقع أنه قد مضت على كون تلك الأصوات لغةً قرونٌ عديدةٌ لا يمكننا أن نقدِّرها، وكذلك تقدير الأزمنة والمراحل التي مرّت بها اللغة في سبيل تطورها خارج عن القياس.

ولنفهم تلك الأزمنة ونفهِّمَها للآخرين، يمكننا أنْ نقسمها في أربعة أطوار:

(1) الطور الطبعي

(2) الطور التقليدي

(3) الطور الصوتي

(4) الطور النطقي

بداية الطور الطبعي: عاش الإنسان أوَّل طورٍ لحياتهم في الدنيا، كما يعيش الحيوان غير العاقل؛ فلم يكن لديهم لباس يلبسونه، ولا غذاء يأكلونه، ولا بيت يسكنونه، ولا آلات حرب يدافعون بها أعداءهم، ولا لغة ينطقون بها؛ يأكلون فواكه الأشجار أو قشرها عندما يجوعون، وأحيانًا يرمون حيوانًا بالحجر ويشبعون. يختفون في الكواهف ويقضون لياليهم، فإن وجدوا غارًا تحت الشجرة دخلوها وناموا فيها. يُخرجون أصواتًا عند اجتماع المشاعر والأحاسيس تشبه غوغاء وضوضاء لا تحمل معنًى ولا مدلولًا.

حاجتهم الماسّة للاجتماع: لما رأى الإنسان الحيوانات غير الأليفة تهاجم على أبناء جنسهم أحسّوا بالمخاطر على حياتهم. الغِيرانُ والكهوف وإن كانت مأوى لهم، غير أنَّهم في أشدِّ حاجةٍ منها إلى ما يقيهم من حشرات الأرض الموذية والسباع، وهذه هي الحاجة التي قد دفعتهم إلى أنْ يعيشوا حياة اجتماعية؛ ليكون بعضهم مساعدًا لبعض عندما اعترضتهم المخاطر، وضرورة المساعدة هذه هي التي أحدثت فكرة تقوية الضعف الإفرادي باجتماع القوة، ثم بدأ عُمران الإنسان يزداد إلى صورة اجتماعية. ومن ثمَّ كلَّما أراد الإنسان أنْ يَعمُروا في مكانٍ ما أحسَّوا بضرورة الوجود لأبناء جنسهم.

الاجتماع والحاجة إلى التفاهم: ولكن الحياة الاجتماعية تتطلَّب أن تخلق وسائطَ يمكن من خلالها الوقوف على ما في خواطر بعضهم لبعضٍ، واستفادة بعضهم من بعض، والذي لأجله حوِّلت الحياة الانفرادية إلى الحياة الاجتماعية وأوثرت عليها.

وعلى قدر ازدياد متطلبات الحياة الاجتماعية هذه، ازدادت الكيفيات الاضطرارية في طبائع الإنسان؛ فأول واسطة ظهرت للتفاهم الإشارة، ثم اللفظ، ثم الجملة، ثم الكلام.

جمود الحيوان وتطوّره: انظر إلى الحيوانات، كيف تعرب عما في خواطرها بواسطة

تغييرها لأسلوبها في النطق بالأصوات، ولكن أصواتها هذه غير صالحة لأن تصل إلى درجة الكلمة، وأيضًا أنّ أعمالها وأفعالها وحركاتها الجسمية مازالت تلتزم بحالة واحدةٍ دون أن يعتريها غيرها من أحوالٍ أخرى متنوعَّةٍ؛ فلذا لم تكن إشارات أعضائها وحركاتها أكثر نفعًا وفائدةً، ولم توسع أصواتها مجال الفهم والإفهام. ولذا فهي- مع اجتماعها- لم تزل أضعف بالنسبة لمن كان ضعيفًا، ولم تقدر أي إضافة إلى وسيلة التفاهم التي أتت بها معها.

ولكن الإنسان الذين يتميزون بقوة التَّقليد والإبداع قاموا بواسطة هاتين الميزتين بأعمال جليلة، تأبى ثقافتهم ومعاشرتهم ومحادثتهم بالنظر إليها أنْ مرَّ بهم زمنٌ بمثل هذا القدر من الانخفاض والتَّخلُّف.

طور التَّقليد: إنّ الإنسان- في طورهم البدائي- كانوا تعلموا طريقة الحكاية، بعد أنْ سمعوا أصوات وأصداء الحيوانات والموجودات الأخرى حولهم، ولكن الاجتماع زوَّدهم بدرسٍ للإشارة إضافيٍّ.

أقسام الإشارة: تنقسم الإشارة إلى قسمين: اختيارية واضطرارية.

إنّ الفرح والحزن والراحة والكرب وغيره كيفيات تعدُّ من أنواع حركات الأعضاء الاضطرارية؛ إذ يعتري الوجه تغيير عند ظهور هذه الكيفيات؛ فلما كانت هذه الكيفيات عاريةً عن الحكاية تلجأ إلى تلك الحكاية وتعبر عنها.

مثال البُكم: الإشارة الاختيارية هي أن تعرب صورة المحكي عنه بواسطة الإشارة، كما أنّ الأبكم إذا أراد أنْ يبين شيئًا يكوِّن صورة ما يريد الإشارة إليها من خلال الإشارة. فمثلًا يشير بالبرقعة إلى المرأة، ويشير بالشارب واللحية إلى الرجل، ولكن مد الوجه عند الغضب، والعبوس على الجبهة؛ هذه كلها إشاراة اضطرارية، فإذا أراد الأبكم أنْ يحكيها يعبس وجهه متعمدًا.

وكان الإنسان- قبل أن توضع الألفاظ- بكمًا، ولذا كانوا يقومون بجميع أعمالهم بالإشارات كالأبكم، وهذه الإشارات الاختيارية والاضطرارية كانتا تعبران عما في خاطرهم. والإشارة- وإن كانت في البداية- ضئيلة ويسيرة، ولكنها بعد أنْ مرَّ زمنٌ عليها شاهدت في سيرها تطورًا جعل جميع الأخيلة والأحاسيس تعبَّر من خلال الإشارة، من دون أية معاناةٍ وجهدٍ.

تقصير الإشارة: ظهور الإشارة في حيّز الوجود، ثم ازدهارها سهَّل الإعراب عما في الخواطر، ولكن المشكلة لديها أنها في حاجة إلى المشاهدة، فما أمكنت محادثةً إن حدث ظلام الليل أو اعترض له الحجاب. ولذا أراد الإنسان أن يتقدموا ليتمكنوا من أن يَعرضوا ما ادعوا للآخرين فلو لم يكن هذا اضطراريًا لم تكن هناك إلا إشارات، ولم يكن للألفاظ واللغات مجال.

التَّفاهم الصوتي: فلما لم تمكن الإشارات- مع وفورها من حل المشكلة في باب التفاهم- بدأ الناس يستخدمون محاكاة لما كانوا يسمعونه من أصوات الطبيعة أو أصوات غيرها، مثل صوت آه، فإنه يخرج من الفم من غير قصدٍ، ودافعه ليس إلا الطبيعة، ثم بدأ الناس استخدام هذا الصوت في كل مكانٍ يأباه قلبه أو يكرهه، وكذلك الأصوات التي يخرجها الحيوان في أحوالها المختلفة جعلوا حكاية أصواتها معبرة عن تلك الحال ودالة عليها.

فالكلب- مثلًا- عندما يرى مربِّيه يخرج صوتًا لا يقال له نُباحٌ ولا لُهَاثٌ، فقرَّر الإنسان إخراج مثل هذا الصوت لمن يَقدَم وقدومُه داعٍ لفرحه وسروره. فلو أخرج أحد مثل هذا الصوت ظنّ الآخرون أنه قد قابل شخصًا أوجب له الفرح والسرور.

وكذلك عندما يرى الكلب شخصًا أجنبيًا أو يرى لصًّا يبدأ ينبح باستمرار يفهم منه أنه جاء من يكره مجيئه، فالإنسان- أيضًا- قد اختاروا هذا الأسلوب من الصوت، ليخبروا به عن الأعداء والحشرات المؤذية.

الغرض أنه لم يزل اختراع سلسلة حكاية الأصوات معبرًا عما في الضمير كذلك. وهذا الصوت كان يعبر عن المشاعر والأحاسيس أحيانًا، وكان يدلّ على الموجودات التي يكون حكاية عنها أحيانًا أخرى. فمثلًا إذا كان المقصود كلبًا فكفى للتعبير عنه النباحُ، ولكنه حتى الآن لم تستغن الإفادة من الإشارات؛ ففي بعض الأحيان، كانت تستخدم الحكايات الصوتية، وفي أحيان أخرى تستخدم الإشارات؛ فكما أنَّ ذات الأبكم نموذج للتكلم بالإشارة، فكذلك ذكرى الحكايات الصوتية تتوافر في كلِّ مولود جديد. ونظرًا إلى هذا يمكننا تصويب هذا القياس.

إنّ الطفل في بداية طوره البدائي يعبر عن الأشياء؛ إما بالإشارة أو بالحكاية عن أصواتها.

من يستطيع أن يقول- بعد أن يرى الحضارة الحالية للإنسان وزخارفها- بأنه قد مرَّ بالإنسان زمنٌ كان فيه مجموع عيشهم موصولًا بقطعة من أدم؛ في النهار كانت لباسًا يسترون بها عوراتهم، وفي الليل فراشًا، وفي الشتاء لحافًا، وفي الحرب درعًا، وفي المطر مظلة، ولحمل الأشياء آنية، ولإغلاق فتحات الكهوف بابًا.

ولكن- في الواقع- أنه قد مرَّ بالإنسان زمنٌ يقضون فيه حاجاتهم الحياتية بشيء واحد، ثم توافر لكل حاجة أداة ووسيلة خصَّت بها.

فكذلك الشأن باللغة الإنسانية؛ في البدء، سُمع صوت، ثم مازال حكي لمدة، ثم بدأت نعومة آلات الصوت تصيقل تلك الحكاية وتجليها، حتى فيما بعد تكوَّن الصوت لفظًا.

وفي تلك الآونة، كانت تدلّ كلمة واحدة على عدة معانٍ؛ وهذه كانت اسمًا وفعلًا ومصدرًا ومشتقًا واسم ظرف واسم الآلة، وكانت تطلق على مدلول واحد وعلى ما فهم منه من المعاني أو على ما يتعلق به أيضًا.

نعم، فكما أنّ الحكاية الصوتية- بعد أنْ مرّت بعدة مراحل- وصلت إلى درجة اللفظة، فكذلك اللفظة فهي- بعد أن تطورت وقطعت سوطًا كبيرًا- وصلت إلى هذه

الدرجة؛ الاسم والفعل والحرف.

وفي هذا الزمان المتطور؛ يتوافر في الجبال والغاب فريقٌ من الناس، لو اختلطوا بالذين يعدون أنفسهم مثقفين يأبى بعضهم عَدَّ بعضِهم من قبيلهم. فعندما نراهم عائشين فيها يتجلي لنا صورة معاشرتهم البدائية التي لا توحي بثقافة وحضارة- على أقلها.

وكذلك يتوافر في بعض أنحاء العالم عُمرانٌ يدلّ دلالة كافية على أنّ اللغة والتعبير يلتزمان بالقوانين التي تعمل في جميع الفروع للحضارة، بل وتعمل في بناء شخصيات الإنسان أنفسهم.

إنَّ من السُّكان الجنوبيين بأمريكا الوسطى والمواطنين في بعض قطاعات أستراليا قبل آونة وقطان بعض الأكاف في أفريقيا أناسًا تصدِّق دراسة لغتهم أصولَ التطور وقوانينه؛ يتوافر لدى سكان هذه المناطق مجموعة من الألفاظ، اعتراها نقص؛ فهي لا تمكن من تأدية معناها إلا بإشارات مختلفة من اليد والرجل والعين وغيرها، وفي بعض الأحيان يحصل الناطقون بها على معانيها المفهومة من خلال الزيادة والنقص؛ في تصعد الألفاظ والكلمات وتسفلها.

طور النُّطق: من الممكن أنّ صاحب نظرة وضيعة يطالع المباحث المذكورة فيصل إلى أنّ طفلًا عندما ينشأ فيه قوة النطق يقدر خلال أشهر على النطق بتلك الألفاظ، ثمَّ خلال عدة سنوات، يبدأ ينطق بالجمل المركبة من الفعل والفاعل والمفعول والمبتدأ والخبر، فكذلك لما أحسّت الطبقة الأولى من الإنسان بسماع صوت أحوجتهم متطلبات الحاجات المتتابعة لمدة سنوات إلى وضع الألفاظ. ولذا يمكننا أن نقول إنّ الطبقة الأولى هي التي وفرّت إلى آخر عمرها موادَّ للألفاظ صارت للنشء التالي ثروة وذخرة، ثم تقدَّمت وتطوّرت، حتى وصلت إلى عدة أجيال، وتبدت- في النهاية- لغة لهم كاملةً.

ولكن المهرة في أصول التطور والازدهار للغة يعرفون معرفة تامة بأنّ الطبقة الأولى لم يتسنّ لها فرصة لأن تفهم الأصوات الطبعية والخارجية بأحسن وجهٍ، فضلًا عن

أن يحاكوا تلك الأصوات، ويضعوا معاني لتلك المحاكات!

لا يُقَدَّر الزمن الذي وصل فيه السماع إلى الحكاية، والحكاية الصوتية إلى اللفظ أيَّ تقديرٍ، ثمَّ حدوث القلب والإبدال والنَّحت وإجراء الترخيم فيه ثم وجود مجموعة كبيرة من هذا القبيل، ثم إيصال الألفاظ إلى مرتبة الاسم والفعل والحرف، هذه كلها تتطلب أمدًا بعيدًا لا يعدّ، ولا نغالي إذا قلنا إنّ الإنسان قد أوصل النطق إلى هذا المستوى من الكمال خطوة تلو أخرى.

الطور الأول وضع الألفاظ

الطور الثاني وضع الاسم والفعل والحرف والتمييز بين كل منه.

الطور الثالث المشتقات

الطور الرابع وضع أقسام الاشتقاق

الطور الخامس تكوين الجملة بتأليف الكلمات.

الطور السادس اختلاف المعنى باختلاف التركيب.

الطور السابع: وضع الإعراب

آخر ارتقاء للغة ينتهي بالإعراب.

فلو ألقينا النظرة على لغات العالم لوجدنا في العصر الحاضر نموذجًا حيًّا للتقدم والازدهار خطوة تلو أخرى.

فاللغة التي مرَّت بمراحل عديدة تعدّ أكمل درجة بالنسبة للغة التي لم تصل إلى هذه الدرجة حتى الآن.

فاللغات التي اعتراها نقص من الإعراب تعدّ غير مكتملة، وكذلك اللغات التي يتوافر فيها الإعراب ولكن لا يستفاد من اختلافه الحصول على فوائد معنوية تعدّ غير مكتملة

أيضًا بالنسبة للغات التي يستفاد من اختلاف إعرابه الحصول على فوائد معنوية.

إنّ اللغات الناقصة تأخذ وظيفة الإعراب من الحروف. لا يعنى الإعراب في تلك اللغات بأيّ معنًى، وإنما يكون محامياً لنطق الكلمة فحسب. فالمقصود أنه- سواء كان الإعراب موجودًا أو لم يدل هو على معنى- كلاهما يوحي بكون اللغات ناقصة وغير مكتملة، وحول هذه اللغات سيقال: إنها لم تتطور بعد.

نظرة على بحث المستشرقين: إلى هنا بينت بكلمات مختصرة- مع ما يكفي من التوضيح والبيان والتحقيق الذي كان يعتبر الثمرة الطرية اللذيذة لطور الاجتهاد والاكتشاف في الدنيا، وبعد أن تقرأوا الكتب المطولة ستجدون مغزى ما كتبته ملخصًا.

وإن لم يكن هذا مذهبًا جديدًا تطرّقت إليه عقول الأوربيين بداية؛ لأنّ هذا هو نفس مذهب أبي هاشم المعتزلي الذي ذكر في الصفحات الأولى، ولكن قام العلماء الأوربيون بإحياء هذا المذهب بانتظامٍ وجدَّوا في تنميته، وجهدُهم هذا هو جلّ ما يتباهون ويتبجحون به.

لا أقصد- الآن- ذكر تاريخ اللسان ولا الحقيقة التي تعتبر حجر الأساس في وجود اللغة والتعبير، وليس قصدي كذلك التفريق بين اللغة الرئيسية واللغات الفرعية، ولا ضرورة للتيه في أنقاض بابل ونينوا ولا لإمعان النظر في كتابات المقابر وغيرها، ولا البحث عن العلاقة بين الأصل والفرع، ولا رغبة في وضع الفروع جنبًا إلى جنب؛ إذ هذا عمل من يسمي الجهد الذهني والتدبر الفكري للوصول إلى غاية فاسدة بالتحقيق الدقيق والاجتهاد الفذ، بناءً على خرافات وافتراضات لا أساس لها، ويود أن يحمد من قبل عقول معطلة بتسميته باسم جميل مثل (علم الآثار).

بل قصدي فقط أنّ اللغة العربية تتقدم على اللغات باتصافها بمعايير اللغة المثالية، دون منازعٍ؛ فهي تمتاز بخصائصَ وتلتزم بضوابط وقواعد توضح لنا مدى قدمها ورسوخها.

أنا لا أريد إثبات دعواي المذكورة أعلاه بكتابات المقابر أو عبارات التوراة، ولا أريد إثبات جزء من الادعاء بتسمية الخرافة والخيال تاريخًا وتحقيقًا، بل أريد إثباته بعرض اللغة البالغة رقيها وكمالها لأقصى حد، وأصولها وقواعدها الثابتة المحكمة بأنّ اللغة التي ارتقت إلى درجة الكمال دون نظيراتها اللاتي لم تحكم قواعدها وضوابطها قد استغرقت قعراً من الزمن لتصل إلى ما هي عليه، فلهذا إذا كان كمال اللغة العربية دليلًا على اكتمالها فهذا الكمال شاهد عادل على قدمها أيضًا، فالمقصود أنّ اللغة العربية تدل بنفسها على كمالها وقدم اللغة، فلا ضرورة إلى قرينة خارجية... طلوع الشَّمس دليل على الشمس.

الحواس الظاهرية والباطنية: للإنسان خمس حواس ظاهرية وخمس باطنية، فالبصر والسمع والشمّ والذوق واللمس حواس ظاهرية، وهي ظاهرة لدرجة أنها لا تحتاج إلى ذكر موقعها ولا إلى بيان وظائفها وأعمالها، وكذلك من الواضح أيضًا أنّ قدرات كل حاسة مختلفة، وأن لكل منها مجالًا خاصًا، فإذا تلفت حاسة لا تستطيع حاسة أخرى أن تقوم مقامها وتدرك ما تدركه تلك الحاسة أو تحاول العمل في مجالها. فمثلًا إذا سلبت قوة السمع فلا يقدر ما بقي من الحواس الأربع على سماع الأصوات، ولا تتمكن هذه القوى الإدراكية من الوصول إلى حد المسموعات، والسبب وراء ذلك واحد، وهو أنّ كل حاسة محصورة في حواسها.

والحس المشترك والخيال والوهم والحافظة والمتصرفة حواس باطنية، ومن الضروري فهم أعمالها ومجالها بكلمات موجزة.

قسَّم الحكماء عقل الإنسان إلى ثلاثة أجزاء وكل جزء سمّوه بالبطن، ويقال التَّجويف أيضًا، فالبطن الأول والثالث منها كبير، أما البطن الثاني فهو كالرواق والممرّ، وقد ثبت بتحقيقاتهم أنّ الجزء الأمامي من البطن الأول هو موقع الحس المشترك، والجزء الخلفي منها محل الخيال، وأنّ قوة الوهم توجد في الجزء الأمامي من البطن الثالث، وفي جزئها الخلفي تكمن الحافظة، والقوة المتصرفة تتعلق بالبطن الأوسط الذي هو

كالرواق، ولأعمالها المتنوعة سمّيت بثلاثة أسماء: المتصرفة والمتخيلة والمفكرة.

وبعد معرفة أسماء الحواس الباطنة ومواقعها ينظر الآن إلى أعمالها ومهماتها.

الحس المشترك: جميع صور الجزئيات المحسوسة التي تشعر بها الحواس ترتسم بالحس المشترك، ولذا سمي باسمٍ ثانٍ وهو لوح النفس.

الخيال: هذا مخزن ما يدركه الحس المشترك، فالصور التي ترتسم في الحس المشترك يقوم الخيال بحفظها، ونظراً لهذا وقع محله قريباً من الحس المشترك.

الوهم: شأن هذه القوة الحسية إدراك المعاني الجزئية، فالصور المحسوسة تختص بالحس المشترك، والمعاني الجزئية تختص بالقوة الوهمية، فالمعاني الجزئية مثل حبّ طفل الشاة لأمه أو عداوة الذئب للشاة؛ فإدراك هذه المعاني الجزئية عمل القوة الوهمية.

الحافظة: المعاني الجزئية التي يدركها الوهم تحفظها الحافظة، فعلاقة الحافظة بالوهم علاقة الخيال بالحس المشترك.

المتصرفة: التأليف بين محركات الحس المشترك والوهم؛ أي بين الصور المحسوسة والمعاني الجزئية أو الفصل بينهما هو محل هذه الحاسة، ومحلها البطن الأوسط من الدماغ، ومن طبيعتها الحركة الدائمة المستمرة؛ فلا تتوقف عن عملها قط؛ سواء في حالة النوم، أو في حالة اليقظة. وبناء على هذا لا يكون عملها منظماً.

المتخيلة: ولكن عندما تستخدمها النفس بواسطة الوهم فحينئذ تحذف خصائص المحسوسات الجزئية وتجعلها صالحة لأن يدرك العقل الحقيقة الكلية؛ فعند أدائها هذا العمل يسمّى بالقوة المتخيلة.

المفكرة: لمَّا تستخدمها النفس بواسطة قوة العاقلة فحينئذ تلبس هذه القوة الحقيقة الكلية لباس الصورة الجزئية؛ وهذا ليس موضع الشرح والتوضيح وإقامة الحجة والبرهان.

وذكر أسماء الحواس الباطنية ووظائفها كان ضرورياً ليرتبط الكلام بعضه ببعض،

ويكون نفعه أعمّ.

وقت عدم الشعور للإنسان: من الملحوظ في الحواس- ظاهرة كانت أم باطنة- عندما يأتي أوان عملها لا تكون نتيجة عملها من تعلم واكتساب، بل بقعرتها الطبيعية تنتقل من القوة إلى الفعل.

قال الحكماء: إنّ طفل الإنسان- فور ولادته- لا يستطيع استخدام الحس والإدراك، بل يمضي في أيامه الأولى أوان يبدو فيه أنّ حواس الآخرين تعمل، ولكنها- في الحقيقة- لا تعمل بشيء.

عملية الحواس: أولًا تبدأ القوة اللامسة عملها ثم الباصرة، ثم السامعة، ثم الذائقة، وفي النهاية الشامة. إدراك آلات الحواس الباطنة هي الحواس الظاهرة، ولذا لا تعمل الحواس الباطنة عملها بدون الحواس الظاهرة.

فالمقصود أنّ عملية الإحساس والإدراك تبدأ بالترتيب؛ الواحدة تلو الأخرى، فتبدأ من الظاهر حتى تصل إلى الباطن، ومن الصورة إلى المعنى ومن الجزئيات إلى الكليات؛ فهي تتطلب الوقت والفرصة لا التعليم ولا التعلم.

ISSN: 2321-7928

تدبير التداعيات الاقتصادية والاجتماعية لجائحة كورونا من خلال نوازل فريضة الزكاة (دراسة فقهية تحليلية)

- د. بدر الدين بن أحمد الحميدي[1]

ملخص البحث

المتتبعون للوضع الحالي من مختلف المشارب الثقافية مجمعون على أنّ للجائحة تداعيات اقتصادية واجتماعية؛ وذلك أنه تضرر خلق كثير من ذوي الدخل المحدود من العمّال الذين تحتسب أجرتهم على أساس أيام العمل، وأصحاب الأعمال المؤقتة، وذوي الحرف والمهن الموسمية. فهذه النتائج السلبية كانت نتيجة تقييد حركة تداول الأموال في الأسواق وبطء رواجها بين المؤسسات المالية؛ مما أدّى إلى تعطيل الأعمال والأنشطة المدرة للدخل، وتسريح العمال بأعداد هائلة. ثم إنني أروم من خلال هذا المقال البحث في الأحكام الفقهية التي تجيب عن الإشكالات المالية المستجدات والنوازل الاقتصادية التي نزلت بالناس في زمن كورونا، والتي راعى فيها الفقهاء الظروف الاستثنائية والأوضاع الصعبة التي تمرّ بها الإنسانية، محاولين بذلك تقديم حلول تسهم في التخفيف من حدة جائحة كورونا (كوفيد-19) الاقتصادية والاجتماعية. ولذا؛ تركز البحث في كتب النوازل الفقهية القديمة والحديثة والمعاصرة لاستخراج مكنوناتها حول مدى إسهام الزكاة في تدبير الجائحة اقتصاديًا واجتماعيًا؛ وذلك من خلال عرض أقوال فقهاء المذاهب الفقهية مع بيان أدلتها

[1] أستاذ التعليم العالي مساعد، كلية الشريعة التابعة لجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس، المغرب

واستخلاص القول الراجح منها؛ مع توضيح مدى مسايرته لواقع الناس وملاءمته له في حكم تأجيل وتعجيل إخراج الزكاة ضمانًا لحق المحتاجين والفقراء ومساعدة للطبقة الهشة من المجتمع على تجاوز المحنة الناجمة عن جائحة كورونا المستجد. كل ذلك جاء وفق منهج علمي أكاديمي تمثل في مقدمة، ومبحثين، وخاتمة ضمنتها خلاصات توصّلتْ إليها الورقة البحثية.

الكلمات الدالة: الزكاة، تعجيل، تأخير، تداعيات، كورونا، النوازل الفقهية.

مقدمة

الحمد لله الذي رفع قدر العلم وعظّمه، وصوّر الإنسان وعلّمه، وهدى للتفقه في دينه مَنْ اصطفاه وفهّمه. والصلاة والسلام على مولانا رسول الله الداعي إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، والكاشف بنور رسالته جلابيب الظلمة، والفاتح بهديه مغاليق الغمة.

وبعد؛ فلقد أجمع المتتبعون للوضع الحال من مختلف المشارب الثقافية والمعرفية أنّ الجائحة كانت لها تداعيات وآثار سيئة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي؛ نظرًا لما نجم عن ذلك من ركود في الدورة الاقتصادية سواء على مستوى الإنتاج أو الاستهلاك اللذين يعتبران قطبي الاقتصاد. كل هذا حصل بسبب تقييد حركة الناس تنفيذًا لتعليمات السلطات المختصة التي أدّت إلى تقييد حركة سحب الأموال من المؤسسات المالية ورواجها في الأسواق، مما أدّى إلى بطء تداولها. وكل هذا نتج عنه تعطيل الأعمال والأنشطة المدرة للدخل، وتسريح العمال بأعداد هائلة.

ولهذا، وجب القول بأنه قد تضرر خلق كثير من آثار كورونا، ولا سيما ذوي الدخل المحدود ممن يعمل في القطاع غير المهيكل من العمّال الذين يحصلون على أجرتهم على أساس أيام العمل، وأصحاب الأعمال المؤقتة، وذوي الحرف والمهن

الموسمية، فهل هذه الدواعي والظروف الاستثنائية تعتبر ضرورة شرعية تجيز تأجيل أو تعجيل دفع الزكاة إلى مستحقيها الذين يشكّلون شريحة هامة من أفراد المجتمع والذين تأثروا بالجائحة؟ هذا ما دعا إلى البحث عن الأحكام الفقهية التي تراعي الظروف الاستثنائية والأوضاع الصعبة التي تمرّ بها الإنسانية؛ وذلك بالرجوع إلى الكتب الفقهية القديمة والحديثة والمعاصرة لنستشير رأي أصحابها عن حكم تأجيل وتعجيل إخراج الزكاة ضمانًا لحق المحتاجين والفقراء ومساعدة للطبقة الهشة من المجتمع على تجاوز المحنة الناجمة عن فيروس كورونا المستجد.

1. **أهمية البحث:** تتجلى أهمية الموضوع في كونه يلامس تداعيات توشحت بأبعاد اجتاعية واقتصادية برزت مع الوباء العالمي والتاريخي الفتّاك الذي شغل قوى العالم أجمع. كما تتأكد قيمته العلمية والتشريعية في كونه يوقف الباحثين في العلوم الشرعية على أهمية مؤسسة الفتوى في المجتمع؛ نظرًا لما قدّمه العلماء المفتون فيها من أجوبة للدين على أزمة عالمية؛ وذلك من خلال تدبير شرعي ذي بعد اجتماعي واقتصادي، حيث بينت الفتاوى المدروسة في هذه الورقة والمناقشات العلمية المتعلقة بها أنّ من شأن الالتزام به أنْ يعمر الأرض عمارة شرعية، ويحقّق الكفاية في الإنتاج، والعدل في توزيع الثروة؛ ومن ثم بناء مجتمع ينعم بالاستقرار المالي والأمن الاجتماعي لما فيه من التكافل والتضامن الذي أذكي روح التوادّ والتراحم بين أفراد المجتمع طيلة مراحل الأزمة.

هذا، وإن المعطيات الصادرة عن السلطات الصحية حول العالم لتؤكد استمرار الآثار السلبية للوباء على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لمعظم دول العالم، مما يجعل البحث عن الحلول ذات الآثار الاقتصادية والأبعاد الاجتماعية- ولو كانت جزئية في فعاليتها- أمرًا مؤكدًا وملحًا لتجاوز الظروف الصعبة الناتجة عن وباء كورونا المستجد.

2. **إشكالية البحث:** إنّ قضية تدبير الآثار الاقتصادية والاجتماعية الناجمة عن فيروس كورونا تستوجب التعرض للإشكالات العلمية الآتية: فهل تحدّث الفقهاء عن تدبير آثار النوازل العظيمة المرتبطة بالجوائح والكوارث في المجتمع الإسلامي؟ وكيف أمكن ويمكن للفقه الإسلامي من خلال أحكام الزكاة الاستثنائية ومقاصدها المرعية أنْ يسهم في التخفيف من حدة الآثار الاقتصادية والاجتماعية لجائحة كورونا؟ وهل وفقت الهيئات الإفتائية المعاصرة في مواكبة أزمة كورونا وما ترتب عنها من ضيق وحرج للناس حين أفتت بجواز تعجيل وتأخير الزكاة، من حيث إنه تدبير إلزامي تضامني في المجتمعات الإسلامية؟

3. **أهداف البحث:** يهدف هذا البحث إلى استجلاء الأحكام الفقهية التي توفّر أجوبة مقنعة شافية عن الصعوبات المالية الطارئة بسبب وباء كورونا من خلال دراسة النوازل التي نزلت بالناس في زمن كورونا، وذلك بالنظر في مراعاة الفقهاء للظروف الاستثنائية والأوضاع الصعبة التي تمر بها الإنسانية، محاولًا بذلك اقتراح حلول تسهم في التخفيف من حدة جائحة كورونا الاقتصادية والاجتماعية. كما يرمي إلى إبراز قيمة وأثر مؤسسة الفتوى في العالم الإسلامي؛ من حيث ما قدّمته من مواكبة فعالة للتداعيات الاقتصادية والاجتماعية وغيرها الناتجة عن قضية عالمية خطيرة جدًا، عرفت بالأزمة الصحية العالمية. وهكذا، ظهرت للناس قيمة التوجيهات الشرعية الواردة في النوازل الفقهية المرتبطة بكورونا التي بناها العلماء والفقهاء المعاصرون على نصوص شرعية من الكتاب والسنة ومقاصدها المرعية، بعد تحقيق مناطاتها بمناهج علمية معهودة، مع عدم إغفال الاهتداء بما قرّره فقهاء المذاهب الفقهية السنية المعروفة في قضية التعجيل والتأجيل لفريضة الزكاة، في الوضعين العادي والاستثنائي، وتنزيل الأحكام المناسبة لأوضاع المسلمين في ظل جائحة كورونا.

4. **الدراسات السابقة:** بالنسبة للدراسات السابقة المرتبطة بقضية تعجيل وتأخير إخراج الزكاة، باعتباره تدبيرًا مخففًا لآثار الجائحة الاقتصادية والاجتماعية، فالذي وقفت عليه في هذا الباب هو جملة من الأعمال، منها ورقة بحثية مختصرة قُدِّمَتْ لندوة البركة الأربعين للاقتصاد الإسلامي: (وضع الجوائح والقوة القاهرة) بعنوان "إخراج الزكاة بين التأجيل والتعجيل في ظل الظروف الطارئة والجوائح القاهرة"، والتي أعدّها الأستاذ محمد المأمون القاسمي الحسني. هذه المداخلة كانت عبارة عن تصور عام للموضوع دون التعمق في استبطان الأحكام الفقهية التفصيلية، بالإضافة إلى اقتصارها على بعض الفتاوى الفقهية التي كانت قد صدرت آنذاك. وفي الندوة نفسها، شارك إلياس دردور بورقة بحثية عنونها بـ"تعجيل وتأجيل الزكاة عن الحول" عرض فيها موقف الفقهاء من التعجيل والتأجيل مدعومًا بأدلة شرعية دون مناقشة وترجيح. ومنها "حكم إخفاء الزكاة وتأخيرها" التي نشرها سلمان نصر الداية في مجلة جامعة الأقصى، المجلد الثاني عشر، العدد الثاني، يونيو 2008م، غير أنه كما هو ظاهر من عنوانها تطرقت لجانب واحد مما عرضت له في هذا البحث، وهو حكم تأخير الزكاة، مع عدم ربطها بكورونا المستجد.

ومن هذه الأعمال: مقال نشر في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الكويت ضمن البحوث والدراسات التي شكلت مواد علمية لعدد خاص بجائحة كورونا، وما ارتبط بها من نوازل وأحكام شرعية، والذي عنون بـ"أثر الضرورة والحاجة في النوازل الفقهية في تأخير إخراج الزكاة في ظل وباء كورونا (كوفيد_19) أنموذجًا: دراسة فقهية".[1] هذا البحث ركزت فيه الباحثة على

[1] انظر: أثر الضرورة والحاجة في النوازل الفقهية في تأخير إخراج الزكاة في ظل وباء كورونا (COVID_19) أنموذجًا: دراسة فقهية ومقاصدية، لسارة متلع القحطاني، بحث منشور بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الكويت، مجلة فصلية علمية محكمة تصدر عن مجلس النشر، عدد خاص بالأحكام الشرعية المرتبطة بجائحة كورونا، 20 مايو 2020م، ص 349-371.

جانب واحد من النازلة، وهو حكم تأخير إخراج الزكاة بسبب ظروف الوباء، مبينة حكمها الفقهي في ضوء المقاصد الشرعية، ومبرزة مراتب الضرورة الشرعية التي بنى عليها الفقهاء المفتون في النازلة القول بجواز هذا التأخير للناس في إخراج هذا الحق. وبالرغم من أهمية هذه الدراسة في بابها، فإن الملاحظ عليها أنها اشتملت على قضايا استطرادية كثيرة ذات صبغة نظرية؛ بحيث تضمنت مصطلحات علمية متعددة تتبعتها الباحثة بالتعريف والبحث، مع أنّ المقام كان يقضي بتجنب ذلك. هذا، ولقد نشرت بعض المقالات المختصرة في بعض المواقع التي لا تخضع موادها للتحكيم العلمي الدقيق من قبل المختصين، مع ضعفها على مستوى التحليل والاستشهاد بالنصوص الشرعية، وعدم تطرقها لآراء الفقهاء وبيان الراجح من أقوالهم، والتنصيص على تحقيق مناطها وتنزيلها على واقع الناس، وقياس درجة المساهمة في الحلول لما يعيشه الناس في أزمة كورونا.

بعد تدقيق النظر في الأوراق البحثية والمقالات المتقدمة، تبين أنّ بعضها اقتصر على جانب واحد، وهو المتعلق بتأخير إخراج الزكاة، كما هو الحال بالنسبة لبحث "أثر الضرورة والحاجة في النوازل الفقهية في[1] تأخير إخراج الزكاة في ظل وباء كورونا (كوفيد_19) أنموذجًا: دراسة فقهية ومقاصدية". فيما بعضها الآخر بالرغم من الاهتمام بمسألتي التأجيل والتعجيل؛ لكنها لم تتوسع بالصورة المطلوبة في بيان آراء أصحاب المذاهب الفقهية، وما بنيت عليه من أدلة شرعية، مع بيان الراجح منها، والإشارة إلى مناط حكم التعجيل والتأجيل؛ بل عرضتها بصورة موجزة، دون التعمق في التحليل والاستنتاج؛ وإنما هي عبارة عن نقول فقهية، بالإضافة إلى عدم ربطها بنوازل كورونا. وهذا ما حاولت تجنبه في بحثي هذا؛ بحيث بحثت المسألتين معًا، مع التركيز على إبراز آراء

[1] عنوان المقالة الوارد في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الكويت بحذف كلمة "في" والصواب إثباتها؛ ليستقيم الكلام من حيث اللغة.

الفقهاء من المذاهب الأربعة مقرونة بأدلتها الشرعية، مذيلًا ذلك ببيان الراجح الذي تجب به الفتوى في الدين؛ وذلك بعد تحليل ومناقشة أدلة الفريقين، دون إغفال بيان سبب الخلاف والإشارة إلى البعد المقاصدي الذي بني عليه الحكم الفقهي للنازلتين، وبهذا تجنبت القصور الذي وقع في البحوث السالفة الذكر.

وتبعًا لذلك، فإن هذا المقال سيكشف بمنهج علمي الحكم الشرعي للمسألة، منطلقًا من النوازل الفقهية المستجدة في الموضوع، الصادرة عن الهيئات الإفتائية الشرعية، مع تأصيل أحكامها الواردة فيها من الكتاب والسنة ومصادر الفقه الإسلامي الموثوق بها، والتركيز على آراء فقهاء المذاهب السنية الأربعة، والاسترشاد بالمقاصد الشرعية؛ لاستخلاص ما يمكن أن يشكّل تدبيرًا اقتصاديًا بروح اجتماعية؛ لتجاوز آثار أزمة الفيروس التاجي الفتاك التي خيمت بظلالها على قطاعات حيوية عدة، منها ما ارتبط بالحالة الاقتصادية والاجتماعية التي أهمت حياة الناس في العالم.

هذا، وإن الذي يضيفه هذا البحث هو الانطلاق والاتكاز على النوازل الفقهية الصادرة عن الهيئات الإفتائية؛ إذ من أهدافه الوقوف على الجهود التي بذلتها المؤسسة الإفتائية في مواكبة الجائحة ومواجهة آثارها الاجتماعية والاقتصادة، بالإضافة إلى استجلاء الصناعة الإفتائية والمناهج العلمية التي قامت عليها، والمتمثلة في الربط المحكم بين النصوص الشرعية والنوازل الواقعية، وإحياء فقه الأوليات، وإعمال فقه المقاصد والمآلات. وتزداد أهمية هذه الإضافة العلمية حين يتعلق الأمر بدراسة وتأصيل نوازل فقهية اصطبغت بصبغة دولية، الأمر الذي يثبت عالمة الشريعة، وصلاحيتها للتطبيق في كل زمان ومكان، وكذا إثبات ما قامت عليه الشريعة من أصول عظيمة تضمن لها البقاء، والتي منها أصل التيسير ورفع الحرج عن الناس، الذي شكّل عنصرًا بارزًا في فتاوى ونوازل وباء كورونا المستجد.

5. **خطة البحث وطريقة عرضه:** للإجابة عن الأسئلة المحورية المثارة في دراسة الموضوع، فقد قاربت هذا الموضوع المهم جدًا من خلال منهج علمي تمثّل في مقدمة، ومبحثين، وخاتمة، مضمنة خلاصات وتوصيات. وهكذا، فقد تطرقت في المقدمة إلى أهمية الموضوع المدروس، وما قدّمته من إضافات علمية لحقل البحث العلمي الشرعي بالنظر إلى الدراسات السابقة، كما بيّنت الإشكال العلمي الذي يجيب عنه البحث، مع إيضاح أهدافه ومراميه، دون إغفال تناول خطة البحث وطريقة عرضه على القارئ، إلى جانب توضيح منهجية الدراسة وكيفية عرضها.

ثم نقلت الحديث إلى المبحث الأول الذي حصرت الكلام فيه على بيان حكم تأخير الزكاة بسبب السحب النقدي المقيد من المؤسسات البنكية، مع بيان الحكم الفقهي؛ من حيث إنه اجتهاد متجدد دون إغفال أثر هذا الحكم الفقهي على الدورة الاقتصادية والدفع بها نحو التعافي جزئيًا. بينما في المبحث الثاني، تناولت موقف الفقهاء والنوازليين من حكم تعجيل الزكاة لمساعدة الفقراء والعاطلين عن العمل، مع التركيز على بيان أثر هذا الحكم على الدفع بعجلة الاقتصاد إلى الأمام، ومدى إسهام قضايا الزكاة في تدبير تداعيات جائحة كورونا المستجد التي يعاني منها العالم في الوقت الراهن. وفي ختام هذا البحث، أشرت إلى جملة من الاستنتاجات والتوصيات التي خلصت إليها.

6. **منهجية البحث:** لقد اعتمدت في هذه الورقة البحثية على المنهج الوصفي، الذي تم استدعاؤه لتقديم وصف موجز لتداعيات جائحة كورونا الاقتصادية والاجتماعية التي ألمت بالعالم منذ أزيد من سنتين، وخاصة عندما قررت المؤسسات البنكية تحديد سقف السحب المالي، مما أوقع الناس في أزمة بسبب قلة السيولة المالية، كما سلكت المنهج التحليلي في مستوييه التفسيري والاستنباطي؛ وذلك لتحليل آراء الفقهاء بعرضها على الأدلة الشرعية والمقاصد

المرعية، والترجيح فيما بينها استنادًا إلى قوة الأدلة المعروضة، وما أفادته من حلول للأزمة. بالإضافة إلى الالتزام بتخريج الآيات القرآنية بذكر السورة ورقم الآية فيها في المتن، مع ضبطها بالشكل التام ووضعها بين قوسين مزهين، وكذا الأحاديث الواردة في البحث بعزوها إلى مظانها المعروفة؛ وذلك بالإشارة إلى الكتاب، والباب، ورقم الحديث إن وجد، وذكر طبعات الكتب عند أول ورود، مع تمييز الحديث النبوي الشريف برسم ألفاظه بالخط البارز. هذا، ولم أغفل في البحث الالتزام بتوثيق الأقوال الفقهية بنسبتها إلى قائليها ووضعها بين علامتي تنصيص، مع الإشارة إلى المصدر التي وردت فيه، كما نسبت الفتاوى الفقهية إلى أصحابها ووضعها بين علامتي تنصيص تمييزًا لها عن غيرها، مع ذكر المصدر أو المرجع الذي وردت فيه بالمنهج العلمي المعهود.

وسيرًا على ما عهد بين الباحثين، فإنني اكتفيت بذكر عنوان المصدر مختصرًا مع إيراد اسم مؤلفه والجزء والصفحة إذا ذكر مرارًا، ثم إذا أوردته في الحاشية الموالية، اكتفيت بقولي: "المصدر السابق، أو نفسه"، مع الإشارة إلى الجزء والصفحة منه. وفي ختام الدراسة، وضعت لائحة تضم المصادر والمراجع المعتمدة في تحرير قضايا هذا البحث مرتبة أبجديًا، ما عدا الكتاب العزيز فإني صدرت به في قائمة المصادر والمراجع. وبعد استيفاء الحديث عن عناصر المقدمة، فإنني أنتقل إلى الكلام عن حكم تأخير الزكاة بسبب الوباء، وهو موضوع المبحث الأول من هذا البحث.

المبحث الأول: حكم تأخير الزكاة لتحديد سقف السحب النقدي من البنوك بسبب الوباء

في هذا المبحث، عرضت للنازلة التي طرحت بشأن حكم تأخير إخراج الزكاة وجواب الفقهاء المعاصرين عن ذلك، ثم انتقلت إلى تحليل النازلة تحليلًا فقهيًا؛ وذلك بإيراد أقوال فقهاء المذاهب الفقهية مقرونة بالأدلة الشرعية التي استندت لها،

بالإضافة إلى ختم المبحث بإبراز أثر هذا التدبير الشرعي المالي المرتبط بزكاة المال على التخفيف من حدة الجائحة العالمية، وفما يلي أعرض المطالب مجتمعة على جهة الإجمال، ثم أعود لعرضها مفصلة.

المطلب الأول: حكم تأخير الزكاة بسبب وباء كورونا

المطلب الثاني: تحليل النازلة في ضوء المذاهب الفقهية

المطلب الثالث: ترجيح وتوجيه وبيان لأثر النازلة على تجاوز آثار الأزمة

وبعد عرض المطالب مجملة ليحصل التصور العام لدى القراء الكرام، أعود لأوردها مفصلة لتكتمل وتنجلي الصورة لديهم على جهة التفصيل؛ وذلك كالآتي:

المطلب الأول: حكم تأخير الزكاة بسبب وباء كورونا

أولًا: نص النازلة: لقد طرح سؤال على مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا الشمالية يتضمن نازلة مستجدة تتعلق بحكم تأخير إخراج الزكاة؛ نظرًا للظروف والأوضاع التي فرضتها جائحة كورونا، وفيما يلي نص النازلة. "في ظل الظروف الاقتصادية الصعبة التي يعيشها العديد من الدول نتيجة انتشار وباء كورونا، وتقييد حركة سحب الأموال من البنوك؛ خوفًا من تأثير حركة السحب المستمرة على انهيار الاقتصاد بالكلية، مما ألجأ كثيرًا من البنوك إلى تحديد الحد الأعلى للمبلغ المسموح بسحبه، ووجد كثير من رجال الأعمال صعوبة في إخراج الزكاة في وقتها، فهل يجوز التأخير بعد الحول"؟

ثانيًا: جواب النازلة وحكمها: وجواب النازلة جاء كالآتي:[1] من المعلوم أنّ الله قد ربط العبادات بأوقات محددة لا يجوز تأخير أدائها عن وقتها، ووقت الزكاة الواجب إخراجها فيه هو: حلول الحول؛ ولكن في ظل الظروف الراهنة، فلا

[1] نوازل الأوبئة، جمع وإعداد وترتيب محمد علي بلاعو، منشورات مؤسسة ابن تاشفين للدراسات والأبحاث، ط1، 2020م، ص 60-61.

مانع من تأخير الزكاة عن وقتها إذا لم يكن عند الإنسان ما يزيد عن تكاليف معيشته ومن يعول، وإذا توفر للإنسان مبلغ بعد اقتطاع نفقته ونفقة مَنْ يعول، فالواجب عليه المبادرة بإخراج ما تحت يده، ويؤجل الباقي إلى حين انتهاء الأزمة أو توفر السيولة البنكية؛ فإن "الميسور لا يسقط بالمعسور"،[1] وبهذا أفتت اللجنة الدائمة للإفتاء بمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا في فتوى تحت رقم: 87739، والتي جاء فيها: "...وأما مَنْ كان ما معه من المال النقدي لو أخرج منه ما عليه من الزكاة وقع في الحرج، ولم يبق بعده ما يكفي للإنفاق على نفسه وأسرته بالمعروف، فله رخصة في تأخير الزكاة إلى حين ميسرته؛ أخذًا بقول الإمام أبي حنيفة[2]- رحمه الله تعالى- بأن وجوب الزكاة على التراخي، لا على الفور...".[3]

ثالثًا: التعليق على النازلة: هذه الفتوى وازنت بين أمرين هامين في الشريعة الإسلامية، وهما رفع الحرج عن المزكّي الذي قام مانع من إخراجه لزكاة أمواله؛ نظرًا للظروف القاهرة المتمثلة في قلة السيولة المالية بسبب الوباء، ولذا أجازت اللجنة الإفتائية تأخير إخراج الزكاة إلى حين توافر المبلغ الواجب إخراجه لدى المزكي. والأدلة على اعتبار رفع الحرج في بناء الأحكام الشرعية بلغت مبلغ القطع

[1] المنثور في القواعد، لأبي عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، 122/1؛ القواعد لأبي الفرج ابن رجب الحنبلي، دار الفكر، د. ت، ص 10.

[2] يظهر أنّ اللجنة الدائمة للإفتاء بمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا اعتمدوا القول الضعيف في المذهب الحنفي في إصدار هذه الفتوى؛ نظرًا للظروف القاهرة التي يعيشها الناس في العالم بسبب وباء كورونا العالمي؛ وذلك أنّ القول المفتى به في المذهب الحنفي هو أن الزكاة واجبة على الفور، وفاقًا لبقية المذاهب الفقهية. انظر: منية الساجد بشرح بداية العابد وكفاية الزاهد، لعبد الرحمن بن عبد الله البعلي الحنبلي، تحقيق: د. أنس بن عادل اليتامى، د. عبد العزيز بن عدنان العيدان، دار الركائز للنشر والتوزيع، الكويت، ط1، 1438هـ/ 2017 م، 326/1.

[3] فتوى 87739 بعنوان: حكم تعجيل أو تأخير إخراج الزكاة بسبب الظروف الاقتصادية المصاحبة لوباء كورونا، الصادرة عن فقهاء الشريعة بأمريكا، بتاريخ: (26 مارس، 2020) والمنشورة على الرابط الآتي: https://www.amjaonline.org/fatwa/ar/87739/%D8%AD%D9%83%D9%85.

كما نص على ذلك الإمام الشاطبي في قوله: "إنّ الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع".[1] والأمر الثاني هو حفظ حق السائل والمحروم في مال الأغنياء الذي أحاطه الله تعالى في كتابه العزيز بضمانات كثيرة وقوية تجعل المسلم يعتقد أنّ التفريط في هذا الحق هو تفريط في الدين كله، فقد قرن تعالى بين عبادتي الصلاة والزكاة في أكثر من ثلاثين آية من كتابه العزيز؛ ولذا جاء التحذير في السنة النبوية من التفريق بينهما.

المطلب الثاني: تحليل النازلة في ضوء المذاهب الفقهية

أولًا: عرض أقوال الفقهاء: هذه الفتوى الاستثنائية- كما صرح المجمع بذلك- بنيت على مذهب الإمام أبي حنيفة[2] الذي يرى أنّ الزكاة واجبة على التراخي؛ لا على الفور، فهي واجبة عنده وجوبًا موسعًا.[3] وعلى هذا القول عامة مشايخ الأحناف؛ وذلك أنّ افتراض الزكاة عمري، أي على التراخي ففي أَيّ وقت أَدّى يكون مؤديًا للواجب، ويتعين ذلك الوقت للوجوب، وإذا لم يؤَد إلى آخر عمره يتضيق عليه الوجوب حتى لو لم يؤد يأثم إذا مات.[4] وفي مقابل رأي الأحناف، ذهب جمهور العلماء

[1] الموافقات في أصول الشريعة، للإمام أبي إسحاق الشاطبي، تحقيق: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط1، 1417هـ/ 1997م، 520/1

[2] بل هو رأي أكثر الحنفية وهو قول عند الحنابلة. جاء في بدائع الصنائع للكاساني: "وقال عامة مشايخنا إنها على سبيل التراخي..." انظر: بدائع الصنائع، للإمام الكاساني الحنفي، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، 1424هـ/ 2003م، ط2، 3/2، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف للمرداوي، دار إحياء التراث العربي، ط2، د.ت. 139/7.

[3] توضيح الأحكام من بلوغ المَرام، لأبي عبد الرحمن بن إبراهيم البسام التميمي، مكتبة الأسدي بمكة، ط5، 1423هـ/ 2003م، 333/3.

[4] تحفة الفقهاء، لمحمد بن أحمد علاء الدين السمرقندي، دار الكتب العلمية، ط1، 1405هـ/1984م، 263/1، وبدائع الصنائع، الكاساني، للإمام الكاساني، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، ط2، 1424هـ/2003م، 377/3، والمغني لابن قدامة، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي وعبد الفتاح الحلو، دار عالم الكتب، بيروت، 1417هـ/1997م، 684/2.

من المالكية،[1] والشافعية،[2] والحنابلة،[3] وهو المُفتى به عند الحنفية، إلى عدم جواز تأخيرها بعد حلول حولها.[4] وعليه، فمتى وجبت الزكاة على الشخص، وجبت المبادرة بإخراجها على الفور مع القدرة على ذلك وعدم الخشية من حصول الضرر جراء ذلك؛ لما في ذلك من الإسراع بتخليص الذمة مما عليها من دين، ولمسارعة المزكي عوائق الزمن والآفات التي قد تحدث له ولأملاكه.[5]

ثانيًا: ثمرة الخلاف: وتظهر ثمرة الخلاف في أنّ جمهور الفقهاء يرون أنّ الذي وجبت عليه الزكاة وأخرها مع القدرة على إخراجها في وقتها، وتلف المال الذي وجبت فيه قبل إمكان الإخراج وبعد حلول الحول،[6] فإنه يضمنها، أي تتعلق بذمته ولا تسقط

[1] المعونة على مذهب عالم المدينة "الإمام مالك بن أنس"، للقاضي الوهاب البغدادي المالكي، تحقيق: عبد الحق حميش، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، د.ت.، 367/1؛ الكافي في فقه المدينة، لابن عبد البر، دار الكتب العلمية، 1407هـ، ص 99-100؛ التفريع لابن الجلاب البصري، تحقيق: حسين بن سالم الدهماني، دار الغرب الإسلامي، 275/1.

[2] المجموع شرح المهذب للشيرازي، للإمام النووي، تحقيق: محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد، جدة، د.ت.، 305/5، ومغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج، لشمس الدين الشربيني، دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ/ 1995م، 95/2.

[3] كشاف القناع عن متن الإقناع، للبهوتي، دار عالم الكتب، بيروت، 1403هـ/1983م، 255/2، المغني لابن قدامة، مرجع سابق، 510/2، ومنية الساجد بِشرح بداية العابد، لعبد الرحمن بن عبد الله البعلي الحنبلي، تحقيق: د. أنس بن عادل اليتامى، د. عبد العزيز بن عدنان العيدان، دار الركائز للنشر والتوزيع، الكويت، ط1، 1438هـ/ 2017م، 326/1، والدلائل والإشارات على أخصر المختصرات لمحمد بن بدر الدين البلباني الحنبلي، شرح عبد العزيز بن عدنان العيدان وأنس بن عادل اليتامى، دار الركائز للنشر والتوزيع، الكويت، ط1، 1439هـ/ 2018م، 507/1.

[4] منية الساجد بشرح بداية العابد وكفاية الزاهد، مرجع سابق، 333/3.

[5] الموسوعة الفقهية، لمجموعة من المؤلفين، 295/2؛ عامل الزمن في العبادات والمعاملات، لمحمد الطاهر الرزقي، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1420هـ/ 2000م، 129/1.

[6] الهداية على مذهب الإمام أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، لمحفوظ بن أحمد بن الحسن أبي الخطاب الكلوذاني، تحقيق: عبد اللطيف هميم وماهر ياسين الفحل، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، ط1، 1425هـ/ 2004م، ص 144.

عنه، بخلاف أبي حنيفة الذي يرى أنه لا يضمنها؛[1] لأنها من الواجب الموسع. ومن هذه الثمرات أنّ المؤخر لإخراجها مع القدرة على ذلك يعتبر عاصياً[2] مستحقًا للعقاب بعدم الامتثال بالمبادرة إلى إخراجها، والمبادرة بإخراجها مبادرة إلى الطاعة ومسارعة إلى أدائها،[3] قال تعالى: "فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ". (سورة البقرة: 148)

ثالثًا: أدلة من قال بوجوبها على الفور: واستدل القائلون بوجوب إخراجها على الفور عند الإمكان بقوله تعالى: "وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ" (سورة الأنعام: 141). قال في المغني:[4] "ولنا أنّ الأمر المطلق يقتضي الفور، على ما يذكر في موضعه".[5] كما استدلوا بحديث عقبة بن الحارث رضي الله، قال: صلّى بنا رسول الله عليه وسلّم العصر، ثم دخل البيت، فلم يلبث أن خرج، فقيل له، فقال: "كنت خلّفتُ في البيت تبرا من الصدقة، فكهرت أن أبيّتَه، فقسمتُه".[6] وعللوا رأيهم هذا بكون حاجة الفقير ناجزة، والتأخير مخل بالمقصود، وربما أدى إلى الفوات،[7] ولأنّ وجوبها معلق بشرط وهو وجود النصاب والحول، فإذا وجد الشرط، تعلق الحكم به، كالطلاق المعلق بشرط، وكالحج عند وجود الزاد والراحلة.[8]

---

[1] مختصر أحمد بن حمدان أبي الحسين القدوري في الفقه الحنفي، تحقيق: كامل محمد محمد عويضة، دار الكتب العلمية، ط1، 1418هـ/ 1997م، ص 146.

[2] المعونة على مذهب عالم المدينة، للقاضي البغدادي، مرجع سابق، 367/1.

[3] توضيح الأحكام من بلوغ المَرام، مرجع سابق، 333/3.

[4] المغني، لابن قدامة، مرجع سابق، 510/2.

[5] روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لابن قدامة المقدسي، مؤسسة الريّان، ط2، 1423هـ/2002م، 571/1.

[6] أخرجه الإمام البخاري، 519/2، كتاب الزكاة، باب: من أحب تعجيل الصدقة من يومها، رقم الحديث: 1363، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دار اليمامة، دمشق، ط5، 1414هـ/ 1993م.

[7] الدلائل والإشارات على أخصر المختصرات، لعبد العزيز بن عدنان العيدان ومن معه، مرجع سابق، 507/1.

[8] المسائل الفقهية من كتاب الروايتين والوجهين، للقاضي أبي يعلى المعروف بابن الفراء، تحقيق: د. عبد الكريم بن محمد اللاحم، مكتبة المعارف، الرياض، ط1، 1405هـ/ 1985م، 42/2.

وسبب الخلاف بين الفريقين يرجع إلى اختلافهم في قاعدة أصولية، وهي: "هل الأمر المطلق يقتضي الفور أم لا"؟ ذهب جمهور الفقهاء إلى القول بأنه يقتضي الفورية؛ ولذا رأوا عدم جواز التأخير إلا لعذر، فيما ذهب جمهور الأحناف إلى القول بعدم الفورية؛ ومن ثم أجازوا تأخير إخراج الزكاة؛ لما في ذلك من السعة.

وأما إذا كان هناك عذر، وهو موضوع النازلة كما هو واضح من سياقاتها الخارجية والداخلية، وقام مانع من إخراجها في الوقت المقرر لها، فيجوز تأخير إخراجها إلى حين زوال العذر بإجماع الفقهاء.[1] ومن الأعذار التي ذكرها الشافعية والحنابلة أن يكون المال غائبًا، فيُمهَل إلى مضيّ زمن يمكنه فيه إحضاره؛ بل قالوا يرخص له ذلك وإن أمكنه الإخراج من مال غيره؛ لأنّ الأصل الإخراج من المال الذي وجبت فيه.[2] ومما ذكره الحنابلة أنْ يؤخرها لغيبة المستحق، أو أن يخشى على نفسه الحاجة والفقر بدفعها لمستحقيها؛ لقلة السيولة المسموح بها في ظل الظروف الحالية بسبب كورونا، فيجوز تأخيرها في هذه الحالة إلى حين زوال العذر والعسر.

وعليه، فإن الوضع الذي تعيشه المؤسسات المالية حول العالم من قلة السيولة المالية تعتبر ظرفًا قاهرًا لا يستطيع معه من وجبت عليه الزكاة أن يتمكن من إخراجها، وهو شيءٌ يقهره ويمنعه من المبادرة بها، فحينئذ له أن يتأخر إلى أن يتمكن، والأصل في ذلك أنّ الله عَزَّوَجَلَّ كلّف العباد بما في وسعهم، ولم يكلِّفهم بما هو خارج عن وسعهم، ومن هنا

[1] المغني لابن قدامة، مرجع سابق، 289/2؛ شرح فتح القدير على الهداية، لا بن الهمام، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، ط1، 1424هـ/ 2003م، 517/1. غير أنّ السادة المالكية فرّقوا بين الحاضر والمسافر، فرخصوا للمسافر في التأخير إن دعت الضرورة والحاجة إلى صرف ما معه في نفقته، وأما الحاضر، فيجب إخراج ما حضر من ماله وما غاب دون تأخير؛ ولو دعت الضرورة لصرف ما حضر في شؤونه. انظر: الشرح الكبير للإمام الدردير على مختصر خليل ومعه حاشة الدسوقي، دار الفكر، بيروت، د.ت.، 501/1.

[2] الدلائل والإشارات على أخصر المختصرات، مرجع سابق، 507/1.

قعّد العلماء القاعدة الآتية: (التكليف شرطه الإمكان)،[1] وهذه قاعدة مستنبطة من قوله تعالى: "لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ" (سورة البقرة: 286).

المطلب الثالث: ترجيح وتوجيه وبيان لأثر النازلة على تجاوز تداعيات الأزمة

الذي يظهر من نصوص الفتاوى المتعلقة بالنازلة المذكورة أنها جنحت إلى ترجيح قول الجمهور في الحالة العادة، وأما في حالة الضرورة، فإن المذاهب الفقهية مجمعة على القول بجواز التأخير، وهو ما سارت إليه المجامع والهيئات الإفتائية المعاصرة التي أجازت لما يعيشه العالم من ظروف استثنائية. هذا، وإن القول بجواز تأخير إخراج الزكاة فيه من رفع الحرج ودفع الضرر على الناس الذي جاءت الشريعة الإسلامية لترسيخه وتثبيته في سلوك المسلمين، قال تعالى: "وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ" (سورة الحج: 78). و"الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع"،[2] كما أنه يعدّ من الأصول التي بنت عليها الشريعة الإسلامية رفع الحرج عن المكلفين كما نصّ على ذلك الإمام الشاطبي.[3] ورفع الحرج من أعظم مقاصد التشريع والنعم التي أنعم الله بها تعالى على عباده، قال الإمام ابن العربي: "ولو ذهبت إلى تعديد نعم الله في رفع الحرج لطال المرام."[4]

---

[1] هذه مسألة ترجع إلى حكم التكليف بما لايطاق، وهي مسألة اختلفت فيها طوائف المسلمين من الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة وغيرهم بناء على اختلافهم في مفهوم الاستطاعة والتحسين والتقبيح العقليين. انظر: المستصفى من علم الأصول، للغزالي، تحقيق: أحمد زكي حماد، طبعة مشتركة بين سيدار العالمية والميامين للنشر والتوزيع، ط1، د.ت.، 98/1، وشرح السيد الشريف الجرجاني على المواقف، للعضد الإيجي، مع حاشية عبد الحكيم السيالكوتي وحسن جلبي، دار الطباعة العامرة، د.ت.، 160/1، والمطالب العالية من العلم الإلهي، للإمام فخر الدين الرازي، تحقيق: أحمد حجازي السفا، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1407هـ/ 1987م، 267/9-271، ومحصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين، للإمام فخر الدين الرازي، المطبعة الحسنية المصرية، ط1، د.ت.، ص 297 و298.

[2] الموافقات في أصول الشريعة، للشاطبي، مرجع سابق، 219/1.

[3] المرجع نفسه، (192/3.

[4] أحكام القرآن، للإمام أبي بكر بن العربي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، 1424هـ/ 2003م، 309/3.

ولذلك، فإن الظاهر أنّ توجيه الفتوى المتعلقة بتأخير الزكاة يمكن حملها على جميع المذاهب الفقهية التي ذهبت إلى القول بإمكانية التأخير عند وجود العذر القاهر كما هو موضوع النازلة المعروضة على مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا الشمالية، بدل أنْ تحمل على قول أبي حنيفة الذي يجيز التأخير مطلقًا، حصل مانع أم لا؛ لأنّ المذاهب أجمعت على الجواز في حال الضرورة. ولعل الأنسب في هذه الظروف حملها على المذاهب الفقهية كلها؛ لتقويتها وإعطائها مزيدا من المصداقية، وجعلها مقبولة على أوسع نطاق.

ثم إنّ هذه الفتوى تضمنت تدبيرًا هامًا يهدف إلى التخفيف عن المسلمين في أداء واجباتهم الدينية في ظل أزمة جائحة كورونا المستجد؛ حتى لا يشعروا بالتفريط في حقوق الله. كما أنها من جهة ثانية، تضمنت ما يضمن حقوق المحتاجين والضعفاء من المسلمين؛ لأنّ الزكاة حق واجب لهم يبقى في ذمة الأغنياء إلى أن يؤدوه إلى مستحقيه؛ تحقيقًا للعدالة الاجتماعية ونشرًا للتكافل والتضامن بين المسلمين بمختلف شرائحهم وطبقاتهم الاجتماعية من الأغنياء والفقراء. والقول بالتأخير وإن كان الفقراء والمحتاجون يتضررون منه بمنعهم من تسلم حقهم في وقته، إلا أن فيه من المصالح والفوائد ما لا يخفى على كل ذي بصيرة، من ذلك أن يؤخرها ليعطيها لمن حاجته أشد من الفقراء.[1] ولا شك أنّ الوباء سيكشف عن أشخاص اشتدت حاتهم وعظمت فاقتهم؛ جراء التوقف عن العمل أو قلة ساعاته الذي كان من أبرز تداعيات الجائحة بصورة فورية. فإذا تريث بالزكاة، فإن الأزمة ستسفر عن أوضاع وأحوال لأشخاص يكونون في أمس الحاجة إلى مواساتهم والتضامن معهم بدفع الزكاة إليهم؛ لأنهم أحق وأولى بها من غيرهم.

المبحث الثاني: حكم تعجيل الزكاة لمساعدة المحتاجين بسبب الوباء

وفي هذا المبحث، عرضت للنازلة التي طرحت بشأن حكم تعجيل إخراج الزكاة ورد الفقهاء عن ذلك، ثم انتقلت إلى تحليل النازلة تحليلًا فقهيًا، موردًا آراء فقهاء المذاهب

[1] الدلائل والإشارات على أخصر المختصرات، مرجع سابق، 507/1.

الفقهية في ضوء الأدلة الشرعية التي قامت عليها، بالإضافة إلى ختم المبحث بإبراز مدى إسهام تعجيل إخراج الزكاة باعتباره تدبيراً شرعيًا ماليًا، متعلقًا بزكاة المال في التخفيف من حدة الجائحة العالمية، وفيما يأتي عرض مجمل لمطالب هذا المبحث، وهي:

المطلب الأول: حكم تعجيل الزكاة في الظروف الاستثنائية

المطلب الثاني: تحليل النازلة في ضوء المذاهب الفقهية

المطلب الثالث: سبب الخلاف وبيان الراجح من القولين وبيان أثره في الجائحة

بعد عرض هذه المطالب المكونة للمبحث الثاني بصورة مجملة، ننتقل إلى عرضها تباعًا على جهة التفصيل؛ وذلك كالآتي:

المطلب الأول: حكم تعجيل الزكاة في الظروف الاستثنائية

أولًا: النازلة وجوابها: من الفتاوى التي ذهب فيها أصحابها إلى القول بجواز تعجيل الزكاة في ظل الظروف الاستثنائية، التي فرضتها جائحة كورونا ما صدر عن مجمع الفقه الإسلامي الدولي التابع لمنظمة التعاون الإسلامي من توصيات، حيث جاء في التوصية الثانية عشرة منها "...أما تعجيل دفع الزكاة عن عام أو أكثر فيجوز وبخاصة في مثل هذه الظروف التي يحث فيها على التبرع".[1] وفي السياق ذاته، صدرت فتوى للجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء المنبثقة عن هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية تحت رقم: (10671) في موضوع "تعجيل الزكاة ودفعها كرواتب شهرية"، وكان الجواب أنه "لا بأس بإخراج الزكاة قبل حلول الحول بسنة أو سنتين إذا اقتضت المصلحة ذلك، وإعطاؤها الفقراء المستحقين شهريًّا".[2]

[1] انظر: توصيات الندوة الطبية الثانية المنعقدة عبر تقنية مؤتمرات الفيديو يوم 16 أبريل 2020، تحت عنوان "فيروس كورونا المستجد (كوفيد ـ 19) وما يتعلق به من معالجات طبية وأحكام شرعية" المنشورة من قبل "مجمع الفقه الإسلامي الدولي التابع لمنظمة التعاون الإسلامي بتاريخ 04/20/ 2020 على الرابط الآتي: https://iifa-aifi.org/ar/5254.html

[2] كتاب فتاوى اللجنة الدائمة، للجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، جمع وترتيب: أحمد بن عبد الرزاق الدويش، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الإدارة العامة للطبع، الرياض، 422/9

كما ذهبت إلى تبني القول بجواز التعجيل هيئة كبار علماء الأزهر في البند السادس من بيانها الثاني، والذي جاء فيه أنّ "الإسلام يؤيد مبدأ التكافل الاجتماعي بكل صوره وأشكاله، وإذا كان يؤيده في الأوقات العادية، فإنه يفرضه فرضًا في أوقات الأزمات والجوائح والطوارىء والظروف الحرجة التي يكون الناس فيها أحوج إلى التعاون والتكافل حتى يصلوا إلى بر الأمان...ثم نصت الهيئة على أن "مذهب الجمهور أنه يجوز تعجيل الزَّكاة وإخراجها مقدَّمًا على موعد استحقاقها بسَنَةٍ أو سنتين، وهو ما تمس الحاجة إلى الفتوى به الآن، ومما يدل على جواز ذلك ما رواه أبو داود وغيره[1] من استئذان العباس بن عبدالمطلب للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في تعجيل صدقته- أي إخراج زكاته قبل موعدها- فأذن له". وفي السياق ذاته، أصدرت دار الإفتاء المصرية فتوى رقم: 15317 متعلقة بتعجيل إخراج الزكاة بسبب وباء كورونا للمفتي الدكتور: شوقي إبراهيم علام، جاء فيها: أن "يجوز شرعًا تعجيل الزكاة في هذه الآونة التي تمر بها مصر وبلاد العالم جراء هذا الوباء، وقوفًا مع الفقراء، وسدًّا لفاقة المحتاجين، وعملًا بالمصلحة التي تستوجب التعجيل كما ورد في السنة النبوية المطهرة، وهو مذهب جماهير الفقهاء وعليه العمل والفتوى؛ إظهارًا للمروءات في أوقات الأزمات، وثواب الزكاة المعجلة في هذه الحالة أعظم؛ لما فيها من مزيد تفريج الكروب وإغاثة الملهوفين وسدّ حاجة المعوزين.[2]

هذا، وقد صدرت الفتوى رقم خمسة (5) والمعنونة بـ"الحكم الشرعي بتعجيل دفع الزكاة

[1] أخرجه الإمام أحمد في مسنده، 192/2، مسند العشرة المبشرين بالجنة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، وآخرون تحت إشراف: عبد الله بن عبد المحسن التركي ، رقم الحديث: 822، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ/ 2001م، وإرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، لمحمد ناصر الدين الألباني، 349/3، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1405هـ/ 1985م

[2] انظر: الفتوى الصادرة عن دار الإفتاء المصرية تحت رقم: 15317 والمتعلقة بتعجيل إخراج الزكاة بسبب وباء كورونا للمفتي الدكتور: شوقي إبراهيم علام، والمنشورة في موقع دار الإفتاء المصرية بتاريخ 31/مارس/2020، على الرابط الآتي:-https://www.dar-alifta.org/Home/ViewFatwa?ID=15317&title

قبل إتمام الحول" عن لجنة الفقه والفتوى للاتحاد لعالمي لعلماء المسلمين، والتي جاء فيها أنّ سؤالًا "قد ورد عن حكم تعجيل الزكاة في هذه الظروف التي أحاطت بالعالم كله، جراء جائحة كورونا، فنقول وبالله التوفيق: يجوز على قول أكثر أهل العلم من المتقدمين والمعاصرين تقديم وتعجيل دفع الزكاة لكل من ملك النصاب إذا كان هناك مصلحة شرعية معتبرة تدعو إلى هذا التقديم والتعجيل، وما يمر به المسلمون وغيرهم في هذه الأيام بسبب جائحة وباء كورونا (كوفيد-19)، وما نجم عن هذه الأزمة من تعطيل للأعمال، وتوسيع دائرة الفقر والفقراء، وعدم قدرة شرائح مجتمعية على توفير مستلزمات الحياة الضرورية من الغذاء والدواء والعلاج من جهة، وحفظ أرواح هؤلاء وأنفسهم من الهلاك والضياع، ورفع الحرج والمشقة عنهم من جهة أخرى؛ كلّ ذلك مصالح شرعية معتبرة وعاجلة، تتشوف الشريعة الغراء إلى تحقيقها وتذليل الصعاب أمامها، الأمر الذي يعزز ويدعم القول بتعجيل الزكاة أكثر من أي وقت مضى".[1]

ومن الهيئات الإفتائية التي راعت الواقع الصعب الذي يعيشه العالم بأسره، وأجازت للأغنياء إخراج الزكاة قبل وقتها، ولو بزمن طويل، فتوى صادرة عن لجنة الفتوى التابعة للمجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث بألمانيا،[2] جاء فيها بعد تمهيد، بينت فيه أنّ الأصل في إخراجها حصول النصاب ومرور الحول "غير أنّ جمهور الفقهاء أجازوا تعجيلها؛ لمصلحة

[1] انظر: الفتوى رقم 5 المعنونة بـ"الحكم الشرعي بتعجيل دفع الزكاة قبل إتمام الحول" والصادرة عن لجنة الفقه والفتوى بالاتحاد العالمي لعلماء المسلمين يوم الخميس 9 شعبان 1441هـ الموافق لـ2020/04/02م، والمنشورة بتاريخ:11 /2020/4م، على الرابط الآتي: https:// https://iumsonline.org/ar/ContentDetails.aspx?ID=11221.

[2] والموقف نفسه تبناه المجلس الأوروبي للبحوث والإفتاء في فتواه رقم: (9/30) الصادرة في البيان الختامي للدورة الطارئة الثلاثين المنعقدة بتقنية (ZOOM) التواصلية في الفترة من 1 إلى 4 شعبان 1441هـ الموافق له 25-28 مارس (آذار) 2020م تحت عنوان: "المستجدّات الفقهيّة لنازلة فيروس كورونا "كوفيد 19" المنشورة على الرابط الآتي:-https://www.e cfr.org/blog/2020/04/01/%D8%A7%D9%84%D8%A8 بتاريخ 2020/4/1، وانظر أيضًا: فتاوى العلماء حول فيروس كورونا، لمسعود صبري، مرجع سابق، ص 67-68

تقتضي التعجيل، كأن تنزل بالمسلمين مجاعة لا يمكن دفعها، أو كارثة طبيعية كالزلازل والبراكين والفيضانات، أو يحل بهم وباء، كما في وقتنا الحالي، فقد صح عن علي بن أبي طالب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنّ العباس[1] -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- سأل النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في تعجيل زكاته قبل أن تحل، فرخص له في ذلك. ثم خلصت اللجنة إلى القول: بأن "الأولى بالمسلمين ممن تجب عليهم الزكاة أن يبادروا بإخراجها هذه الأيام، حتى ولو كان الحول بعيدًا، فإن الله تعالى شرع الزكاة للمواساة والتخفيف عن الناس، وزمن انتشار الأوبئة هو أولى الأزمان بالتضامن والتآزر والتخفيف، والله أعلم".[2]

هذا، وقد أفتى بالجواز من أفراد الفقهاء والعلماء في العالم الإسلامي عدد بلغ حد التواتر، ولذلك حكم النازلة أصبح متواترًا في الأوساط العلمية وغيرها. وفي هذا السياق، فقد أصدرت "رابطة علماء أهل السنة" فتوى وقع عليها جماعة من كبار العلماء المنضويين تحتها، والذين قالوا فيها بجواز تعجيل الزكاة قبل مضي الحول؛ نظرًا لجائحة وباء كورونا (كوفيد ـ19) والذين بلغ عددهم ثمانية وخمسين (58) عالمًا من علماء الشريعة المشهود لهم بالفضل والتمكن من الصناعة الإفتائية في العالم الإسلامي في عصرنا هذا، وقد كان أول الموقعين على اللائحة علي محيي الدين القرا داغي الذي يعد من كبار علماء المسلمين،[3] معللين القول بالجواز بالظروف التي نتجت

[1] أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الزكاة، باب: في تعجيل الزكاة، رقم الحديث: 1624، تحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د.ت.، 115/2، وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب: الزكاة، باب: تعجيل الزكاة قبل محلها، (رقم: 1795)، (15/3)، تحقيق:شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، ومحمَّد كامل قره بللي،و عَبد اللّطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، 1430هـ/ 2009م، وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب: الزكاة، باب:ما جاء في تعجيل الزكاة، رقم الحديث: 678 ورقم: 679، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م، 56/2.

[2] نوازل الأوبئة، لمحمد علي بلاعو، مرجع سابق، ص 62.

[3] انظر نص الفتوى المنشور بتاريخ: الجمعة، 27 مارس 2020م على موقع رابطة علماء أهل السنة الآتي: https://www.rabtasunna.com/7087 ، و"فتاوى العلماء حول فيروس كورونا"، مرجع سابق، ص 130-134

عن جائحة كورونا. وفي السياق نفسه، قد أكد الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، في إطار مقابلة مع قناة "الجزيرة مباشر"[1] والرد على السؤال الذي تلقاه من أحد المشاهدين، على ضرورة تعجيل إخراج الزكاة الآن ودفعها للمتضررين من وباء "كورونا"، معتبرًا أنّ إخراجها الآن هو أولى حتى من تأخيرها لشهر رمضان، كما يفضل كثير من المسلمين ذلك. ويمكن تعليل ذلك، على غرار ما سبق، بأن الأمة الإسلامية تمر بوضع اقتصادي مقلق؛ بسبب تعطيل معظم مرافق الحياة الاقتصادية والتجارية والمالية". ومن الهيئات الإفتائية اللجنة الدائمة للإفتاء بمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا، والتي جاء في تعليلها...هذا، وتعجيل الزكاة في هذه الظروف عمل صالح لشدة حاجة من فقدوا وظائفهم وتعطلت مصادر دخلهم".[2]

ثانيًا: تعليق على النازلة:[3] يلاحظ في هذا الباب، أنه صدرت فتاوى متعددة للهيئات والمؤسسات الإفتائية في العالم الإسلامي، كما صدرت أخرى لآحاد الفقهاء تبين حكم تعجيل إخراج الزكاة للإسراع بإيصالها إلى الفقراء والمعوزين الذين هم في حاجة شديدة إليها بسبب فقدان الشغل أو غيره من الأسباب الأخرى. بالإضافة إلى بيان حكم دفعها إلى المؤسسات الخيرية التي تؤوي الفقراء والمشردين، وكذا المراكز العلمية التي تقدم خدماتها مجانًا للمرتفقين كالمراكز الإسلامية في المهجر الذي يشكل فيه المسلمون أقليات، والتي تعتمد بصورة كبيرة جدًا على تبرعات المصلين والمرتدين عليها.

[1] انظر نص الحوار المنشور بتاريخ 2020/4/4 على الرابط الآتي: 1792424 https://www.aa.com.tr/ar .

[2] انظر: نص الفتوى رقم: 87739 المعنونة بـ"حكم تعجيل أو تأخير إخراج الزكاة بسبب الظروف الاقتصادية المصاحبة لوباء كورونا"، الصادرة عن مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا، بتاريخ: (26 مارس، 2020)، والمنشورة على الرابط الآتي: https://www.amjaonline.org/fatwa/ar/87739/%D8%AD%D9%83%D9%85-.

[3] المقصود بالنازلة جنسها الصادق بالواحد والمتعدد، بمعنى العنوان يفيد النازلة الواحدة أو عدة نوازل، كما هو مقرر في اللغة العربية.

ثم إن تعجيل إخراج الزكاة لمواساة الفقراء ومساندة المحتاجين من النوازل المستجدة التي استوجبت على العلماء بصورة فردية أو في إطار مؤسسات أن يتصدوا لهذه النوازل ويجيبوا عن استفسارات المسلمين امتثالًا لقوله سبحانه: "فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾" (سورة النحل: 43)، وحتى تطمئن قلوبهم لأحكام شرع الله تعالى.

ولذلك، فإنّ العلماء أفتوا بما تتطلبه الوضعية الحرجة التي يحياها المسلمون في هذا الزمان بفتوى جنحوا فيها إلى الترخيص في تعجيل الزكاة والقول بجواز تعجيلها لسنة أو سنتين أو ثلاث أخذًا بالمصلحة المتمثلة في الحاجة العاجلة الفقراء أو النازلة التي تنزل بالمسلمين. ومن ثم، يمكن القول بأن التعجيل يعتبر آلية من الآليات الشرعية التي تسهم في رفع الحاجة عن الناس الذين انقطعت بهم أسباب الرزق إلى حد ما ودفع الحرج عنهم بسبب ما فيه من الشدة والضيق.

المطلب الثاني: تحليل النازلة في ضوء المذاهب الفقهية

قضية تعجيل الزكاة وإخراجها قبل حلول الحول عليها ترتبط بحكم تقديم العبادات المؤقتة بوقت معين، حيث اتفق الفقهاء على أنّ العبادات التي يكون الوقت أحد أسباب وجوبها لا يجوز تقديمها على وقتها المقرر في الشريعة الإسلامية كالصلاة والصيام، مستدلين على ذلك بقوله تعالى في شأن الصلاة: "أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ" (سورة الإسراء: 78)، وبقوله سبحانه في شأن الصيام: "فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ" (سورة البقرة: 185). فمن أدّى هاتين العبادتين قبل وقتهما، فلا تسقط عنه وتبقى ذمته عامرة بهما؛ ولذا فعليه أن يؤديهما عند حلول وقتهما. وأما العبادات التي لا يكون الوقت سببًا في وجوبها، وإن كان شرطًا في ذلك كالزكاة، أو كانت مطلقة عن الوقت كالكفارات، فقد أجمع الفقهاء على أنه لا يجوز تقديمها على سبب الوجوب كاكتمال النصاب، واختلفوا في تقديمها على شرط وجوبها كحولان الحول، قال ابن قدامة: "ولا يجوز تعجيل الزكاة قبل ملك النصاب

بغير خلاف علمناه"، وعللوا ذلك بأن فيه تعجيل الحكم قبل سببه. كما اتفق أهل العلم وأصحاب المذاهب على أنّ مرور الحول شرط في وجوب الزكاة، بمعنى أنّ المال إذا بلغ النصاب وأوفى عامًا قمريًا كاملًا في ملك صاحبه وتحت تصرفه، أخرجت زكاته، خاصة في الأوضاع العادية والأحوال الطبيعية.[1]

وانطلاقًا مما سبق، يتبين أنه من الجائز لصاحب المال أن يُعجِّل إخراج زكاة ماله قبل موعد الوجوب بشرطه، وهو مِلك النصاب. وأما إذا لم يكن عنده مال أصلًا أو عنده مال لم يبلغ النصاب، فإنه لا يجزئه حينئذ إخراج زكاته؛ لما في ذلك من تقديمها على سبب الوجوب، وهو ملك النصاب. وفي هذا الإطار، يقول الإمام ابن رجب الحنبلي في القواعد: العبادات كلها- سواء كانت بدنية، أو مالية، أو مركبة منهما- لا يجوز تقديمها على سبب وجوبها، ويجوز تقديمها بعد سبب الوجوب وقبل الوجوب، أو قبل شرط الوجوب.[2] ثم قال (ومنها زكاة المال يجوز تقديمها من أول الحول بعد كمال النصاب[3] ومعنى ذلك أنه لا يجوز تقديم العبادة قبل وجود سببها لأن السبب هو الموجب، والسبب يعرفه الأصوليون بأنه الذي يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم، فتقديم العبادة قبل وجود سببها لا يصح، فلو قدّم الزكاة قبل ملك النصاب فغير جائز، ولكن قبل حولان الحول مع ملك النصاب فيجوز؛ لأن تقديم العبادة على شرط الوجوب جائز قال المرداوي في الإنصاف: ويجوز تعجيل الزكاة عن الحول إذا كمل النصاب. هذا المذهب، وعليه الأصحاب، وقطعوا به، كالدين ودية الخطأ. نقل الجماعة عن الإمام أحمد لا بأس به...[4]

[1] نوازل الأوبئة، لمحمد علي بلاعو، مرجع سابق، ص 61.

[2] تقرير القواعد وتحرير الفوائد المشهور بقواعد ابن رجب الحنبلي، تحقيق: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1419هـ، 24/1.

[3] المرجع نفسه، 26/1.

[4] الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، للإمام علاء الدين المرداوي السعدي الحنبلي، تحقيق: أبي عبد الله محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، 184/3.

والإشارة هنا جديرة إلى أنّ الفقهاء اختلفوا في جواز تعجيلها قبل تمام الحول وبعد ملك النصاب، فذهب جمهور العلماء ومنهم الأئمة الثلاثة[1] إلى جواز تعجيلها من غير كراهة لعامين اقتصارًا على الوارد عند الشافعية والحنابلة، ولسنين عند الحنفية، خلافًا للمالكية.[2]

أولًا: رأي الجمهور وأدلتهم: قال الإمام ابن تيمية: "يجوز تعجيل الزكاة قبل وجوبها بعد وجود سبب الوجوب عند جمهور العلماء منهم الأئمة: أبو حنيفة[3] والشافعي[4] وأحمد،[5] فيجوز تعجيل زكاة الماشية، والنقدين، وعروض التجارة، إذا ملك النصاب".[6] ويستحب تعجيلها إن كانت هناك مصلحة، كأن يوجد مجاعة، أو يحدث للمسلمين حاجة، كالفيضانات والزلازل والبراكين والحرائق والأوبئة.[7] وبرأي الجمهور قال

[1] شرح فتح القدير على الهداية، لكمال الدين بن الهمام، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، ط1، 1424هـ/ 2003 م، 516/1، وبدائع الصنائع، للكاساني، مرجع سابق، 2/50، والمجموع شرح المهذب، للإمام النووي، تحقيق: محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد، المملكة العربية السعودية، د.ت.، 6/139، والمغني، لابن قدامة، مرجع سابق، 629/ 2.

[2] بداية المجتهد ونهاية المقتصد، للقاضي أبي الوليد بن رشد الحفيد، تحقيق وتعليق ودراسة: الشيخ محمد علي معوّض والشيخ عادل أحمد عبد المحمود، دار الكتب العلمية، 266/1، والشرح الكبير، مرجع سابق، 431/1

[3] بدائع الصنائع، الكاساني، مرجع سابق، 50/2، ورد المحتار على الدر المختار لابن عابدين الدمشقي الحنفي، دار الفكر، بيروت، ط2، 1412هـ/ 1992م، 27/2.

[4] المجموع شرح المهذب للنووي، مرجع سابق، 144/6، والحاوي الكبير لأبي الحسن الماوردي الشافعي، تحقيق: جماعة من الباحثين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ/ 1999م، 174/3، والوسيط في المذهب، للإمام الغزالي، تحقيق: حمد محمود إبراهيم, محمد محمد تامر، دار السلام، القاهرة، ط1، 1417هـ، 446/2.

[5] بل ذهب الحنابلة في رأي مروي عن الحسن البصري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه يجوز تقديمها لثلاث سنين قياسا على القول بتقديمها لحول واحد المنصوص عليه في الحديث، قال في المغني: "ذا عجل الزكاة لأكثر من حول، ففيه روايتان إحداهما، لا يجوز؛ لأن النص لم يرد بتعجيلها لأكثر من حول. والثانية، يجوز. وروي عن الحسن أنه كان لا يرى بأسا أن يخرج الرجل زكاة ماله قبل حلها لثلاث سنين؛ لأنه تعجيل لها بعد وجود النصاب، أشبه تقديمها على الحول الواحد. وما لم يرد به النص يقاس على المنصوص عليه إذا كان في معناه، ولا نعلم له معنى سوى أنه تقديم للمال الذي وجد سبب وجوبه على شرط وجوبه، وهذا متحقق في التقديم في الحولين، كتحققه في الحول الواحد". المغني لابن قدامة، مرجع سابق، 473/2.

[6] توضيح الأحكام من بلوغ المَرام، مرجع سابق، 332/3.

[7] المصدر نفسه، 332/3.

سفيان الثوري، والأوزاعي، والحسن البصري، والزهري، وسعيد بن جبير.[1] لقد استدل الجمهور بأدلة عامة[2] وخاصة، إلا أني أقتصر هنا على الأدلة الخاصة منقولة ومعقولة؛ لأنها أدل على المقصود وأبين للمراد، ومن المنقول ما يلي:

1. ما رواه الخمسة إلا النسائي عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ "أنّ العباس سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تعجيل زكاته قبل أن تحل، فرخص له في ذلك".[3]
2. عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لعمر: "إنا قد أخذنا زكاة العباس عام الأول للعام".[4]
3. في الصحيحين عن أبي هريرة قال: "بعث رسول الله عمر على الصدقة، فقيل: منع ابن جميل، وخالد بن الوليد، والعباس عم رسول الله، فقال رسول الله: ما يَنْقِمُ ابن جميل إلا أنه كان فقيرا فأغناه الله، وأما خالد فإنكم تظلمون خالدًا قد احتبس أدراعه وأعتده في سبيل الله، وأَما العباس: فهي عليَّ ومثلها معها، ثم قال: يا عمرُ، أما شعرتَ أن عم الرجل صِنْوُ أبيه؟"، وفي رواية البخاري: "فهي عليه صدقة، ومثلها معها".[5]

---

[1] فتاوى العلماء حول فيروس كورونا، لمسعود صبري، دار البشائر، ط1، 1441هـ/ 2020م، ص 212.

[2] استدل البعض بكل ما يدل على المسارعة والتنافس في فعل الخيرات من الآيات، مثل قوله تعالى: "وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ" (سورة البقرة: 148).

[3] سبق تخريجه

[4] أخرجه الترمذي في سننه، 54/3، كتاب الزكاة، باب ما جاء في تعجيل الزكاة، رقم الحديث: 679، تحقيق أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفى البابلي الحلبي، ط2، 1395هـ/ 1975م.

[5] أخرجه البخاري في صحيحه، 534/2، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: "وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ"(سورة التوبة: 60)، رقم الحديث: 1468، تحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، شرح وتعليق د. مصطفى ديب البغا، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ، وأخرجه مسلم في صحيحه، 676-677/2، كتاب الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها، رقم الحديث: 983، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة، 1374هـ/ 1955م.

وفي هذه القصة بروايتيها احتمالان: أحدهما أن يكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد تسلف من العباس صدقة عامين ولم يقضها منه لحاجة بالعباس، بل ضمنه إياها، ولهذا قال: إنها عليه ومثلها. والثاني أن يكون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أخذ من العباس صدقة عامين استسلافًا، ولهذا قال: هي علي ومثلها معها.[1]

ومن المعقول ما يلي:

4. قياس تعجيل الزكاة على تقديم الدين المؤجل[2] الذي يعجله صاحبه قبل بلوغ الأجل، وذلك أنّ الزكاة اعتبرها جمهور الفقهاء حقًا ماليًا جعل له أجل للرفق، فجاز تعجيله قبل أجله. كما أن اشتراط الوقت لا يمنع من التعجيل إلا إذا تعلق بعبادة محضة، كالصلاة والصيام، ومن ثم فإن دخول الوقت في الزكاة إنما هو من باب الرفق بالإنسان، وكل ما كان كذلك، جاز له أن يعجله تركًا للإرفاق بالنفس.[3]

5. قياس الشافعية تعجيل إخراج الزكاة على كفارة اليمين التي تقدم على الحنث، وقالوا: الزكاة وجبت بسببين النصاب والحول، فجاز تقديمها على أحدهما، وهو الحول كالكفارة وجبت بالحلف والحنث فجاز تقديمها على أحدهما وهو الحنث.[4]

ثانيًا: رأي المالكية وأدلتهم: ذهب المالكية إلى أنه لا يجوز تعجيل الزكاة قبل تمام

---

[1] جامع الأصول في أحاديث الرسول، لابن الأثير، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مطبعة الملاح، مكتبة دار البيان، 1389هـ/ 1969م، 574/4، والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي المحدث، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وأحمد محمد السيد، ويوسف علي بديوي، ومحمود إبراهيم بزال، 17/3، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ط1، 1417هـ/ 1996م، وفتح العلام بشرح الإعلام بأحاديث الأحكام لزكريا الأنصاري الشافعي، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، 1421هـ/ 2000م، ص 326.

[2] التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، للإمام ابن عبد البر، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، 264/2-265.

[3] الموسوعة الفقهية، مرجع سابق، 225/12.

[4] روضة الطالبين وعمدة المفتين، للإمام النووي، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط3، 1412هـ/ 1991م، 277/8.

الحول بمدة كبيرة أخذا بالأحوط،[1] ووافقهم على ذلك ابن المنذر، وابن خزيمة من الشافعية، وبه قال ربيعة، وسفيان الثوري، وداود، وأبو عبيد.[2] جاء في المدونة أنّ الإمام مالكًا قال فيمن عجل زكاة ماله قبل وقتها لسنة أو سنتين: "لم يجز؛ إلا أن يكون قرب الحول أو قبله بشيء يسير فلا أرى بذلك بأسًا، وأحب إلي ألّا يفعل حتى يحول عليه الحول".[3] وقال القاضي عبد الوهاب: "لا يجوز تقديم الزكاة قبل الحول خلافاً لأبي حنيفة والشافعي".[4] وقال أشهب: لا تجزئ قبل محلها كالصلاة، ورواه عن مالك، نقله ابن رشد، قال في التوضيح ورواه ابن وهب، قال ابن يونس: وهو الأقرب وغيره استحسان، قال في البيان: وحمل ابن نافع قول مالك عليه وهو رأى أنها لا تجزئ قبل محلها بيوم واحد ولا بساعة واحدة وهو ضامن لها حتى يخرجها بعد محلها انتهى".[5] إلا أنه يجوز إخراجها إذا قارب الحول على التمام بنحو شهر أو شهرين مع الكراهة. قال خليل: "أو قدمت بكشهر في عين وماشية" قال شارحه فتجزئ مع الكراهة، سواء كان التقديم لمستحقها، أو لوكيل يدفعها، كما بين الإمام الدردير أن المعتمد في المذهب أنّ التقديم أكثر من شهر لا يجزئ.[6] واستدل المالكية

[1] هناك أقوال أخرى في المذهب أوصلها بعضهم إلى عشرة، حكى مجملها الإمام القرافي في الذخيرة. انظر: الذخيرة للقرافي، تحقيق: محمد حجي، سعيد أعراب، محمد بو خبزة، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1994، 173/3.

[2] شرح منتهى الإرادات، للبهوتي، مرجع سابق، 451/1، والمغني، لابن قدامة، مرجع سابق، 470/2، 510.

[3] المدونة الكبرى للإمام مالك بن أنس برواية الإمام سحنون، وزارة الأوقاف السعودية، مطبعة السعادة، مصر، 1324هـ، 335/1.

[4] الإشراف على نكت مسائل الخلاف، للبغدادي، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان أبو عبيدة، دار ابن القيم- دار ابن عفان، ط1، 1429هـ/ 2008 م، 386/1.

[5] مواهب الجليل في شرح مختصر الشيخ خليل، للإمام الحطاب الرعيني، دار الفكر، ط3، 1412هـ/ 1992م، 360/2.

[6] الشرح الكبير للشيخ الدردير مع حاشية الإمام الدسوقي، مرجع سابق، 502/1؛ منح الجليل شرح مختصر خليل، لمحمد بن أحمد عليش المالكي، دار الفكر، بيروت، 1409هـ/1989م، 22/2.

ومن شايعهم على رأيهم بالمنقول والمعقول، وذلك كما يلي:

1. أخرج ابن ماجه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "لا زكاة في مال حتى يحول عليه الحول".[1]
2. قياس الزكاة على الصلاة والصيام، فكما لا يجوز تقديم الصلاة والصيام عن وقتهما المحدد لهما شرعًا، فكذلك الزكاة، لأنها تعتبر عندهم عبادة محضة مؤقتة، فلم يجز تقديمها قبل وقت وجوبها.[2] وهذا ما أكده ابن يونس حين نصّ على أنّ الله تعالى ورسوله قد وقّتا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للزكاة وقتًا لا يتجاوز عنه وهو الحول في العين والماشية، ويوم الحصاد في الحرث.[3]
3. حولان الحول جعله المالكية شرطًا من شروط وجوب الزكاة قياسًا على النصاب، ولذلك لم يجز تقديمه عليه، كما لا يجوز قبل تمام النصاب إجماعًا.[4] هذا بالإضافة إلى أنّ مرور الحول شرط في وجوب الزكاة عند المالكية، وليس شرطًا عند غيرهم، ولذلك جاز تعجيل الزكاة عند عامة العلماء خلافًا للمالكية.[5]

---

[1] هذا الحديث أخرجه مالك في الموطأ عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا موقوفا، وهو الصحيح، وروي مرفوعًا عن ابن عمر، وعلي، وعائشة، وأنس، رضي الله عنهم. انظر: الموطأ، للإمام مالك، 345/2، كتاب: الزكاة، باب: الزكاة في العين من الذهب والورق، رقم الحديث: 839، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية بأبي ظبي، ط1، 1425هـ/ 2004م، وأخرجه ابن ماجه في سننه، 571/1، كتاب: الزكاة، باب: من استفاد مالا، رقم الحديث: 1795، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، ومحمَّد كامل قره بللي، وعَبد اللّطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، 1430هـ/ 2009م.

[2] الإشراف على نكت مسائل الخلاف، للقاضي عبد الوهاب البغدادي، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان أبو عبيدة، دار ابن القيم- دار ابن عفان، ط1، 1429هـ/ 2008 م، 387/1.

[3] الجامع لمسائل المدونة المسمّى مصحف المذهب المالكي، لأبي بكر بن عبد الله بن يونس الصقلي، طبعة أم القرى، 135/4.

[4] المغني لابن قدامة، مرجع سابق، 471/2، والمجموع، للإمام النووي، 146/6، والذخيرة، للإمام القرافي، مرجع سابق، 137/3، وتوضيح الأحكام من بلوغ المرام، مرجع سابق، 332/3.

[5] بدائع الصنائع، للكاساني، مرجع سابق، 50/2.

المطلب الثالث: سبب الخلاف وبيان الراجح من القولين وبيان أثره في الجائحة

أولًا: سبب اختلاف الفقهاء في حكم تعجيل إخراج زكاة المال: بيّن الإمام ابن رشد سببَ الخلاف بين جمهور الفقهاء والمالكية في قضية تعجيل الزكاة في الظروف العادية، فقال: "وسبب الخلاف في ذلك أنّ الزكاة هل هي عبادة؟ أو حق للمساكين؟ فمن قال: إنها عبادة وشبّهها بالصلاة لم يجز إخراجها قبل الوقت، ومن شبّهها بالحقوق الواجبة المؤجلة أجاز إخراجها قبل الأجل على جهة التطوع".[1] فحيث اعتبر المالكية الزكاة عبادة محضة مؤقتة بوقت لم يجيزوا تعجيلها إلا بيسر، وأما جمهور الفقهاء، فحيث اعتبروها حقًا ماليًا للذي وجبت عليه الزكاة، أجازوا التعجيل لأنّ الأجل من حقه وقد تنازل عنه.

ثانيًا: بيان الراجح من الخلاف في المسألة: والراجح من الرأيين هو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء[2] من جواز التعجيل لكثرة القائلين به، ولقوة أدلته، ولفعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع عمه العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وإذا كان رأي الجمهور راجحًا من حيث قوة أدلته في الحالة العادية حيث لا ضرورة، ففي حال الضرورة والحاجة الملحة، فإنّ الأولى بالتطبيق والأخذ به هو رأي الجمهور لما فيه من التيسير ورفع الحرج عن الناس في هذه الظروف الاستثنائية. وفي هذا الصدد، قال الأستاذ بخمزة مبررًا رأيه في الأخذ بغير المذهب المالكي الذي أخذ بالأحوط في قضية تعجيل الزكاة، كما بينت في المناقشة: "إن الأصل في الزكاة أنها تجب بعد مرور الحول بالنسبة للأموال، لكن

[1] بداية المجتهد ونهاية المقتصد، للقاضي أبي الوليد بن رشد الحفيد، تحقيق وتعليق ودراسة: الشيخ محمد علي معوّض والشيخ عادل أحمد عبد المحمود، دار الكتب العلمية، 202/1.

[2] وممن رجح هذا الرأي أبو عبد الرحمان عبد الله التميمي صاحب توضيح الأحكام من بلوغ المرام، والدكتور مسعود صبري في كتابه "فتاوى العلماء حول فيروس كورونا"، دار البشائر، ط1، 1441هـ/ 2020م، ص 215 ومنهم الدكتور مصطفى بخمزة في تصريح له لموقع هسبريس بتاريخ: (01/ 04/ 2020).

الفقه الإسلامي اعتبر أن هناك حاجات تستدعي أن تقدم الزكاة، وانتهى الفقه المالكي بعد نقاش إلى جواز تقديمها بنحو شهرين. ثم أكد أن هناك فقها آخر، هو فقه أبي حنيفة وقول لأحمد ابن حنبل بأن الزكاة يمكن أن تقدم لسنتين، وقال: إننا "لا نعيش الآن ظرفًا عاديًا؛ بل نعيش ظرفًا خاصًّا استثنائيًا، وحالة ضرورة، وفقه الضرورة هو غير الفقه العادي، ونحتاج أنْ نُسعفَ النّاس ويجدوا أنّ الإسلام هو الذي يقدّم لهم يد العون، ولذلك لا بد أن نصير إلى الأقوال التي تقول بتقديم الزكاة، وهي أقوال فقهاء مسلمين كبار، ولهذا يجوز إخراجها الآن".[1]

والقول بجواز تعجيل إخراج زكاة المال قبل موعدها مراعاةً لمصلحة الفقراء والمحتاجين هو ما تطمئن إليه النفس في هذه الأيام التي يجتاح فيها وباء كورونا «كوفيد -19» العالم، وخاصة في ظل ما كابده الفقراء والمحتاجون من الضرر الناتج عن الوباء؛ وذلك أن ومراعاة أحوال هؤلاء وسد حاجاتهم يعد من أعلى مقاصد الشريعة الإسلامية.

ثالثًا: توجيه الفتوى وبيان أثرها على واقع الناس في الأزمة: فمما ترجح به الفتوى بجواز التعجيل أنها دعت إلى تحقيق مصلحة يمكن اعتبارها تدبيرًا شرعيًا ذا أثر اقتصادي واجتماعي يتجلى في إغاثة الناس وقت الأزمات والشدائد جراء الوباء الذي ألزم الناس بيوتهم لفترة ليست باليسيرة استجابة لأوامر الجهات المختصة مما أوقع كثيرا من الأسر والمؤسسات في حالة الحاجة، كما أبرزت فلسفة الإسلام في التكافل والتراحم التي بنيت على تذويب الفوارق الكبيرة بين الناس، وإخراج المحتاجين من الضيق والشدة، وإسعافهم بما يحتاجونه من طعام وغيره حفظًا لكرامتهم الإنسانية، وإظهارًا للمعاني الجميلة لهذا الدين العظيم الذي أولت تعاليمه السامية اهتمامًا بالغًا لقضية الإنسان ومشاكله ومعاناته لتقديم الحلول المناسبة والناجعة، والتي منها دعوة

[1] تصريح للدكتور مصطفى بخمزة لجريدة هسبريس الإلكترونية بتاريخ (01/ 04/ 2020) https://www.hespress.com. (بتصرف).

أبناء المجتمعات إلى أن يتضامنوا، وخاصة وقت الشدائد الناجمة عن الأوبئة أو غيرها.

ومما يرجح الفتوى نظرتها المتفحصة إلى واقع الناس وتنزيل فقه الضرورات والرخص والحالات الاستثنائية بدل تطبيق فقه العزائم والحالات العادية. فالقول بتعجيل إخراج الزكاة هو مظهر من مظاهر التكافل الاجتماعي الذي هو من أهم مقاصد التشريع الإسلامي العامة الذي يراعي واقع الجوائح ويلبي الحاجات الناجمة عنها، الشيء الذي يظهر عظمة التشريع الإسلامي بما تضمنه من سديد الآراء والاجتهادات التي تقدم الحلول الميسورة للتكفل بما تفرضه الوقائع والحاجات.[1]

وبالتأمل في هذه النصوص، نجدها تؤكد على جواز تقديم زكاة المال، إذا كان هناك عذر، كما هو حال النازلة. ولعل الأخذ بهذا القول تدعو إليه الضرورة في هذه السنوات والمتمثلة في اجتياح وباء كورونا "كوفيد -19" العالم؛ مما نتج عنه ضرر كبير لكثير من الناس المحتاجين والفقراء، خاصة وأنّ المصلحة الشرعية ظاهرة بيّنة في التعجيل، وهي دفع الحرج عن المسلمين الفقراء وسد حاجاتهم، وهذا تعاون مندوب إليه في هذه الظروف الصعبة؛ بل هو من مقاصد الشريعة الغراء. فالمطلوب في مثل هذه الظروف أن تنظم حملات لجمع أموال الزكاة؛ لمكافحة آثار "كورونا" وإيصالها إلى المحتاجين؛ وذلك لدفع الضيق المالي والأزمة الاقتصادية، التي قد تؤدي إلى نكبات اجتماعية ذات تداعيات سلبية. هذا الإجراء التضامني سيهم لا محالة في تجاوز هذه الداعيات أو التقليل من حدتها لكثير من الناس الذين اضطروا لترك أعمالهم والتزام منازلهم بسبب تفشي فيروس كورونا؛ ولذا دخلوا ضمن المستحقين للزكاة. فالحاجة الملحة لهؤلاء تعتبر مصلحة تستدعي التعجيل؛ إذ السنة نصو السنة

[1] إخراج الزكاة بين التأجيل والتعجيل في ظل الظروف الطارئة والجوائح القاهرة، للشيخ محمد المأمون القاسمي الحسني، ورقة بحثية قدمت لندوة البركة الأربعون للاقتصاد الإسلامي: (وضع الجوائح والقوة القاهرة)، وقف إقرأ للإنماء والتشغيل، ص 12.

المطرة نبهت إلى أن الفاقة إذا عظمت والحاجة إذا اشتدت، كان التعجيل آكد؛ لدفع البلاء عن هؤلاء.

خاتمة: ختمت هذه الدراسة بيان النتائج المتوصل إليها فيها، مع الإشارة إلى جملة من التوصيات، وذلك في الآتي:

أولًا: النتائج

1. إن الشريعة الإسلامية تضمنت تدابير شرعية مالية مهمة تمحورت حول التضامن المادي والروحي بصور وأصناف متعددة؛ رفعًا للحرج ودفعًا للضرر النازل بالناس بسبب الوباء.
2. كشفت الدراسة الاعتبارات الواقعية التي نظر إليها فقهاء الشريعة قديمًا وحديثًا في القول بجواز تأخير إخراج الزكاة؛ دفعًا لمفسدة التضييق على أصحاب الأموال وجلبًا لمصلحة الفقراء ورفعًا للحرج عنهم، وخاصة في الظروف الاستثنائية بسبب كرونا.
3. برهنت الدراسة على أنّ الفتوى بجواز تأجيل وتعجيل إخراج زكاة المال زمن الوباء والشدة هي الأصوب؛ نظرًا لما فيها من مراعاة أحوال الناس، ودفع حاجاتهم، وتقوية روابط الأخوة الدينية فيما بينهم.
4. القول بالتأجيل والتعجيل بسبب تفشي الوباء يعتبرت مناسبة عظيمة لإحياء حركة الاجتهاد وتبوئ مؤسسة العلماء والمجامع الإفتائية المكان اللائق بها؛ لتقوم بدورها في تحقيق مناطات الأحكام الشرعية وتنزيلها على مستجدات الوباء ونوازله العظيمة في ظل إعمال فقه الأوليات وإحياء فقه مقاصد الشريعة واعتبار المآلات.
5. جنح الفقهاء في الفتاوى المدروسة نحو بناء فقه متجدد للتكافل الاجتماعي الذي يفرض وجوب إنقاذ البشرية من المخاطر المحدقة بها بمقتضى الأحكام الشرعية الداعية

إلى التضامن الرامي إلى تذويب الفوارق الاجتماعية ومحاربة الحاجة والفقر.

6. اختلاف العلماء حول بعض القضايا المرتبطة بفيروس كورونا كالقول بجواز تأخير إخراج الزكاة أو تعجيل إخراجها، نظرًا لظروف وحاجات تستدعي ذلك يعتبر ظاهرة طبيعية تحكمها قوانين الاختلاف وقواعده في الشريعة الإسلامية، مما يثري القضية الواحدة بآراء مختلفة تتسم بالصحة والضبط لقيامها على الدليل، كما يعتبر إبرازًا للروح الحضارية في الفكر الفقهي المعاصر أسوة بسلفه، بالإضافة إلى أنّ ذلك مظهر من مظاهر الرحمة في الإسلام.
7. فقه المواساة والتكافل الاجتماعي يحكم عددًا كبيرًا من الأحكام الشرعية والقضايا المستجدة كالتي نزلت بالناس خلال الظروف الاستثنائية التي عاشتها المجتمعات بسب تفشي الوباء، مما يمكن أن يشكل نظرية فقهية مستقلة يمكن أن يصطلح عليها بـ"نظرية فقه المواساة زمن الشدائد والحاجات"؛ وذلك للتأكيد على أهمية التضامن الإحساني والإلزامي في التعامل مع أزمة وباء كورونا المستجد.
8. توفر الفقه الإسلامي على أحكام تمثل التدابير الشرعية الكفيلة بالتخفيف من آثار أزمة كورونا الاقتصادية والاجتماعية.
9. التأكيد على أهمية دراسة النوازل الفقهية المتعلقة بالأزمات التي تنشأ عن الأوبئة أو غيرها من الظروف الاستثنائية للوقوف على آراء الفقهاء وفهم وجهات نظرهم باستحراج مناطات الأحكام الفقهية في ضوء مقاصد الشريعة الإسلامية؛ لاستخلاص طرق معالجة آثارها والتخفيف من حدة نتائجها السلبية.
10. كثرة المسائل الجديدة والنوازل المستجدة التي ظهرت في حياة الناس بسبب تفشي الوباء وانتشارها سريعًا كسرعة انتشار الوباء، مما يمكن جمعها في موسوعة يمكن أنْ تشكل مرجعًا مهمًا لدراسة هذه الأزمة وما خلفتها من آثار.

11. تشابه معظم النوازل المستجدة بسبب تفشي فيروس كورونا في أغلب الأقطار التي ضربها هذا الوباء، ولذلك تشابهت الأحكام الفقهية الصادرة بشأنها.
12. مواكبة العلماء من خلال المؤسسات والمجالس والمجامع الإفتائية حول العالم لهذه المستجدات والقيام بواجب الفتوى وتنزيل الأحكام الشرعية على الوقائع، مع مراعاة فقه الواقع وفقه الموازنة وفقه مقاصد الشريعة الإسلامية، وفقه مآلات الأفعال، مما أثبت للناس صلاحية الدين الإسلامي لكل زمان ومكان وظرف.

ثانيًا: التوصيات: توصي هذه الدراسة بما يلي:

1. توجيه طلاب الفقه الإسلامي إلى الاهتمام بما يمكن أن أصطلح عليه بـ"فقه التكافل والمواساة" الذي يحكمه عدد يفوق الحصر من الأحكام الشرعية، والتي يمكن أن تسهم في صياغة وبناء نظرية يصطلح عليها بـ"نظرية فقه المواساة زمن الشدائد والحاجات".
2. فتح مراكز لتكوين الطلاب على ضبط آليات الاجتهاد الفقهي الرصين الذي يقوم على القواعد الشرعية؛ تحسباً للتعامل الشرعي مع النوازل الفقهية المستجدة التي تجيب على الأزمات والصعوبات التي تعترض المسلمين في حياتهم، وخاصة في ظل ما يعيشونه من تداعيات وآثار الجائحة.
3. ضرورة إعادة تنظيم صندوق الزكاة في العالم الإسلامي؛ لكونه سيسهم -لا محالة- في حل إشكالات مالية واجتماعية لا حصر لها بشرط أن يتم ذلك تحت أنظار مراقبين يتحلون بالصفات الحميدة من الأمانة، والعدالة، والصرامة، والفطانة، والعلم، والشجاعة في تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية دون أن يخشوا في ذلك لومة لائم.

المصادر والمراجع

أولًا: المصادر والمراجع المعتمدة في البحث:

1. القرآن الكريم برواية ورش عن نافع
2. أحكام القرآن، للإمام أبي بكر بن العربي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، 1424هـ/ 2003م.
3. إخراج الزكاة بين التأجيل والتعجيل في ظل الظروف الطارئة والجوائح القاهرة، للشيخ محمد المأمون القاسمي الحسني، ورقة بحثية قدمت لندوة البركة الأربعون للاقتصاد الإسلامي: (وضع الجوائح والقوة القاهرة)، وقف إقرأ للإنماء والتشغيل.
4. إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1405هـ
5. الإشراف على نكت مسائل الخلاف، للقاضي عبد الوهاب البغدادي، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان أبو عبيدة، دار ابن القيم - دار ابن عفان، ط1، 1429هـ/2008م.
6. الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام المبجل أحمد بن حنبل، لعلاء الدين بن علي المرداوي، صححه وحققه محمد حامد الفقي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية بدون تاريخ.
7. بداية المجتهد ونهاية المقتصد، للقاضي أبي الوليد ابن رشد الحفيد، تحقيق وتعليق ودراسة: الشيخ محمد علي معوّض والشيخ عادل أحمد عبد المحمود، دار الكتب العلمية، د.ت.
8. بدائع الصنائع للكاساني الحنفي، للإمام الكاساني، تحقيق: علي محمد معوض وعادل

أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، ط2، 1424هـ/ 2003م.

9. تحفة الفقهاء، لمحمد بن أحمد علاء الدين السمرقندي، دار الكتب العلمية، ط1، 1405هـ

10. التفريع لابن الجلاب البصري، تحقيق: حسين بن سالم الدهماني، دار الغرب الإسلامي، ط 1.

11. تقرير القواعد وتحرير الفوائد المشهور بقواعد ابن رجب، لابن رجب الحنبلي، تحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سليمان، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، السعودية، ط1، 1419هـ

12. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، للإمام ابن عبد البر، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، د.ت.

13. توضيح الأحكام من بلوغ المَرام، لأبي عبد الرحمن بن إبراهيم البسام التميمي، مكتبة الأسدي، مكة، ط5، 1423هـ/ 2003م.

14. جامع الأصول في أحاديث الرسول، لابن الأثير، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مطبعة الملاح - مكتبة دار البيان، 1389هـ/ 1969م

15. الجامع لمسائل المدونة المسمى مصحف المذهب المالكي، لأبي بكر بن عبد الله ابن يونس الصقلي، طبعة أم القرى، د.ت.

16. الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المزني، لأبي الحسن الماوردي الشافعي، تحقيق: جماعة من الباحثين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ/ 1999م.

17. الدلائل والإشارات على أخصر المختصرات، لمحمد بن بدر الدين البلباني الحنبلي، دار الركائز للنشر والتوزيع، الكويت، ط1، 1439هـ/ 2018م.

18. الذخيرة، لأحمد بن إدريس شهاب الدين القرافي، تحقيق: محمد حجي، سعيد

أعراب، محمد بو خبزة، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1994م

19. رد المحتار على الدر المختار، لابن عابدين الدمشقي الحنفي، دار الفكر، بيروت، ط2، 1412هـ/ 1992م.
20. روضة الطالبين وعمدة المفتين، للإمام النووي، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط3، 1412هـ/ 1991م.
21. روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لابن قدامة المقدسي، مؤسسة الريّان، ط2، 1423هـ/2002م.
22. سبل السلام سبل السلام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام، للإمام الصنعاني، تحقيق: محمد ناصر الألباني، مكتبة المعارف، 1427هـ/ 2006م.
23. سنن ابن ماجه، للإمام ابن ماجه، تحقيق:شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، ومحمَّد كامل قره بللي،و عَبد اللّطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، 1430هـ/ 2009م.
24. سنن أبي داود، للإمام أبي داود السجستاني، تحقيق: شعيب الأنؤوط وآخرين، دار الرسالة العالمية، ط1، 1430هـ/ 2009م.
25. سنن أبي داود، للإمام أبي داود، تحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د.ت.
26. سنن الترمذي، للإمام الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفى البابلي الحلبي، ط2، 1395هـ/ 1975م.
27. شرح السيد الشريف الجرجاني على المواقف، للعضد الإيجي، مع حاشية عبد الحكيم السيالكوتي وحسن جلبي، دار الطباعة العامرة، د.ت.
28. الشرح الكبير للشيخ الدردير مع حاشية الإمام الدسوقي، للإمام الدردير، دار الفكر، بيروت، د.ت.
29. شرح زاد المستقنع، لمحمد بن محمد المختار الشنقيطي، دروس صوتية قام بتفريغها

موقع الشبكة الإسلامية، الدرس 97/ 3.

30. شرح فتح القدير على الهداية، لكمال الدين بن الهمام، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، ط1، 1424هـ/ 200 م.

31. صحيح الإمام مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة، 1374هـ/ 1955م.

32. صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دار اليمامة، دمشق، ط5، 1414هـ/ 1993م.

33. فتاوى العلماء حول فيروس كورونا، مسعود صبري، دار البشائر، ط1، 1441هـ/ 2020م.

34. فتح العلام بشرح الإعلام بأحاديث الأحكام، للإمام زكريا الأنصاري الشافعي، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، 1421هـ/ 2000م.

35. القواعد لأبي الفرج بن رجب الحنبلي، دار الفكر، د. ت.

36. الكافي في فقه المدينة، للإمام ابن عبد البر، دار الكتب العلمية، 1407هـ.

37. كشاف القناع عن متن الإقناع، للبهوتي، عالم الكتب، بيروت، 1403هـ/1983م.

38. مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلة علمية محكمة تصدر عن مجلس النشر العلمي التابع لجامعة الكويت، عدد خاص بالأحكام الشرعية المرتبطة بجائحة كورونا صادر في مايو 2020م.

39. المجموع شرح المهذب، للإمام النووي، تحقيق: محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد، جدة، د.ت.

40. مختصر القدوري في الفقه الحنفي، للقدوري، تحقيق: كامل محمد محمد عويضة، دار

الكتب العلمية، ط1، 1418هـ/ 1997م.

41. المدونة الكبرى برواية الإمام سحنون، للإمام مالك بن أنس، وزارة الأوقاف السعودية، مطبعة السعادة، مصر، 1324هـ

42. المسائل الفقهية من كتاب الروايتين والوجهين، للقاضي أبي يعلى المعروف بابن الفراء، تحقيق: د. عبد الكريم بن محمد اللاحم، مكتبة المعارف، الرياض، ط1، 1405هـ/ 1985م.

43. المستصفى من علم الأصول، للغزالي، تحقيق: أحمد زكي حماد، طبعة مشتركة بين سيدار العالمية والميامين للنشر والتوزيع، ط1، د.ت.

44. مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، وآخرون تحت إشراف: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ/ 2001م.

45. المطالب العالية من العلم الإلهي، للإمام فخر الدين الرازي، تحقيق: أحمد حجازي السفا، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1407هـ/ 1987م.

46. المعونة على مذهب عالم المدينة "الإمام مالك بن أنس"، للإمام القاضي الوهاب البغدادي المالكي، تحقيق: حميش عبد الحقّ، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، د.ت.

47. مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج لشمس الدين الشربيني، دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ/ 1995م.

48. المغني، لموفق الدين عبد الله أحمد بن محمد الشهير بابن قدامة، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي وعبد الفتاح الحلو، دار عالم الكتب، بيروت، 1417هـ/1997م.

49. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للإمام القرطبي المحدث، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وأحمد محمد السيد، ويوسف علي بديوي، ومحمود إبراهيم بزال، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ط1، 1417هـ/ 1996م.

50. المنثور في القواعد، لأبي عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت. د.ت.

51. منح الجليل شرح مختصر خليل، لمحمد بن أحمد عليش المالكي، دار الفكر، بيروت، 1409هـ/1989م.

52. منية الساجد بشرح "بِداية العابد وكفاية الزاهد"، لعبد الرحمن بن عبد الله البعلي الحنبلي، تحقيق: د. أنس بن عادل اليتامى، د. عبد العزيز بن عدنان العيدان، دار الركائز للنشر والتوزيع، الكويت، ط1، 1438هـ/ 2017م.

53. الموافقات في أصول الشريعة، للإمام أبي إسحاق الشاطبي، تحقيق: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط1، 1417هـ/ 1997م.

54. مواهب الجليل في شرح مختصر الشيخ خليل، للإمام الحطاب، مواهب الجليل في شرح مختصر الشيخ خليل، للإمام الحطاب الرعيني، دار الفكر، ط3، 1412هـ/ 1992م.

55. الموسوعة الفقهية الكويتية، لمجموعة من المؤلفين، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، دار السلاسل، ط2، الكويت، د.ت.

56. الموطأ، للإمام مالك، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية بأبي ظبي، ط1، 1425هـ/ 2004م.

57. نوازل الأوبئة، جمع وإعداد وترتيب محمد علي بلاعو، منشورات مؤسسة ابن تاشفين للدراسات والأبحاث، ط1، 2020م.

58. الهداية على مذهب الإمام أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، لمحفوظ بن أحمد بن الحسن، أبي الخطاب الكلوذاني، تحقيق: عبد اللطيف هميم، ماهر ياسين الفحل، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، ط1، 1425هـ/ 2004م.

59. الوسيط في المذهب، للإمام الغزالي، تحقيق: حمد محمود إبراهيم, محمد محمد تامر، دار السلام، القاهرة، ط1، 1417هـ.

ثانيًا: فتاوى وبيانات وتصريحات وتوصيات منشورة بمواقع إلكترونية

1. الفتوى رقم 5 المعنونة بـ"الحكم الشرعي بتعجيل دفع الزكاة قبل إتمام الحول"، للجنة الفتوى للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، والصادرة يوم الخميس 9 شعبان 1441هـ الموافق ل 2020/04/02م، المنشورة بتاريخ:11 /2020/4م، على الرابط الآتي: htthttps://iumsonline.org/ar/ContentDetails.aspx?ID=11294
2. الفتوى رقم: 87739 المعنونة بـ"حكم تعجيل أو تأخير إخراج الزكاة بسبب الظروف الاقتصادية المصاحبة لوباء كورونا"، الصادرة عن مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا، بتاريخ: (26 مارس، 2020)، والمنشورة على الرابط الآتي: https://www.amjaonline.org/fatwa/ar/87739/%D8%AD%D9%83%D9%85-
3. الفتوى رقم: (9/30) الصادرة المجلس الأوروبي للبحوث والإفتاء في البيان الختامي للدورة الطارئة الثلاثين المنعقدة بتقنية (ZOOM) التواصلية في الفترة من 1 إلى 4 شعبان 1441هـ الموافق له 25-28 مارس (آذار) 2020م تحت عنوان: "المستجدّات الفقهيّة لنازلة فيروس كورونا "كوفيد 19" المنشورة على الرابط الآتي: https://www.e-cfr.org/blog/2020/04/01/%D8%A7%D9%84%D8%A8 بتاريخ 2020/4/1.
4. الفتوى الصادرة عن دار الإفتاء المصرية تحت رقم: 15317 والمتعلقة بـ"تعجيل إخراج الزكاة بسبب وباء كورونا"، للمفتي الدكتور: شوقي إبراهيم علام، والمنشورة في موقع دار الإفتاء المصرية بتاريخ 31/مارس/2020، على الرابط الآتي: https://www.dar-alifta.org/Home/ViewFatwa?ID=15317&title.
5. الفتوى رقم: 87739 بعنوان: "حكم تعجيل أو تأخير إخراج الزكاة بسبب الظروف الاقتصادية المصاحبة لوباء كورونا"، الصادرة عن مجمع فقهاء الشريعة

بأمريكا بتاريخ: (26 مارس، 2020م) والمنشورة على الرابط الآتي: https://www.amjaonline.org/fatwa/ar.

6. كتاب فتاوى اللجنة الدائمة، للجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، جمع وترتيب: أحمد بن عبد الرزاق الدويش، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الإدارة العامة للطبع، الرياض، (9/ 422). النسخة الرقمية للكتاب المنشور على الرابط الآتي: https://shamela.ws/book/8381 .

7. البيان الختامي للمجلس الأوروبي للبحوث والإفتاء في فتواه رقم: (30/9) الصادر عن الدورة الطارئة الثلاثين المنعقدة بتقنية (ZOOM) التواصلية في الفترة من 1 إلى 4 شعبان 1441هـ الموافق له 25-28 مارس (آذار) 2020م تحت عنوان: "المستجدّات الفقهيّة لنازلة فيروس كورونا كوفيد 19" المنشورة على الرابط الآتي: https://www.e-cfr.org.

8. توصيات الندوة الطبية الثانية المنعقدة عبر تقنية مؤتمرات الفيديو يوم 16 أبريل 2020م، تحت عنوان "فيروس كورونا المستجد (كوفيد ـ 19) وما يتعلق به من معالجات طبية وأحكام شرعية" الصادرة عن "مجمع الفقه الإسلامي" التابع لمنظمة التعاون الإسلامي بتاريخ 2020/04/20م، والمنشورة على الرابط الآتي: www.iifa-aifi.or.5254/.html.

9. تصريح للدكتور مصطفى بخمزة، لجريدة هسبريس الإلكترونية بتاريخ 01/ 04/ 2020م. https://www.hespress.com.

ISSN: 2321-7928

الدرّ اليتيم

(للشيخ ماهر القادري)

﴿3﴾

ترجمة من الأردوية: د. عظمت الله[1]

ذكريات

على بُعد مسافة من الكعبة، حيث نزل جيش الملك أبرهة في عام الفيل، متوجهًا نحو الأمام لغرض الهجوم على الحرم المكي. ثمة دكاكين، دكاكين من الطين! وأيضًا مكتسية بالأعشاب! واُستخدم في محراب بعضِها طوب أيضًا، تتوافر في هذه الدكاكين، الأغراض والاحتياجات المنزلية مثل الدقيق، والأرز، والدقيق المحمص، والملح، وزيت الزيتون، وخيوط الخياطة، والخضراوات الموسمية، والفواكه كذلك، يتردد عليها الزبائن ويرجعون بعد شراء أغراضهم. وبدأ أصحاب الدكاكين وأصدقاؤهم يتبادلون أطراف الأحاديث مرة أخرى.

"هل سمعت شيئًا؟ يا عبيد! لقد سمّى عبد المطلب حفيده باسمَينِ: أحمد ومحمد".

قال صاحب دكان أسمر:

"هذا اسم من الطراز الجديد تمامًا، أنا ماهر لأنساب قريش، ولستُ أذكر الأنساب فحسب إنما أستطيع أنْ أخبركم عن أحوال عدنان، وحياة مرّة، وقصة حياة كلاب، ووقائع لؤي، وإنجازات قصي واحدًا واحدًا، وأنا أعرف كم شخصًا ومن أية قبيلة، قُتلوا عندما اندلع الجدال بين بني بكر وبني تغلب جراء رعي الإبل.

[1] أستاذ مساعد (متعاقد)، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي، الهند

ها هو اختصاصك الذي يفتخر به بنو خزيمة، قال واحد منهم، فيبتسم ماهر الأنساب.

ناهيك عن الأشخاص، يمكنني أنْ أخبركم أين توجد الخيول ذات سلالة الحصانات التي كان يركبها أمية؟ ولماذا منح حاكم نجد هذا السيف الذي يتواجد لدى أبي سفيان، في حرب الكواكب؟ وليس هذا فحسب بل إنما أتذكر أصول التمور أيضًا. يا صاحبي! أنت قد خضت هذا البحر العميق! لا يمكن أن يساويك في هذا الفن إلا الخطاب لأننا لا نرى نظيرًا لك في مكة. قال أحد السامعين. وقد عزز الشعور بالافتخار لهجة العجوز.

ومنطقة المطالع هذه التي تشتهر لتمورها ذات طعم رائع، في كافة أرجاء الحجاز، تعود أصولها من سلسلة سلالة نخيل قبيلة طيء، التي اقتلعت خلال حرب الفجار. لو سمحتم، لأقصّنّ على مسامعكم قصص ملوك الحيرة، ولأشرحنّ أمامكم تاريخ هبوط وسقوط الأقباط.

يا عمّي! كان الحديث عن ابن عبد الله!

هنا، تنفسَّ العجوز عميقًا، قد أتعبه الحديث المستمر والحاد. ثم قال: استطيع أنْ أقول لكم بثقة بأنه لم يقع على مسامعنا، اسم أحمد ومحمد لأي رجل قرشي حتى يومنا هذا. بالطبع اسم جديد وفريد تمامًا. وما أحلى هذا الاسم، ينجذب القلب إلى هذا الاسم تلقائيًا.

على هذا، تابع عربي في منتصف العمر، كان يربط حبلًا وهو يسمع الأحاديث أيضًا خلال هذا العمل. بالقول:

قد رجعت زوجة أبي، بعد أن رأت ابن عبد الله، وهي تقول واضعة يدها على الأصنام، بأنها لم تر صبيًا بهذا القدر من طلاقة الوجه، حلوًا، ذكيًا وجميلًا حتى يومنا هذا، بحيث أنّ العيون لا تشبع برؤيته أبدًا، بل يطيب أن نستمر في رؤيته. إن باطن

أقدام فلذة كبد عبد الدار، أكثر لمعانًا من خدود زبيد. وأنا أقول: الآن ليس هناك حاجة إلى إشعال مصباح في بيت عبد المطلب، لأنّ وجه محمد بنفسه سراج منير.

ويتحادث أعيان قريش في دار الندوة أيضًا، حول هذا الموضوع، وأحاديثهم:

يدور الحديث عن ابن عبد الله في كل بيت.

نعم، هذا هو الوضع. إنّ أمية قد أقام مأدبة لكافة أهالي مكة على فرح ولادة ابنه، لكنه لم يحالفه هذا القبول العام والشهرة.

اليوم عندما كنت أطوف بالكعبة أحسستُ، متأملًا في ولادة ابن عبد الله، كأن أحدًا يتهامس في أذني، بأنه من المقرر أنْ يُطوى ورق أكثر ضياء بل غير فان، من تاريخ العرب.

وأحلامي ـــــــــــــــــــــــ من الأحرى ألا تسمعوا، ستحزنون ـــــــــــــــــــــــ فقال الجميع معًا ـــــــــــ لا، لا، هذا غير ممكن، إذا جاء الكلام على اللسان فمن الأفضل أن ينطق به.

إني رأيت في المنام البارحة بأنني أريد أنْ أشرب خمرًا ولكنّ أحدًا نزع القدح من يدي ورمى به، وأنا أردت أن أسجد لآلهتي يَعُوْق فإن يدًا أخذتني وأقامتني بألا تُعبد الأصنام من الآن، (ظهر العرق على جبين رؤساء قريش)، وسعيت لأتوجه إلى عشيقتي ذهبه فدفعني أحد وأسقطني من السرير قائلًا: اتركوا الآن هذه الفواحش.

(عجوز من قريش ابيضت حواجبه): إنّ الأحلام مرعبة للغاية، لقد ثبتت أقدامي في المعارك الكبيرة والدامية، ولم يثبت عزمي، ولكنني لست أدري لماذا بدأ القلب يخفق بسماع هذا الحلم. فقال (رافعًا يده) يا عزى! قوّي قلبي! يا لات! أعطيني الشجاعة.. ويا منات! ما هذا لذي نسمعه .....لئلا تنكس راية ألوهيتك.

(العجوز العربي قد تحمس جالسًا قرفصاء)، ما هذا الجبن الذي تتحدث عنه، أبو مرجان! تتجلى من كلامك، إهانة الأصنام، وأنا أخشى يا تُرى! لئلا تبتلي بعذاب من

آلهتنا. لقد أفزعك سماع أحاديث الأحلام فزعًا، بينما كنت تقول إنك لقد أفسدت بوحدك، سيوف عشرين عدوًا عندما اندلعت المعركة مع بني كنانة. وظل حصاني يجري على الجثث لفترة طويلة، ولكن اليوم، بدأت رجولتك تصاب بالشلل. يبدو كأنّ شعرك قد ابيض بسبب حرارة الشمس. لذا أنت تهتم بالأحلام والأوهام إلى هذا الحد، وأنا جئتُ لتَوِّي من عبادة نائلة. وصادفتني في المشوار عشيقتي غزالة، وأسقتني قدحين من الخمر المحموم، ثم أسمعتنا أختها الصغيرة أبياتًا لطرفة.

وعندما انطلق الحديث عن الشعر والشاعرية قام زعيم في قريش، كانت لحيته كثيفة وشعر رأسه أشعث، فأنشد أبياتًا انطلق بها لسانه.... وبدأت الأصداء تدوي "أحسنت، مرحبًا، صدقت يا ابن عم".

ويقع على بعد قليل من مكة المكرمة، منطقة تسمّى بمرّ الظهران، وتشتهر بين عامة الناس، باسم وادي فاطمة. يسكن في هذا الوادي، راهب اسمه عيص، وقد ترك عيص الدنيا بغية التقرب إلى الله مراعاة لتقاليده الدينية، يأكل ويلبس ما توافر له من الأكلات والملابس الخشنة والبالية. ويشتغل في الانهماك والعبادة، وينظر الناس كلهم إليه نظرة الاحترام والتقدير، وكان عبد المطلب أيضًا يتوافد على عيص.

في الصباح الذي أشرقت فيه شمس العرب، وصل عبد المطلب إلى عيص مسرورًا، ليزف إليه خبر ولادة حفيده، وكان عيص يقرأ بعض التراتيل تحت النخيل عند باب الدير.

سأل عيص مبتسمًا: يا عبد المطلب، تمشي اليوم مسرعًا!

يا صاحب الدير!، جئت ببشرى، خبر مفرح! وأنت حر، وغير ملم بصلات الزوجة والأطفال والأولاد، ومع ذلك إنك ستسعد ـ أجاب عبد المطلب ممسكًا طرف العمامة.

فقال عيص: أخبرني أخبرني! قد جعلتك السعادة والمسرة شابًا في هذا الشيب.

رُزق عبد الله بمولود صباح اليوم، طفل جميل! جميل جدًا! قد طارت سمعة جماله في مكة

كلها، ولقد أتعبني قبول تهاني الناس بالاستمرار ـــــ قال عبد المطلب رافعًا طرف الجبة. واستفسر الراهب عيص، ماذا سمّيته؟

محمد، أجاب عبد المطلب وهو يدير لسانه على شفتيه كأنه يستمع بلذة حلوة.

والآن، أنا أهنئك! هذا هو الطفل الذي قد بشرّتُك بولادته مرارًا وتكرارًا، اسمع! أنا عرفت هذا الطفل بثلاثة أمور، الأول هو أنّ نجمًا طلع بالبارحة لم يُر قط من قبل. والثاني أنّ الولادة كانتْ يوم الاثنين، والثالث هو أنه سُمّي محمدًا. افتخر بقدرك، يا عبدالمطلب! لن ينسى التاريخ بني هاشم أبدًا، يا ليتك تعيش لتشاهد شأنه وجلاله.

آمنة صارت أرملة

كان قلب آمنة مليئًا بالأماني، كم سيسعد عبد الله برؤية قرة عينه، سيلمع وجهه المليح بتقبيل جبين فلذة كبده. وسيسأل بماذا سمّيت فؤادي؟ فأقول باستحياء، ـــــــ أحمد ومحمد ـــــــ مما سيزيد فرحته كثيرًا، لما يوجد في هذه الأسماء من لحن عذب وحلاوة بالغة، ثم سأشكو إليه أنك قضيت كثيرًا من الأيام في السفر، بينما ذهبت القوافل من مكة إلى الشام، ولقد عادت قبل أيام كثيرة ـــــــ فيقول: أمّ محمد! مرضت في يثرب، فمكثت لدى أقاربك وأعزائك من بني نجار، وفور ما عُوفيتُ، وصلت إلى مكة مسرعًا ـــــ فأردُّ عليه، أتحسر في نفسي على أنني لم استطع أنْ أخدمك خلال المرض. أبو محمد! منذ أن وصلني نبأ مرضك، أصبحت مضطربة للغاية، وأحسست من أعماق قلبي، يا ليت كانت لي أجنحة فأصل إلى يثرب بأي حال من الأحوال. وإنك لتعلم بأنّ نساء بني هاشم لا يسافرن بمفردهن وإلا لقد كنت وصلت إلى يثرب راكبة الناقة السريعة.

وكانت السيدة آمنة تنتظر وصول عبد الله في أي لحظة، كانت غارقة في هذا التخيل بأنه (عبد الله) قد غادر يثرب مع الأبل، وإن ناقته سريعة للغاية، تسابق الريح، إذ

يرجع الناس من يثرب إلى مكة في عشرين يومًا، فإنه يصل إليها في عشرة أيام، هو آت، لقد وصل، وها أنا أسمع وصوله لدى الباب.

لقد رجعت القافلة من يثرب، ويأتي عبد المطلب بعد لقائه مع أفراد القافلة. قالت فتاة قادمة من الخارج.

ماذا قلتِ- رجعت القافلة ؟ ولم يأت ...خرج هذا الكلام من لسان آمنة متقطعًا. وأثناء ذلك، أتى عبد المطلب وهو أشعث أغبر، وعلى جبينه عرق مفرط، ولفات العمامة في عنقه، ولقد خفق قلب آمنة لرؤية هذا المنظر، وانصدمت ـــــــــــ وطبعًا العرب ليسوا متعودين على التحدث بغموض وتعقيد ـــــــــــ فقال عبد المطلب فور وصوله ـــــــــــ أنت، يا آمنة، أصبحت أرملة!، ومحمد يتيمًا، توفي عبد الله ـــــــــــ ولقد مضى عليه حوالي شهرين ـــــــــــ يا ليت! لو شاهد المتوفى طفله الجميل ولو بنظرة واحدة ـــــــــــ ولكن ليس بمقدور الإنسان أنْ يغيّر ما كتب له في قدره وقضائه.

قد دمعت عيون آمنة، ولم تخرج الدموع مادام عبد المطلب واقفًا هنا، وأمسك الحياء سيل العواطف. ثم بدأت العيون تذرف دموعًا حالما غادر والد الزوج المكان. وقد اجتمعت النساء من الجيران والأهل والأقرباء ليبكين عبد الله، وقد تجددت الجروحات القديمة تلقائيًا مع هذا الغم الجديد، وبدأت نساء قريش يندبن بسرد الأوصاف.

يا عبد الله، يجري على لسان كل فرد ذكر صلاحك وتقاك. وقد بلغ صيت حسنك وجمالك كلّ مبلغ في كلّ حيّ من أحياء مكة. عبد الله! عبد الله الجواد! عبد الله النبيل! عبد الله العفيف! إنّ بني هاشم، يثقلهم الغم على وفاتك في ريعان الشباب. يا حسرة على قمر مكة الذي اختفى في تراب يثرب. من يستضيف مثلك، عندما يتوافد الناس من الخارج لأداء الحج. يا عبد الله! إنّ لحية أبيك البيضاء تتبلل بالدموع. لقد سُلب زفاف آمنة. ويا لها من أرملة ـ وامصيبتاه! يتغير حالها بكثرة الغم ولك ـ أحمد

ـــــــ محمد ـــــ اختناق النفس ـــــــــ اختناق مستمر بالبكاء. يبدو أنْ تدفق العواطف قد ضاق عليها التكلم، ولم يمكنها القول أكثر من هذا.

كانت آمنة صامتة! حالة الصمت الكامل! كأنها أصبحت ميتة بالفعل، والوجه الشاحب وعلى الشفتين حرارة خافتة من الآهات، والعيون الدامعة، والزفاف المسلوب ينظر كحنان الأم، إلى محمد، يتيم عبد الله بنظرات متقطعة.

لا يمكن التعبير عن الأحزان الكثيرة، وإنّ كثيراً من جروح القلب قد لا تتحول إلى كلمات. وربما يعجز الحديث عن كثير من الأحزان والمآسي. لأنّ حساسية الغم تتفاقم بالفعل، في حال تحوله إلى كلمات وألفاظ. وكان ألم آمنة نوعًا من هذا الغم. سكوت مغموم ـــــــــــــ صمت مثير للأحزان، وكانت الدموع تمثل أحزان القلب بحد ما. يا لها من الأرملة الشابة التي قد سلب موت الزوج زفافها فجأة.

عند حليمة

حظيت ثوبية جارية أبي لهب بحظ رضاعة فلذة كبد آمنة. وبعد ذلك حسب العادة الجارية لدى العرب، جاءت مرضعات من المناطق الأخرى، ليستحضن مواليد مكة ـــــــــــــــــــــــ وقد حاصرتهن أيضًا أغلال الأماني والطمع في كل خطوة في العالم، ويوجد في قلب كل فرد، حرص على الأموال، أمنية الربح، وأمل في النفع. ولم تكن تخلو مرضعات العرب أيضًا عن هذه المشاعر، كن أيضًا بحاجة إلى ما يسدّ نار الجوع، فكنّ يقصدن مكة ليملأن أحضانهن بجوائز وتكريمات مقابل رضاعة مواليد الأسر الثرية، فاخترن جميعًا مثل هؤلاء الصبيان الذين كان آباؤهم وأمهاتهم على قيد الحياة، والذين هم من الأسر الميسورة الحال.

هذه الدنيا تعجبها المظاهر، ولها من قلة البصارة، وأهلها يفدون حياتهم من أجل القشور، ولا يسعون للوصول إلى المغزى ولا تحقيقه. ويتفرج الجميع على ألوان الأزهار ويعجبون بها. ولكن لا يفكر أحد في تقليب ستار هذا الكون ليرى هل

هناك شيء خلفه أم لا ـــــــــــــــــــــــــــــــ وقد ألقى النهم والطمع غشاوة على أبصارهم، وهؤلاء المفتونون بالمجاز لا يعرفون الحقائق ـــــــــــــــــ فقط لذة ظاهرة ــ غير ملمين بمتعة الباطن ـ ومجرد رؤية الصورة ــ وعدم المعرفة بالمعنى.

كانت مرضعات العرب ـــــــــــــــــــــــــــــ نساء ذوات الحظ السيء وقلة البصارة، يطفن في بيوت الأسر الثرية، ولكن عزفن عن بيت عبد المطلب. ولم تلف واحدة انتباهًا إلى الدر اليتيم لعبد الله، بمجرد التخيل إلى أنْ ليس له أبٌ، فماذا نكسب.. وإنّ الأم الأرملة حزينة ومشوشة بنفسها، ما لهذه المسكينة أن تقدّم لنا من أجر ومال. نعرف أنّ عبد المطلب هو رئيس محترم من قريش ومتولّي الكعبة، يحترمه الجميع، ولكن لا يتوافر لديه شيء بسب استغنائه وسخائه ـ الدخل مئة والإنفاق مئتان. تجدون دومًا ضيافة للمسافرين في البيت. وفي موسم الحج، كان عبد المطلب تنفذ منه النقود تمامًا، لأنّ مكاسب السنة بأكملها تنفق على ضيافة الحجاج. وغادرت المرضعات من مكة وهن يحملن صبيان قريش وأمتعتهم.

"قالت مرضعة بلهجة فخر: أعطاني عبد العزى عشرين دينارًا ومئتي درهم.

ردت مرضعة أخرى: أعطاني خال هذا الصبي، مكرمة إضافية، وأكرمني عمه إكرامًا على حدة، أما أبوه فقد غمرني، أنا المسكينة- بعطاءاته، وأنا أرجع حاملة الكيس المملوء بالدراهم والدنانير.

وقالت المرأة الثالثة: انظرن إلى هذا الرداء اليمني، وعقد من الفضة، مجوهر الكتف الغالي، وقال أبو رفادة واضعًا يده على آلهته: عندما تعودين بطفلي بسلامة وصحة، سأفرح ملء قلبي. أما هذه فهي القليل من باكورة عطاءاتي.

وأشارت إلى الصبي قائلة: وحمل جد هذا العزيز، جملًا بالأمتعة والتمور الغلات والدقيق المحمص، والأواني، والملابس. وقال العجوز عند المغادرة: أرسلي في موسم

الحج أحد أقربائك، سأرسل معه، جملًا أو جملين وعشرات من الشياة لك.

أما حليمة المسكينة ـــــــــــــــــــــــ لم يكتمل كلام المرأة الرابعة، وقالت قاطعة كلامها: يا حسرة! أنا أتعاطف مع حليمة الفقيرة، لم تحظ بطفل من أسرة ثرية، إنها اتجهت نحو بيت عبد المطلب، لتأخذ يتيم عبد الله! ماذا ستكسب من هنا. ستحصل على الأكثر خمس أو عشر صاعات من التمر وكيسين من الدقيق المحمص. إنّ في رضاعة الأطفال اليتامى دائمًا خسارة للمرضعات. لا يوجد لدى آمنة إلا الدعاء، ولكن لا يشبع الجوعان بمجرد دعاء. وأنا أقول: ليتم التكريم بدرهم واحد بدلًا من مئة دعاء. قالت المرأة الخامسة في لهجة مشوبة بتسلية وافتخار، حيث أخذ جملها يرغو.

كانت المرضعة حليمة من قبيلة بني سعد بن بكر، حزينة وكئيبة جدًا، وكانت تتحسر في قبلها. يا للنصيب!، لقد اختارت المرضعات الأخريات جميع صبيان العائلات الثرية، وقد كُتب في قدري، إرضاع الطفل اليتيم. وسيقدح فيه والد شيماء (اسم بنت حليمة) بغضب، بأنكِ جئتِ بطفل لن يبال أهله بأن يعطيك بضعة أكياس من الغلات ناهيك عن منح الدراهم والدنانير. وعليّ أن أسمعنّ هذا الطعن، ولن استطع أن أجيب عنه.

وصلت حليمة الحزينة والكئيبة، وبتأسف، إلى بيت عبد المطلب، وكان محمد نائمًا، وكان وجهه المبارك يشعّ نورًا، أكثر جاذبية للأنظار من ضياء القمر. فدنت إليه حليمة بقدم خافت. وضعت يدها على صدره المبارك بحب، ففتح محمد عينيه، وأخذ يبتسم وينظر نحو حليمة. وسبق أن رأت حليمة مئات الصبيان، ولقد أرضعت عشرات الأطفال إلا أن طرافة هذا اليتيم فريدة تمامًا عن الجميع، إذ حملت بسمته رسالة تهدئة، ودعوة للمحبة والراحة وزد على ذلك أنها مزيج من الوقار والحلم، وصغير كم من صغير! يبتسم الأطفال دون سبب. إلا أنّ ابتسامة يتيم عبد الله كان يتجلى منها غاية ورسالة. وكانت البسمة تنطق بنفسها، وكانت الأنظار الصامتة تتحدث شيئًا ما.

وقالت آمنة للمرضعة حليمة: يا حليمة! لا تقلقي لكونه يتيمًا، والله، سيكون له شأن.

سيدتي! أنا أصدق، لا أكذب. قبل الآن كنتُ حزينة للغاية، كانت الحسرة تعتريني بين حين وآن، بأنني لم أتمكن من الحصول على صبي من أية عائلة ثرية، فكنت أتحسر على سوء حظي. ولكن قد أزاح يتيمك الحبيب عن قلبي، الهموم كلها، ولقد سرّت عني أنظاره كافة الغم والهم. يا أم محمد، لا أستطيع أن أعبّر عن كيفية قلبي، في ألفاظ وكلمات. ولم يسعد قلبي قط بقدر سعادة اليوم. وأنت لا تعلمين يا بنت وهب! ماذا صنعت معي، ابتسامة طفلك محمد. ولم يطلع علي صباح أفضل من هذا الصباح بعد. (السيدة آمنة تبتسم).

غادرت حليمة حاملة معها، حبيب آمنة. وقبّلت الأم الأرملة جبين الصبي اليتيم، فظهرت علامة حنان الأم على جبين شبيه بالقمر، وتبللت الجفون تلقائيًا، وقد جدّد فراق الصبي اليتيم حرقة وداع أبيه. وطبعًا إنّ الألم يذكّر بالألم الآخر.

ودّع العجوز عبد المطلب حفيده بمحبة، ورافق عبد المطلب ناقة حليمة، ماشيًا على الأقدام، إلى جبال مكة. وقال بصوت شجيّ.

يا حليمة! لا تقصري في العناية بهذا الطفل اعتبارًا إياه يتيمًا، والله لم يُولد في قريش، مولود مثل هذا الصبي السعيد وصاحب الحظ، حتى اليوم، وأخبرني الكهنة، والرهبان، والأباطرة والأساقفة، سيأتي يوم حينما سيستسلم العالم كله إلى أقدام محمد.

وقالت حليمة ردًا على هذا:

يا سيد قريش، هدئ من روعِك، لا يشعر طفلك حتى بأذى بسيط، بإذن الله، أنا سأنام في المكان المتبلل، وأرقده في المكان الجاف، ولن تطعم شفتي ابنتي شيماء لبنًا ما لم يشبع به محمد. يا عبد المطلب! أقول لك هذا بكل مسؤولية. بالله عليك، ثق بي، يا أبا عبد الله.

غادرت حليمة فرحانة وسعيدة، وكان الجمل يمشي في الصحراء الرملية، وحليمة تنظر

إلى وجه محمد، وكانت تقبّل جبينه مرارًا وتقول:

يا محمد، يا أحمد، يا يتيم عبد الله، يا حبيب آمنة، ويا قرة عين عبد المطلب، أنت تنظر إليّ كأنك تعرفني من قبل. ومنذ أن رأيتك لا أتذكر أولادي، وأنت أصبحت نصب حناني، يا ابن عبد الله! (يبتسم محمد)، طبعًا، أنت تصدق كلامي مبتسمًا: يا حليمة، تقولين بصدق. يا محمد! لقد نورت ابتسامتك دنياي المظلمة، وها هي ناقتي بطيئة القدم، تمشي مثل الرياح. ماذا يحدث (ناظرة إلى كل جانب بِحيرة)، ها قد بدأ ينتشر الضياء فجأة، من أغصان النخيل الجافة، وإن صخور الجبال تتلألأ. وهذا الطريق! كأنّ أحدًا قد نثر فيه نجومًا على امتداده. يا محمد! لا نعرف ماذا سيكون شأنك عندما تكبر، ولكن لا تنس مرضعتك حليمة آنذاك. يا تُرى: ما هذا الكلام السخيف الذي أتلفظ به مثل الحمقاء، نعم، لا يمكنك أن تنساني. إذ ينطلق من فمك رائحة المحبة والوفاء، ويتجلى من هذه العيون الجميلة مروءة، ويبدو لي، يا محمد! كأنّ كتفيك يحملان أعباء التعاطف والمواساة للعالم كله.

كانت ناقة حليمة تمشي مسرعة، كان الحادي متعجبًا من هذه السرعة الفائقة، كان الوقت متأخرًا في الليل، والنجوم تتلألأ. وأغصان شجرة الراك تتمايل في أحضان الرياح الباردة، ولم يتمالك الحادي نفسه إلا ليحدو. ولا يستطيع أن يتذكر اليوم، أشعارًا حول مواضيع مشاعر الخمر والغناء والهوى. ركز على قوة ذاكرته ليحاول استحضار أشعار طرفة بن عبد ولم يستطع. ويبدو كأن أحدًا قد أزاح عن ذاكرته، أشعار الطرب والنشوة، فشرع يقول بلهجة حجازية:

حينما يسافر رئيس تيماء في نخيل برك الغماد، فقُل له إنّ ذرة من الشرافة أثقل من جبال الذهب، وإن رقق البطانيات التي قد مستها أيادي الصلحاء خير من حلل اليمين الحمراء ـــــــــــــــ هذا هو الكلام الذي تنطق به الشمس معي كل صباح عند طلوعها. وتخرج لآلي عدن بمشاق، ولكن لا يمكن تحقيق السعادة بجهد، لا

يوجد في كل قدر مكتوب، خطوط السعادة، وهذه هبة من الله، ونعمة نزلت من فوق السماء!

وقال الحادي مرة أخرى، مخاطبًا حليمة:

أم شيماء! أنشدي أنت ما عند! إن قبيلتك مشهورة بالفصاحة، ونحن الأعراب، تلامذتكم في معرفة اللغة.

أجابت حليمة:

لا أتذكر إلا شعراً واحدًا فقط. ـــــــــــــــ محمد

ـــــــــــــــ محمد ـــــــــــــــ أحمد

ـــــــــــــــ أحمد، لا يمكن أن تكون القصائد كلها لشعراء العرب أحلى من هذا الاسم. عندما تطلب مني، فتيات بني سعد بعد إنشادهن أنشودة شعبية بمناسبة عيد الفصح، لأنشد لهن فلا أقول لهم إلا محمد، ثم أسكت. ليكون هذا الاسم جوابًا لأغانيهن، يا حاد، استمر في حدوك، ولا تحاول جذب انتباهي ـــــــــ وها هو محمد يبتسم ـــــــــ (تحول شفتا حليمة المنحنيتان، إلى القوس)

وكانت أشجار الطريق، وكثبان الرمل، وأودية ذات الأحجار حتى الأوراق التي تهب في الرياح تبارك لحليمة وتقول:

يا حليمة: حليمة صاحبة الحظ والنصيب! تقبلي هدايا التبريكات! هل تعرفين من تحملين معك ...والآن لن يحظى أحد بسعادة ولا هداية في الدنيا إلا بواسطته، وإنّ أثر قدمه سيُعدّ صراطًا مستقيمًا، وسيكون تاج كسرى تحت أقدام أتباعه. وإنّ جميع مصابيح الهداية التي قد استضاءت حتى الآن، سيتحول بياضها كلها المرتبط بنور هدايته، إلى مشكاة الأبد. ولن يضمحل ضياؤها. حليمة! ستمحى أسماء الملوك والحكام، ولكن اسمك مع الدر اليتيم لعبد الله، ستبقى ذكراه في التاريخ إلى الأبد.

وكلما تشرح سيرة محمد، يقول الناس إنّ حليمة السعدية كانت مرضعته. ويا حليمة لقد أصبح اسمك غير فانٍ! ويا مرضعة غير شهيرة من بني سعد، لقد تحقق لك الصيت الأبدي، ويمكن أن يزنك أكبر أمير من قريش بالذهب ولكن النعمة التي ستحصلين عليها بفضل هذا الدر اليتيم، من يقدر منحها؟

في حين وصلت حليمة إلى قريتها، فبدأ الجميع يتعجبون برؤية سرعة ناقتها. قالت امرأة، مطلة من نافذة الدور العلوي:

ها هي حليمة سافرت من هنا راكبة على الناقة الهزيلة، لم تكن قاردة على المشي. ناقة هزيلة، وضئيلة، مضنية بالمجاعة، قد يُعدّ ويُحصى كل عظام لها، وإذا نفخ أحد نحوها فقد تموت هذه المسكينة، كان الجميع يضحكون بأنّ حليمة كيف تصل إلى مكة راكبة هذه الناقة شبه الميتة، وكنا بانتظار لنسمع هذا الخبر بأنّ ناقة حليمة قد لقيت مصرعها في المكان الفلان، بسبب العثرة التي أصابتها ــــــــــــــــ ولكنها تبدو مختلفة الآن، كأنه قد نبت لهذه الناقة جناحان، وتجري مثل الرياح، وقد أصبحت هذه الهزيلة شابةً بأكل شجرة الراك في مكة.

فردّت عليها حليمة، مبتسمة:

أختي! هذا كله ببركة هذا الطفل اليتيم. برب الكعبة، سيتغير قدر حيّنا وقبيلتنا.

وجلست الناقة لدى وصولها إلى باب البيت، وأنزلت حليمة ابن عبد الله بكل عناية، وأثناء ذلك، جاء زوج حليمة، وقال بلهجة غاضبة:

أم شيماء! أين كنتِ حتى الآن. كنتُ ظننتُ بأنّ ناقتك ربما خدعتك في منتصف الطريق، إلا أنّ هذه الظالمة رجعت من السفر أقوى، واسمعي! قد أوقفت الشاة حليبها بعدك... وكانت ضروع الشاة كلها قد جفت كأنها لم يكن فيها لبن قط. كم من مشاكل هنا لو كانت مشكلة واحدة لأذكرها ــــــــــــــــ وفي هذه

المرة، تجف مزارعنا تلقائيًا ـ وكلنا قلق، إذا كانت حال الزراعة هكذا، فماذا نأكل؟

وقالت حليمة، بعد أن نقلت محمدًا إلى حضن زوجها:

أبو شيماء! أنت بدأت تقص قصص العالم كله، خذ هذا الصبي في حضنك، هذا النشء الأنيق! هو قرة عين لبني هاشم، حفيد سيّد قريش عبد المطلب، ويتيم عبد الله، وفلذة كبد آمنة. ولو سمعت اسمه ستطرب (وبعد برهة من التوقف) أحمد ــ ومحمد أيضًا، وتزول ببركته، كافة المشاكل، وظلت كافة الطرق تتلألأ بنوره.

وأحب زوج حليمة محمدًا، واندهش برؤية جماله، وظل يرنو إليه لفترة طويلة، ثم قال ـــــــــــــــــــــــــ أم شيماء! لابد أنك جائعة، لأحضر لك حليبًا من مكان ما، أما شأتنا ـــــــــــــــــــــــــ (وقد وقع نظره على ضروع الشاة) يا تُرى! ما هذا! قد درّتْ الضروع الجافة.

ذهب زوج حليمة مسرعًا ووضع الآنية ثم بدأ يحلب. فامتلأت الآنية كلها باللبن، أم شيماء! هل أنا أحلم، هذا الأمر كالسحر ـــــــــــــــــــــــــ قال زوج حليمة.

إنما هي بداية ظهور بركة محمد، لاحظ كم سيحدث من الأمور، ستزول الصعوبات كلها! وأنا أؤكد أنّ مسرات العالم برمتها حقيرة أمام المتعة التي نحظى بها من خلال رؤية هذا الصبي. ولأسعد بحظي أو ليهنئك.

وقامت حليمة بتربية محمد بغاية من الشغف والتدلل والترف، نعم تربية! هذا وكأن حياتها وقدرها يتربى، وكانت خزائن الكون قد جمعت في حضن حليمة. وكانت أنظار القمر والنجوم تطوف ببيت حليمة، وحقًا اليوم كان حظ قبيلة سعد على برج شرف، وقد غيّر الله أيامهم.

وفي الصباح، حينما وصل الفلاحون لبني سعد إلى حقولهم، فإذا هم يرون بأنّ النباتات الجافة والأغصان الذابلة قد دبت فيها الحياة فجأة. وبدأت المزارع الجافة تخضرّ، كأنّ

أحدًا قد رشّ عليها ماء الحياة. وعاد الناس فرحانين وسرحانين وبدؤوا يقولون:

أيها الإخوان! إذا أراد أحد أن يشاهد بأمّ عينيه، السحر الحي والمعجزات الحقيقة، فليرافق معنا إلى النخيل، ليس في كافة الحقول الجافة وسيئة المنظر إلا خضرة وخضارة، ولم يظهر الربيع على المحاصيل بهذا القدر من النضرة، حتى يومنا هذا، وقد أصبحت الحقول كلها مكان ربيع ونضارة. لقد بسقت البراعم ونمت الأغصان على نحو كأنّ السنابل ستظهر عليها في لحظة واحدة. ماذا حدث بين عشية وضحاها ؟ ولم تنزل قطرة مطر من السحاب. وقد نقول إذا هطلت الأمطار بغزارة إذن قد يظهر أثر المطر تدريجيًا! ولا يمكن أن تساوي أية قبيلة من قبائل العرب مع قبيلة بني سعد في إنتاج الغلات.

وقد بدأت أطراف الأحاديث تدور بين الناس، وأخذ كبار الرجال وصغارهم الذين جربوا من الزمن سراءه وضراءه، وشاهدوا انقلابات كبيرة من العالم، يقولون إننا لم نشاهد هكذا قط بأن اخضرت الحقول الجافة في ليلة وضحاها ـــــــــــــــــ لعل آلهتنا متعاطفة معنا بشكل كبير. وإنما هي ثمار ألطافها وعنايتها الكريمة.

ولكن هذه الآلهة موجودة معنا منذ سنين، وقد مضت علينا ست سنوات حينما كان هناك قحط فإنها لم تعتن بنا؟ قال شخص، وفور أن انتهى كلامه، تحدث زوج حليمة بلهجة افتخار:

أنتم تخمنون على أساس العقل والقياس تخمينًا، وغير ملمين أساسًا بأصل الحقيقة. فها أنا أخبركم، اسمعوا! أحضرتْ أم شيماء، ابن عبد الله من مكة لرضاعته، واسم هذا الدر اليتيم محمد! ومنذ أن نزل هذا الصبي السعيد في بيتنا، بدأ نزول البركات والرحمة. كان قد جف لبن شاتنا، ولكن منذ البارحة، بدأ اللبن يتدفق من ضروعها. ولتسمعوا قصة بركاته من لسان حليمة، إذ قالت إن النور ظل ينزل طول الطريق، وإن حقولنا التي اخضرت في طرفة عين، ذلك ببركة هذا اليتيم ابن عبد الله، هلمّوا لتنظروا محمدًا نظرة واحدة، لتهتِفنّ بأننا ما رأينا مثل هذا الوجه المشرق والجذاب حتى اليوم.

لقد أرضعت المرضعة حليمة محمدًا رضعةً مزجت فيها المحبة والمودة، لقد ركزت جلّ عنايتها وحنانها على هذا اليتيم، وإنها لم تكن تتحمل أدنى إزعاج لمحمد. كانت تتجول ساعات وهي تضمه إلى صدرها، وتلاعبه بالأرجوحة، وتنشد عليه أشعارًا بطريقتها الخاصة، وترنيمتها:

النوم يصبح راحة، ممزوجًا بالعين، ثم تنتبه الحياة من مهد تلك الراحة، ممتدة أياديها من حال اليقظة. ومعظم الناس عيونهم مغلقة فتنام قلوبهم أيضًا، بينما عيون بعض الناس نائمة ولكن قلوبهم يقظانة.

وبعد مضي سنتين، انتهت فترة رضاعة يتيم آمنة، وأتت به حليمة إلى آمنة، وكم كانت آمنة سعيدة! لأنها رأت قرة عينها عقب فراق طويل، فقد احتشد الحنان في عينيها، واستيقظت الأماني الكامنة فجأة، حيث قبّل عبد المطلب حفيده مرارًا، وقال بحزن:

لو كان عبد الله موجودًا اليوم كم كان سعيدًا برؤية كبد خاطره، ولكن قد كتب اليُتم في قدر هذا الطفل، فاكتمل ما قُدّر.

وفي تلك الأيام، كان الوباء قد انتشر في مكة انتشارًا، يتم تشييع العديد من الجنائز من كل بيت، وكانت المدينة كلها في مشكلة ورهب وخوف. وطبعًا كان هذا الوضع سبب الخوف والرعب. لأنّ كل شخص كان يرى شبحًا من الموت، كأنه قد حان الأجل والآن أغلقت العيون. فلو أصيب أحد بجروح بسيطة لكان يظن أنّ رسول الموت يكاد أن يأتي إليه. وهذه هي آخر لحظات الحياة، وبعدها احتضار وموت، ثم كومة من التراب، وهذه المخاوف قد جعلت حالة الأحياء أسوأ من المرضى.

ليس هناك إلا قبور جديدة خارج الحي. لعل ملائكة الموت قد أعجبوا بأهل مكة، لذا يتم تدريب القضاء على حياة هؤلاء المساكين. وتقدم أهالي مكة إلى آلهتهم بالتماساتهم وسجودهم، ونذورهم، وضحاياهم، وطلباتهم، واستعانتهم، ونجداتهم، خفضوا نواصيهم، ولكن لم تنخفض شدة الوباء، وازداد الوباء انتشارًا، وكان بعض الشبان في قريش

يشعرون بغضب واستياء، بأننا نفدي أنفسنا أمام هذه الأصنام، إلا أنّ قلوبها أحجار قاسية لم تذب. وإذا لم نجد فائدة من الآلهة في أيام المصائب والنوازل والألم والحزن فما الجدوى لها. ولا بد أن تعود سجودنا علينا بمكافأة.

فنظرًا إلى شدة الوباء، أرسلت آمنة محمدًا مع حليمة مرة أخرى، وحظيت حليمة بهذه السعادة لمدة ثلاث سنوات، وكانت قبيلة بني سعد مشهورة في الفصاحة، بما كان يتوافر فيها عدد كبير من الشعراء والخطباء ذوي الإلقاء الساخن. فكان العرب يقولون إنّ الفصاحة تنبت في حقول بني سعد على مكان الخضار. ولكن الجميع كانوا حيارى بسماع كلام محمد البسيط والحلو. وإذ أنه يتحلى في صغر السن، بهذا الإعجاز في الكلام، فإن الفصاحة وحسن الكلام ستفتخر بهذه الشفاه في كبر السن.

وحينما كان محمد يشرب لبن شاة لمرضعته حليمة، فيترك منه نصيب أخته من تلقاء نفسه. فلا يمس الضرع الثاني بفمه. وبرؤية صفات العدل والاعتدال والتعقل في صغر سنه، كان أفراد عائلة حليمة يقولون إنّ الدر اليتيم لعبد الله سيملأ العالم كله بعدله وإنصافه وخيره. وصدق ما قالت أمه، عندما يكبر طفلها فسيكون له شأن عظيم، وطبعًا سيتحقق كل حلم لهذه السيدة الصالحة.

ظل بيت حليمة يحظى بهذه السعادة والبركة، وقد أزالت بركة محمد كافة صعوباته وأحزانه. وإنهم كانوا يدعون ليكتمل لديهم، هذا البرعم الناشئ لبستان هاشم، زهرةً. لن تنفصل عنا هذه السعادة، ولكن لم يكن بالإمكان تحقيق ذلك، لأن القدير شاء أن يجعل هذه السعادة مضيئة للكون وفاتحًا للعالم، ولم يكن هذا الضياء خصيصًا لأي مكان وبيت، إنما كانت لصالح الخافقين. وكان من المقرر أن يتلألأ بهذا النور، مشارق الأرض ومغاربها، ولتمطر سحابة رحمة على المراعي والميادين الجرداء كلها.

وكان محمد في الخامسة من عمره حينما أعادته حليمة إلى بيت آمنة، وسلمت الأمانة إلى الأم، وكان هناك ومضات من الفرح والحزن، كانت آمنة تفرح بلقاء قرة عينها،

أما حليمة فينتابها حزن فراقه، وعلى شفتي الواحدة بسمات، وفي عيون الثانية دموع، كانت هذه الفرحة مسعودةً، وهذا الحزن أيضًا مباركًا بأنّ صلاتهما كانت بشخصية واحدة وبوجود واحد. ورجعت حليمة، تاركة وراءها مجموعة من الأماني والأحلام مع محمد، وفي حين وصلت إلى منزلها فوجدت الجدران والأبواب كلها خرِبةً وخالية عن الرونق والبهاء، كأنّ الربيع قد غادر هذا البيت.

ISSN: 2321-7928

الجامعة الملية الإسلامية

(حلقات متسلسلة لترجمة كتاب "قصة الجامعة" لعبد الغفار مدهولي)

﴿12﴾

- عبد الغفار المدهولي[1]

ترجمة من الأردوية: د. هيفاء شاكري[2]

السنة السابعة عشرة

من أغسطس 1936م حتى يوليو 1937م

والآن هيا بنا نتوجه إلى أوكهلا!، ولكننا سندعوها في المستقبل، "جامعة نغر" بدلًا من أوكهلا. عندما ينشأ حيّ جديد فيطلق عليه اسم جميل، فيما وردت عدة مقترحات، واقترح شخص بأنه ينبغي إطلاق اسم "أجمل نغر" عليه، تذكارًا للمغفور له الحكيم أجمل خان، ولكن اسم "جامعة نغر" ينطق بالتعليم والتعلم، فنظراً إلى هذا الغرض الذي تم هذا الاستيطان لأجله، فاتفق الجميع بالإجماع على إطلاق اسم "جامعة نغر".

انقسم طلاب المدرسة الابتدائية إلى فئتين خلال مرحلة الانتقال، فأرسل الطلاب المقيمون في المدرسة إلى جامعة نغر، وتم إبقاء الطلاب غير المقيمين في قرول باغ، وكان أهالي المدينة بحاجة إلى هذه المدرسة، وتم تحديد مدرسة جامعة نغر كمدرسة ابتدائية مركزية، باعتبار مدرسة قرول باغ كفرع لها، وسميت بالمركز تعليمي، وعُيّن طالب الجامعة السابق السيد أحمد علي آزاد كمشرف لهذه المدرسة، وبدأت الأقسام الأخرى للجامعة أعمالها حسب العادة في قرول باغ، لأنه لم يكن من الممكن انتقالها آنذاك.

[1] كان مدرّسًا في مدرسة الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي

[2] مشارك في التحرير وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي

وكان مبنى جامعة نغر هذا غير مكتمل، في حين كان يتم بناء فرش الصالات، مما كان يحول دون الإياب والذهاب، ويتم رش العمارة بالماء، لا يمكن فرش أي شيء في الغرفة، وبينما كان يتم إصلاح أرضية عدة غرف، وكان الطلاب يعرفون بأن هذه الغرف لهم، ولكنهم كانوا يسكنون في مكان آخر، ولم تكن النوافذ والأبواب موجودة في المبنى كله حتى الآن، وكانت هناك أكداس وأكوام من الطوب والأنقاض في كل مكان. وكان الميدان غير ممهّد، حتى قاعة محمد علي لم تكن قد بنيت ولو بشكل مؤقت، ولم تتوافر الحمامات، فيتوجه الناس إلى الغابة لقضاء الحاجة في الصباح.

والصفة الجيدة في طبائع الأطفال، أنهم يجدون المتعة في الأمور التي تحدث حواليهم، بعيدين عن التفكير فيما مضى وما هو قادم، وقد تعود أساتذة المدرسة الابتدائية أيضًا على هذه الأمور بسبب المكوث معهم. لذا كانوا قادرين على خلق فرص المتعة رغم عدم توفر وسائلها، فانتهازًا من ظل كومة من الطوب، على سبيل المثال، قد جلس أستاذ في هذا الظل، مع أعماله وحساباته حسب الموعد، وكانوا يفهمون رش الماء في الغرف كأنه يتم رش الماء على أبواب من أعشاب الخس. ولم يكن هناك درابزين على الأدراج، فكانوا يفهمون كأنهم يتدربون على صعود الجبال. وقرأ السيد رشيد أحمد صديقي في ذلك الزمن، عددًا من المقالات في إذاعة دلهي، حول عناوين شتى مثلاً: "عند ظهور الفيضانات"، و"عند تفشي الوباء"، و"عند وقوع الحادثة" وغيرها. لو كان السيد رشيد معنا لوجد عنوانًا جديدًا أي "خلال الإقامة في المبنى قيد الإنشاء". ولو ركزنا على المصائب والمشاكل لكان من الصعب علينا الإقامة هنا بضعة أيام. وكان القلق سيطر علينا، وهذا هو الفرق بين كسير الخاطر ورابط الجأش. إذ قرر أساتذة المدرسة الابتدائية وطلابها الظرفاء بأن يواجهوا هذا الوضع ولكنهم لن يقيموا في المبنى المستأجر، والأمر المهم فيما يخص الإيفاء بكلماتهم، بأنهم لن يشكوا إلى أحد أيضًا.

وفي هذا العام، كانت إدارة شؤون المطبخ أمرًا خاصًا، لأنه كانت هناك فرصة

جديدة لترتيب كافة المهام والأمور في جامعة نغر بشكل جيد، فابتدأ هذا الأمر من شؤون المطبخ، وتم تزويد كل خادم لأجل طبخ الطعام، بملابس جاهزة مثل بنطلون قصير، وكرتا، وفوطة الشيف (غطاء أبيض) وغير ذلك. وكان المغفور له السيد أكبر، مشرف المدرسة، له ذوق جيد في شؤون الطعام والشراب، لذا حسب مذاقه، تم شراء أنواع خاصة من الأواني للطلاب.

وكان من الضروري أن تشمل قائمة الأطعمة توفير اللحم في وجبة طعام والخضروات في الوجبة الثانية. وكان يتم إعداد قائمة الأطعمة حسب المواسم والخضروات المتوفرة في السوق. وكان هناك اهتمام خاص لتوفير وجبات السحور والإفطار. ولأجل التشجيع على الوجبات المتنوعة، كانت البرامج تعقد بمسميات: الوجبة الألمانية، الوجبة البشاورية، الوجبة الدكنية وهكذا. وكان اسم الشيف أحمد ضامنًا للذة الطعام، وكانت قدرة السيد منشي محمد خان على الكيل والوزن، تجعلها متوازية، وكان السيد منور والسيد رشيد من أصدقاء أحمد. وبعد فترة، تم تكليف السيد مشتاق بمهام رئيس الطباخين، والذي زاد مستواه. ومن الضروري أن نوضح هنا بأن رسوم الطعام التي كانت تؤخذ منهم، كانت تنفق كلها على طعام الطلاب. ولم يكن لها شأن خاص بالوضع المالي للجامعة، مما يعني أنّ زيادة ونقصًا في الأموال لم تكن تؤثر على طعام الأطفال أيّ تأثير، بل إن الجامعة رغم كونها مديونة، كانت تنفق مبلغًا خاصًا من ميزانيتها، على طعام الأطفال، لذا لم تكن تتأثر وجبات حفل عشاء العيد، وعشاء حفلات التوديع في مواسم الصيف والشتاء، ووجبات خاصة بمناسبة الأعياد وغيرها من البرامج الأخرى بأي تأثير سلبي، وكانت مسؤولية إدارة المطبخ على عاتقتي في تلك الأيام. فكان ذوق الطعام لدى السيد أكبر وتنظيم السيد حفيظ أجبرني على عقد حفل عشاء العيد هذا العام بطريقة رائعة ليكون مثاليًا، لنتمتع بها بأحسن طريقة، وقد تم توجيه الدعوات إلى الأساتذة المقيمين في قرول باغ بشكل خاص. وتم تقسيم بطاقات الدعوة إلى ثلاثة أجزاء (1) بطاقة

الدعوة (2) آداب الاحتفال (3) تم نشر عدة أبيات فكاهية للشاعر أكبر الإله آبادي، تحت عيد مبارك في بطاقة الدعوة، وتم توجيهها إلى كل طالب وأستاذ، وتم تسجيل رقم الطابور ورقم الجلوس فيها وأرسلت الدعوات ذات الأسماء الخاصة، لجميع طلاب الصف الأول والثاني أيضًا، لتكون عند الدخول بمثابة تذاكر وليجلس الجميع على مقاعدهم حسب الترقيم. وتم إعداد الورقة إلى ثلاثة أجزاء بحيث تصبح يعد لفها بطريقة معينة، كتيباً، وهكذا تم تسجيله حسب الترتيب التالي:

الصفحة الأولى (رسالة)

مطبخ، جامعة نغر، دلهي،   بسم الله

22، فبراير، 1937م

8 ذي الحجة 1355م،

سعادة السيد المحترم، السلام عليكم

سيتناول جميع أفراد الجامعة معًا، عشاء اليوم الثاني من أيام العيد، في الساعة الثامنة مساء، في قاعة المطبخ.

يرجى من سعادتكم التكرم بحضور العشاء.

مشرف شؤون الطعام

إلى مقامكم الكريم السيد ....

الصفحة الثانية (آداب الحفل)

1. البدلة
2. لباس العيد الخاص مع طاقية بيضاء من القطن.
3. منديل لشمامة العنبر (عطر)

4. دخول

ا. سيسمح لكم بالدخول من الباب الشرقي عند رن الجرس.

2. يرجى منكم الجلوس في الطابور رقم..............وعلى رقم المقعد............في القاعة

3. يدخل شيخ الجامعة مع الأساتذة، فيقف الحضور.

4. في حال الجلوس.

1.سيتم وضع العطر على المنديل

2. سيبدأ الطعام بإذن كلمة باسم الله، من قبل المشرف.

3. يرجى منكم أن ترفعوا أيديكم، إذا احتجتم لأي شيء

4. بعد الطعام.

1. قصائد شعرية للعيد. 2. كلمة الشكر

(يلقي شيخ الجامعة خطابه بمناسبة حفل التوديع المصحوب بالعشاء، وسيأتي تفصيله لاحقًا.)

3. سيكون الخروج من نفس الباب حيث وضعت أدوات غسل الأيدي في المكان الأمامي.

الصفحة الثالثة (عيد مبارك)

في مكان توجد فيه قدر، موقد وتنور

وفي نفس المكان، لقدرة الخالق ظهور

يا صاحبي، النار التي تشتعل أمام الموقد

هذا هو نور خاص وسط سائر الأنوار

وتُرى الأرغفة بسبب هذا النور

(نظير أكبر آبادي)

ألف السيد محمد شفيع الدين نير كتّابين رائعين للنظم باسم "هدية الأطفال" لأجل الطلاب. وكان النظم في كل موضوع، لذا كان الطلاب يستفيدون من هذه الهدية في جميع الحفلات، وكان المدعو صبوح الدين، طالب الصف الخامس، قد أنشد نظم "هلال عيد" للشاعر نير بمناسبة حفل العشاء هذا العام.

وبمناسبة حفل العشاء الذي يقام قبل عطلات الصيف والشتاء. كان شيخ الجامعة يلقي خطابه، وفيما يلي نكتب خطاب ألقي بمناسبة حفل العشاء قبل عطلة الشتاء لهذا العام.

أعزائي!

بعد مضي بضعة أشهر الآن أنتم تستعدون للذهاب إلى بيوتكم، حيث ستلتقون بأبائكم وأمهاتكم وأخوانكم وأخواتكم وأقربائكم، فبعضكم قد اشترى ألعوبة لأخته الصغيرة، ويذهب بعضكم بكتب من المكتبة لأخيه، فهنيئًا لكم هذه الفرحة بالتوجه إلى بيوتكم، أدعوا الله أن تصلوا إلى بيوتكم وكل أفراد الأسرة بموفور الصحة والسعادة، ولابد أن تكون هناك فسحة راحة بعد كل جهد واجتهاد، فينبغي أن تتوافر لكم أيضًا، فرصة الراحة والاستراحة بعد الجهود التي دامت لعدة أشهر، ولكن جهودكم تمثل في نوع آخر لا تكون استراحته مثل استراحة الجهود الأخرى، لأن العمل السابق يتوقف خلال الاستراحة الأخرى ولكن العمل يجري خلال هذه الراحة، وطبعًا إن عمل التعليم لا يتوقف إلى الأبد، فيما يأتي تارة، الوقت لزرع البذور، وتارة أخرى لحصد المحاصيل.

فالآن أنتم تتوجهون إلى بيوتكم في وقت العطلة والراحة وعليكم أن تقدموا نتائج هذا العمل الذي دام خمسة أشهر، أمام أقربائكم، وهم لن يقولوا لكم شيئًا إلا أنهم سيستمعون إلى كلامكم، بعناية، وينظرون إلى أسلوب حياتكم، إذا تصرفتم بثقافة وجدارة وذكاء أكثر من قبل، فهذا سيملأ قلوبهم فرحة وابتهاجًا. وإذا اتضح بأنكم في نفس الحال، فإنهم سيظنون بأنكم ضيعتم هذه الأيام كلها. وأنا على أمل بأنكم لم تخيبوا ظن أقربائكم. وإن أكبر جائزة مقابل الجهود التي بدلها أساتذكم هو أن تثبتوا في بيوتكم أنكم قدمتم في أحسن حال علمًا وثقافة، إنكم تعلمتم درس النظافة والتنظيف في هذه المدرسة، فلازموا النظافة في بيوتكم، وأنتم استيقظتم في الميعاد هنا، ونمتم في الميعاد، وأكلتم في الميعاد، وعملتم في الميعاد، وتعلمتم درس أداء الصلاة في أوقاتها، فلا تنسوا هذه الأمور في البيوت. وأنتم تعلمتم هنا التعايش وطريقة العمل بشكل مشترك. لا تتشاجروا في البيوت مع إخوانكم وأخواتكم لئلا تثبتوا لأنهم قد نسيتم كل الدروس بعد أن خرجتم من هنا. وتعلمتم هنا كيفية احترام الكبار. فلابد أن تحترموا أولياءكم وكبارکم في البيت، إذا حافظتم على هذه الدورس كلها فتعتبرون طلابًا صالحين لهذه الجامعة، مما يزيد مدرستكم شهرة، هذا سيصنع كل ما نريد تحقيقه أي أفضل مدرسة للأطفال في الهند، ونحن نعتز بها جميعًا وقد يفتخر بها شعبنا. هذا والسلام عليكم. رحلة سعيدة عليكم.

تعالوا نتوجه إلى المدرسة، ما هذا الجمع الحاشد في القاعة. اتضح بأنه تنعقد الجلسة السابعة لدكان المصرف، تم إعداد معظم التقارير، فاسمعوا الجزء الذي يختص بهذا العام.

أيها الحضور!

بعد مضي أربعة أشهر من بدء العام السابع من البنك، انتقلنا إلى منطقة جامعة نغر هذه، فكانت الحاجة لتبقى هذه الأقسام في كل من مكان التعليم الأول (1) وجامعة نغر، لذا تم توزيع رأس مال البنك والدكان إلى سهمين متساويين، وتم إرسال مبالغ خاصة لأعضاء البنك في مناطقهم. علاوة على هذا، حصلت كل

مدرسة على أموال بقيمة مئة وخمسين روبية من تقسيم الأملاك الشخصية، وعلى نفس المنوال، كُلّف كل واحد بتسوية قرض يساوي مئة روبية.

وكان جميع أعضاء مؤسسات الجامعة الكائنة في المدينة، ضمن المدعوين لهذه الجلسة، وتحمل كل من البنك والدكان والمطبخ نفقات مترتبة على الأطعمة، بينما دفع الجميع بكل سعادة، تكاليف السفر التي تكبدتها اللوريات في نقلهم من قرول باغ، وطلب من مطبخ منزل الثانوية والعليا رسوم طلابهما. وهكذا، لم يتحمل أحد أي عبء، وانعقد حفل مشترك.

هيّا نشاهد الآن صفًا واحدًا، واللافتات لاصقة على الجدران، اسألوا أي طالب من الصف ما هذا؟ ولكن كيف يجيب طالب الصف الآخر على هذا؟ لا داعي للقلق. ولهذه المدرسة ثقافة وعادة تتمثل في أن الطلاب يستطيعون إفهام الضيوف عن أعمالهم، ولا يخشى هؤلاء الطلاب الضيوف، لكنهم يحترمونهم ويتعاملون معهم بأدب.

حسنًا، يا بني! ما هذه الجداول على الجدران؟ فبدأ سليمان مشهود يقول، وهو يدنو من الجداول، مشيرًا إليها:

تفضلوا، لهذه الجداول ثلاثة أجزاء، وكل جزء بحجم دفتر، وكُتبت كلمة "أردو إملاء" في زاوية أعلى الدفتر، وفي الجزء الثاني "مقالاتنا"، وفي الثالث "حساب"، وفي نهاية كل شهر، يعلق نموذج من أعمال هذه الأجزاء الثلاثة، فنتعرف على مستوانا في شهر أغسطس، وكيف كنا في سبتمبر. وكيف الوضع الحالي الآن؟ وها هو ذا! كانت الأخطاء الإملائية تقع بكثرة في شهر أغسطس ولكنها الآن أصبحت قليلة جدًا، ها هي مقالتي الأولى، وها هو حساب ذلك الشهر، وأنا أضحك حتى الآن، عندما أرى أعمال أغسطس.

وقد أعجبت لجنة المعاينة لهذا العام والتي تضمنت كلًا من الخواجه غلام السيدين، والخواجه عبد الحي والبروفيسور محمد عاقل والدكتور سيد عابد حسين، بهذا النوع من العمل.

وشهدت مباراة "كأس محمد علي" هذا العام بنفسه، تعديلًا أدرجت فيه مسابقة

للألعاب البهلوانية أيضًا إضافة إلى مسابقات الكتابة والخطابة. وقام مشرف المدرسة باتخاب السيد عبد الغفور لإجراء هذا التعديل. وكان هذا الانتخاب معقولًا. لأن عبد الغفور كان يشارك في الألعاب أيضًا بجانب التعليم والتعلم. وكان يفهم طبائع الأطفال، مما كان يساعده في التدريس.

وفي هذه الجلسة، قام السيد أين. آر. ملكاني، ناظر شؤون حي الطبقة الدنية (هريجن) (دلهي)، بتوزيع الجوائز، وخاطب:

أنتم صغار، يحق لكم أن تلعبوا وتلهوا وتقفزوا وتلقوا الخطب بكثرة، ولكن هناك أمر، حينما تكبرون سنًا فتحدثوا قليلًا وفكّروا كثيرًا، واعملوا أكثر مما تفكرون، وأنا أقصد العمل بالخدمة، وخدمة لمن؟ أنتم تعرفون هذا.

بسبب كونهم بعيدين عن المدينة، كان يصعب على الأطفال الحصول على الفواكه، وأضافت هذه الحاجة إلى إنشاء قسم "البائع الجوال"، والذي يديره البنك، ولكن تم تكليف جماعة مستقلة بترتيب أمور هذا القسم، وبهذه الطريقة، سنح للبنك فرصة جيدة لاستثمار نقوده في تجارة ما. وكان الطلاب يكملون مقرراتهم الدراسية الخاصة بالفواكه والخضراوات بموجب مشروع البائع، وكانوا يقومون بأعمال الرسم، ويمارسون أعمال الحساب، ويتعلمون طريقة معاملة الأخذ والمنح، ولا يرون أي عيب في بيع الأشياء متجولين هنا وهناك خلال حفلات العيدين مقابل الألعاب، ويزينون الدكاكين.

كيف يمكن ألا يتواجد مجلس البلدية في المنطقة التي يتم فيها إنشاء حيّ، ولاسيما في حال وجود درس "مجلس البلدية" في مادة المعلومات العامة بموجب المقررات الدراسية للصف السادس، كان السيد حفيظ قد حصل على فرصة جيدة لتنفيذ هذا المشروع في الصف السادس، فطلب من الطلاب أن يقيسوا مساحة منطقة جامعة نغر، وأن يحددوا حدودًا لمجلس البلدية. فتم تقسيم عدد السكان إلى فئات مختلفة، وأمر بإعداد قائمة الناخبين، وتم الإعلان عن شروط التصويت، وتم طلب الترشيحات، وأقيمت

مراكز الاقتراع، وأجريت الانتخابات، وبدأ عمل الإشراف على أعمال النظافة والإضاءة. وتم صرف انتباه مشرف المدرسة إلى أشغال الطرق والشوارع. وتمت محاكمة من يبول في حدود مجلس البلدية، وفيما بعد صار المجلس جزءا من حكومة الطلاب.

تمت الرقابة على من يكتب على الجدران، وحوسب من رمى الأوراق في الطرقات، وقدم مجلس البلدية خطاب شكر إلى مقام الزعيم الهندي الشهير خان عبد الغفار خان، والذي يتسلم كثيرًا من خطابات الشكر إلا أن من الأغلب بأنه استلم خطاب شكر لأول مرة في حياته، من قبل طلاب المدرسة الابتدائية.

وفي عطلة من عطلات العيد، سافر طلاب الصف الرابع إلى مدينة آغره تحت إشراف السيد مجتبى حسين، ليستفيدوا استفادة تعليمية، وربما استفادوا ولكن ما طاب لهم الخروج من حرم التاج محل في الليلة المقمرة.

هيا نتوجه إلى قرول باغ (دلهي) من جديد، لأن الجهات الإدارية كلها تتواجد في تلك المنطقة حاليًا ماعدا المدرسة الابتدائية.

يدعم السيد أحمد علي، مشرف المركز التعليمي الأول، العمل بموجب المشروع. باعتقاده أنّ الأستاذ إذا كانت لديه رغبة فيمكنه تدريس كافة المواد بهذه الطريقة. وأكيد، عليه أن يبذل الجهود الإضافية لإجراء المزيد من التمرينات في مادة الرياضيات.

وتم تنفيذ العديد من المشاريع في هذه المدرسة سنة تلو الأخرى، كتب من شاهد بأم عينيه، عن حال مشروع النباتات الخاصة للسيد أحمد علي كما يلي:

"كان قد تم إعداد بوابة المدرسة اليوم، باستخدام الخضراوات متزامنًا مع عنوان جلسة اليوم. وقع النظر خلال الدخول، قبل كل شيء، على خريطة الهند. والتي كانت موجودة على الأرض، وكان قد تمت المراعاة في صنعها، طول البلاد وعرضها بدقة، وهبوط وارتفاع السطح، وجهات الأنهار وصحة الأماكن والمواقع كلها بكل

دقة. كما وجدت فيها مستنقعات مانسرور، وأشهر قمم الجبال في سلسلة من جبل هملايا. ولم تقصد هذه الخريطة إلا إبراز نباتات البلاد، وكانت في فناء المدرسة، أرضيات لأنواع مختلفة من الأزهار والخضراوات، وكان هناك عدة أنواع من بذور الأزهار والفواكه في جانب، وفي جانب آخر، وقعت الأنظار على كتيبات عديدة، كانت أسماء بعضها قمح، وأرز ولفت وفجل، وكانت هذه كلها مقالات أصلاً، كتبها الطلاب بشكل جيد ثم جعلوها في شكل الكتب، عندما دخلنا عبر الفناء، كانت القاعة مكتظة، حبث حضر الجلسة، كثير من الناس من دلهي ودلهي الجديدة بجانب قرول باغ. وكانت الصور المختلفة معلقة في كافة الجوانب، وتم تزيين الخضراوات والغلات والفواكه على الطاولات بشكل جميل.

وبعد ذلك، شاهدنا إجراءات الجلسة.

إن زيارة المواقع التاريخية من قبل أهالي دلهي، تعتبر نزهة. وإذا كان مؤرخ مثل البروفيسور محمد مجيب برفقة الطلاب، فتزداد فائدة هذه النزهة. بناء على طلب طلاب المدرسة الثانوية، رافقهم كمرشد. كان السيد سعد الأنصاري مسؤولًا عن شؤون هذه النزهة.

رحبت جميعة الاتحاد بعدد من الضيوف، واستفادت منهم، وقد سبق أن زار مولانا ثناء الله الأمرتسري الجامعة إلا أن هذه هي المرة الأولى التي ألقى فيها خطابه. وقال فيها إن المؤسسات التعليمية للمسلمين إما أنها تهتم بالتعليم الديني فقط أو هناك مؤسسات تعليمية أخرى تعتبر التعليم الديني مادة فرعية، وقد أعرب عن سعادته بأن الجامعة قامت بإعداد مقرراتها الدراسية نظراً إلى هذه العيوب، مما يساعد طلابنا في جعلهم مسلمين يكونون قدوة للآخرين.

ومن ميزات هذا العام، الخطاب الذي ألقاه مولانا عطاء الله شاه البخاري، اهتم شباب جمعية الاتحاد بتنظيم هذا الخطاب، وكان المولانا نموذجًا يحتذى به في الخطابة.

وأثار كل من ثاقب وجوش حماس القلوب في هذه الجلسة، ومن أكبر إنجازات المسؤولين بمن فيهم السيد محمد طيب، نائب الرئيس، والسيد عبد الملك، الناظر، هو إنشاء حلقة مطالعة هذا العام. فيما كان يقدم طلاب الكلية آراءهم حول عنوان بعد أن يقرؤوا كثيرًا من الكتب في الحلقة، وكان يتم إنجاز هذه المهام تحت إشراف البروفيسور محمد عاقل، الذي له رغبة في المطالعة. سبق أن اشتغل كمدير مجلة الجامعة لمدة، وله شغف في الشؤون السياسية أيضًا، وهو أستاذ في علوم الاقتصاد.

ومن ميزات هذا العام ميزة تمثل في بدء سلسلة من الخطابات تحت رعاية قسم الشؤون الدينية، وإن خواجه عبد الحي، مسؤول عن الشؤون الدينية، بروفيسور في الدراسات الإسلامية. وقد ألّف تفسيرًا للقرآن الكريم للكبار وكتبًا أخرى باسم "رسولنا" و"الخلفاء الأربعة" للأطفال. واستجابة لدعوته، ألقى أشهر العلماء كلماتهم في الجامعة، وبهذه الطريقة نسبوا أنفسهم إلى الجامعة، وفيما يلي العناوين:

غرض القرآن: مولانا أحمد علي، أمير جمعية خدام الدين، لاهور

أمثال القرآن: مولانا نجم الدين، أستاذ سابق في كلية أورينتل، لاهور

تقسيم الثروة في الإسلام: مولانا غلام مرشد، أستاذ نخري، الكلية الإسلامية، لاهور.

الإسلام والقضايا الحالية: مولانا أبو البركات حكيم عبد الرؤف الدانا بوري

حديث: مولانا محمد إبراهيم السيالكوتي

المنهج التعليمي للعلماء القدامى: مولاناحبيب الرحمن خان رئيس يارجنغ بهادر

وشارك في إلقاء هذه الخطب، كلٌ من المفتي كفايت الله، ومولانا أحمد سعيد، ومولانا أبو المحاسن محمد سجاد، مولانا عبد القادر القصوري، مولانا بشير أحمد، مولانا حفظ الرحمن، ملك نصر الله خان عزيز، مولانا حامد الله أنصار الغازي.

شاركت مجموعة مكونة من أساتذة الجامعة وطلابها، في الجلسة القيمة لمؤتمر المسلمين

التعليمي، وترأس الدكتور ذاكر حسين جلسة التعليم الثانوي للمؤتمر، وقدم البروفيسور محمد عاقل، الحاصل على شهادة الماجستير (خريج جامعة علي غره الإسلامية) مقالًا عن قضية عدد سكان الهند في جلسة علوم الاقتصاد وإصلاح المجتمع.

وتم تقديم كافة الأعمال التي يقوم بها الطلاب في الصف بخصوص دراستهم وتعليمهم، إلى العرض التعليمي للمؤتمر، والتي نالت إعجابًا كبيرًا، وقد حددت غرفة خاصة في الجامعة، لأجل عرض المعروضات. وفيما يخص المعروضات، حصلت الجامعة على أكثر من عشرين جائزة، كما تم اعتبار الجامعة مستحقة لوسام بسبب تقديم أكبر عدد من المعروضات. وقد أعجب بهذه المعروضات، كل من له شغف في تعليم الأطفال، إعجابًا بالغًا، حتى قال مدير شؤون التعليم لولاية يو. بي. المتحدة السيد وير إن كل ما خطر ببالي من مقترحات حول طريقة التعليم، يتواجد بشكل عملي في معرض الجامعة. وقائمة ضيوف هذا العام طويلة، وجاء ذكر عدد منها في سياق الجلسات.

وهناك خبر مؤسف للغاية أيضًا وهو أن نائب محاسب جامعتنا السيد محمد يوسف تابان الذي كان مريضًا منذ فترة، قد انتقل إلى رحمة الله. وتأثر بموته المبكر، جميع أفراد أسرة الجامعة. علمًا بأنه كان أول مدقق لبنك الأطفال أيضًا. وقدم كل ما في وسعه في إصلاح وضع البنك وأفهم أركانه طريقة الاحتفاظ بالحسابات. وبعده، ساعد السيد بشير أحمد الأنصاري بصفته نائب محاسب البنك.

وبعد وفاة الدكتور الأنصاري، قام المجلس الأعلى للجامعة الملية الإسلامية في جلستها المنعقدة في 23 مايو 1937م، بتعيين السيد عبد المجيد خواجه أميرًا للجامعة.

حينما كانت الجامعة في منطقة قرول باغ، كان كل أطباء وحكماء الكلية الطبية يعتنون بأعضاء الجامعة وطلابها، ويخص بالذكر الدكتور عباس، والدكتور شرما، والدكتور ظفرياب، والدكتور محمد علي، والحكيم فريد أحمد. وبعد أن انتقلت الجامعة إلى منطقة جامعة نغر، جعل الدكتور شرما خلفه شخصًا أصبح بمهارته وظرافته، محبوبًا لدى الجميع.

هو الدكتور بهادر. وقد جرت بعض التعديلات الأخرى لاحقًا. على كل، صادف أن اجتمع الدكتور مع أصدقائه مرة أخرى، وقال ذات يوم: "إن الأنس الذي احظى به في مجتمع الجامعة، قلما أجده في أي مكان آخر".

وفي مارس عام 1935م، عندما تم وضع حجر أساس الجامعة، فأعلن آنذاك، السيد رغهونندن سرن المدير الإداري لشركة بيارى لال أيند سنسز جمعية "أشرفي ديوفي" ستقدم سيارة لوري، للجامعة بمناسبة انتقالها إلى هنا، وتم الإيفاء بهذا الوعد في نفس العام، وتم وتسليم هذه السيارة لوري، إلى السائق فريد أحمد.

وفي أواخر هذا العام، بلغ عدد المتبرعين إلى 5 آلاف شخص، وإجمالي مبلغ التبرعات لهذا العام، 25 ألف روبية، وكانت تنفق هذه المبالغ لأجل تسديد نفقات حماة المكتب والقائمين باستلام التبرعات.

ISSN: 2321-7928

التسامح والتعايش الإنساني في الإسلام
(عصر الخلافة الراشدة) نموذجًا

- د. محمد حسن محمد إمام الباشا[1]

ملخص

جاء الإسلام مؤسسًا لمبدأ التعايش بين الأمم والشعوب، والإنسانية اليوم تتطور في ظل حضارة عالمية تميز بالتعدد الثقافي، وليس ثمة ثقافة موحدة، وهذا الاختلاف الإنساني في نظر الإسلام ليس مدعاة للحروب والصراعات، وإنما هو للتفاعل الإيجابي والتعاون والتعارف.

كان عصر الخلافة الراشدة (11-40هـ/632-660م) استمرارًا لرسالة الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وفي نفس الوقت كانت نقطة تحول في تاريخ الإنسانية، فقد حمل الإسلام القيم والمُثل التي يسير عليها المسلمون عبر تاريخهم، كما كانت تلك الرسالة التي وصلت إلى أنحاء متفرقة من العالم المعروف آنذاك، بمثابة شعاع أمل وضع الإنسانية على مدارج الرقي الروحي والخلقي والإخاء الإنساني، ويمكن القول: أنّ عصر الخلفاء الراشدين -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- كان عصر التنوير والتسامح والمساواة في الإسلام دون تمييز بين جنس أو لون أو دين.

الكلمات المفتاحية: التسامح، التعايش، الخليفة، البطريرك، المقوقس، أهل الذمة

مقدمة

تُعدّ قضية التسامح والتعايش السلمي بين المجتمعات الإنسانية من القضايا المعاصرة التي يثور

[1] أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية بمنيسوتا

حولها جدل واسع، ويرجع ذلك إلى المعاملة الظالمة والعنصرية التي لحقت ببعض الشعوب في الماضي، لكن في ظل تحولات المجتمع الدولي، بسبب وتيرة التغيير المذهلة والصراعات في العقود الأخيرة، كان لا بد من الوقوف على أساليب التعايش كحلّ يقدم ليحول دون صراعات الهوية الحضارية للشعوب، فقد جاء الإسلام مؤسسًا لمبدأ التعايش بين الأمم والشعوب، والإنسانية اليوم تتطور في ظل حضارة عالمية تتميز بالتعدد الثقافي، وليس ثمة ثقافة موحدة إذ يقول الله سبحانه وتعالى: "وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ" (سورة هود: 118﴾، وهذا الاختلاف الإنساني في نظر الإسلام ليس مدعاة للحروب والصراعات، وإنما هو للتفاعل الإيجابي والتعاون والتعارف.

كان عصر الخلافة الراشدة (11-40هـ/632-660م) استمرارًا لرسالة الرسول (صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وفي نفس الوقت كانت نقطة تحول في تاريخ الإنسانية، فقد حمل الإسلام القيم والمُثل التي يسير عليها المسلمون عبر تاريخهم، كما كانت تلك الرسالة التي وصلت إلى أنحاء متفرقة من العالم المعروف آنذاك، بمثابة شعاع أمل وضع الإنسانية على مدارج الرقي الروحي والخلقي والإخاء الإنساني، ويمكن القول: أنّ عصر الخلفاء الراشدين- رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ- كان عصر التنوير والتسامح والمساواة في الإسلام دون تمييز بين جنس أو لون أو دين.

أهداف البحث:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى توضيح مفهوم التعايش والتواصل مع الآخر في الإسلام- خاصة عصر الخلافة الراشدة- والوقوف عليه من خلال نظرة تاريخية، والنظر في الآيات القرآنية التي دعت إليه، وكذلك التأمل في التعايش والإخاء الإنساني في ضوء حكم الخلفاء الراشدين الذين ضربوا لنا أروع الأمثلة في التاريخ للتعايش السلمي، والتأكيد على ضرورة التعايش مع الآخر في العصر الحديث.

أهمية البحث:

تتجلى أهمية هذا الموضوع في تسليط الضوء على ضرورة التواصل والتعايش المستمر

لمختلف الشعوب والحضارت، مما يشكل مصدرًا للتفاهم والصراع في آن واحد، وتزداد أهميته اليوم إذا علمنا أن الإسلام مستهدف، وأن المسلمين يتعرضون لحملات ترمي إلى تشويه صورتهم.

المنهج المستخدم:

يتناول موضوع البحث مادة تاريخية، فبالتالي يتناول الباحث المنهج التاريخي نسبة إلى تسلسل الأحداث التاريخية مع المنهج الوصفي، وذلك لوصف بعض العوامل السياسية والدينية لفتوحات الخلفاء الراشدين، مع استخدام الموضوعية الكاملة في نقل ما جاء على لسان المؤرخين ورجال الدين، كما استخدم في الدراسة المنهج الاستقرائي الذي يعتمد على شمولية النظرة ، وكذلك المنهج التحليلي.

وتدور محاور البحث حول النقاط التالية:

أولًا: التسامح والتعايش الإنساني في عهد الخليفة أبي بكر الصديق (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)

ثانيًا: التسامح والتعايش الإنساني في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)

ثالثًا: التسامح والتعايش الإنساني في عهد الخليفة عثمان بن عفان (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)

رابعًا: التسامح والتعايش الإنساني في عهد الخليفة علي بن أبي طالب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)

أولًا: التسامح والتعايش الانساني في عهد الخليفة أبي بكر الصديق (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)

لقد سار الخليفة الأول أبو بكر الصديق (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) (11-13هـ/632-634م)[1] على

[1] أبو بكر الصديق (50 ق.م-13هـ/573-634م): خليفة رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، اسمه عبد الله بن أبي قحافة عثمان، وقيل اسمه عتيق، وأجمعت الأمة علي تسميته بالصديق، وهو أول من أسلم من الرجال، وفي خلافته أول من حارب المرتدين عن الإسلام. انظر: ابن سعد (أبو عبد الله البصري، ت 230هـ/844م)، الطبقات الكبري، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968م، جـ 3، ص264، 265؛ السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، ت 911هـ/1505م): تاريخ الخلفاء، تحقيق: أحمد بن شعبان، القاهرة، مكتبة الصفا، ط 1، 1423هـ/2005م، ص37-105

نفس سياسة الرسول (صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ) من حيث تطبيق مبدأ المساواة والإخاء الإنساني في دولته، فعندما تمت له البيعة في المسجد النبوي الشريف، وقف في الناس خطيباً وهو يقول: "أيها الناس إني قد ولّيت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم"،[1] وهنا استهل أبو بكر الصديق (رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ) خلافته بتطبيق منطق بين الرعية في الدولة الإسلامية.

وفي عصر الخليفة أبي بكر الصديق (رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ)، ومع بداية الفتح الإسلامي كان المسلمون قد فرضوا على أنفسهم روحًا من التسامح الإسلامي مع غير المسلمين ومع كافة الشعوب المغلوبة في البلاد التي دانت للمسلمين، وفي زمن لم يكن فيه العنف يعرف شرعًا ولا عاطفة، أصدر أبو بكر الصديق (رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ) تعليماته التي تظهر قيمة الروح الخلقية للقانون الإسلامي،[2] عندما قال لجنده الذين أرسلهم لقمع حركه الردة في الجزيره العربية:" أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني، لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلًا صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا، أو امرأة، ولا تعقروا نخلًا أو تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم أي اتركوهم وما فرغوا أنفسهم له"،[3] وفي هذه الخطبة نجد أنّ المباديء الإسلامية

[1] ابن هشام (أبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري، ت 213هـ/828م)، السيرة النبوية، القاهرة، المكبة التوفيقية، د.ت، جـ4، ص177

[2] مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ترجمة: عفيف دمشقية، بيروت، دار الآداب، 1980م، ص278

[3] تظهر تلك الخطبة هنا مدى التسامح والروح الخلقية التي تحلى بها الخليفة أبو بكر الصديق ونصيحته لجنده بعدم المساس ببشيء حرمه الإسلام واحترام الغير وعدم اتباع سياسه حرق الأرض وهلك الحرث والنسل، والتي تطبقها إسرائيل الآن في الأراضي الفلسطينية.

تحرص على ألا تجرح الكرامة الانسانية والشرف الإنساني،[1] وتحترم إرادة الشعوب وحرياتها، وعدم اتباع سياسة إبادة الشعوب وكبت حرياتها وتضييق الخناق عليها،[2] كما يحدث اليوم من بعض الدول التي تحاول التدخل وبقوة في حياه الشعوب، ومحاولة كبت حرياتها وعدم احترام إرادتها.

ثانيًا: التسامح والتعايش الانساني في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)

كان عمر بن الخطاب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)[3] مثالًا يحتذى في تطبيق المساواة والعدالة بين الناس كافة، فقد سوّى بين الأمير والسوقة، وأصبح الناس في ظل دولة الاسلام أحرارًا تربط بينهم جميعًا أواصر الرحمة والمودة والعدل، وأصبح أبناء البلاد المفتوحة لهم ما للعرب المسلمين من حقوق، فكثيرًا ما كان ينصح ولاته وعماله في أنحاء الولايات والأقطار المفتوحة بالرفق بالرعية، وكان يقول لهم: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا .. وإني لم بعث الولاه ليضربوا بشاركم ويأخذوا أموالكم،

[1] كولمن، محمد فتح الله: النور الخالد محمد نخر الإنسانية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1999م، جـ2، ص6

[2] بنظرة واقعية وموضوعية لعدم احترام بعض الدول للكرامة والعزة الإنسانية ومحاولة إذلال الشعوب وتركيعها، مثلما حدث من الولايات المتحدة الإمريكية في الحرب العالمية الثانية (1939-1945م) وإلقائها القنابل النووية على مدينتي هيروشيما ونجازاكي باليابان، وقتل مئات الآلاف بدون ذنب ولا جريرة، وما يحدث الآن في العراق وأفغانستان، وما حدث في البوسنة والهرسك في التسعينيات من القرن العشرين، وما يحدث من الصهيونية العالمية إسرائيل في فلسطين عامة وفي غزة بصفه خاصة، وكذلك الاعتداء على الآمنين وعلى سفن قافلة الحرية المتجهة إلى غزة في شهر مايو عام 2010م، وهم جميعًا يتشدقون بالكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان، وهم أدنى الشعوب منزلة في المعرفة بالحقوق والأصول الإنسانية وفي مضمار المحافظة على الشرف والقدر الإنساني للبشرية.

[3] أبو حفص عمر بن الخطاب العدوي القرشي، الملقب بالفاروق، ولد سيدنا عمر بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة، وأسلم في السنة السادسة من النبوة وله سبع وعشرون سنة، وتولّى الخلافة بعهد من أبي بكر في سنة ثلاث عشرة من الهجرة، وكثرت الفتوح في أيامه، حتى قتله أبو لؤلؤة المجوسي سنة 23هـ/644م. انظر: ابن سعد، الطبقات الكبري، جـ3، ص 265- 274 ؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 106- 125

ولكن أرسلتهم ليعلموكم ويخدموكم".[1]

وإذاما تناولنا الفتوحات الإسلامية التي تمت في عهد عمر بن الخطاب (رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ)، نجد أن تلك الفتوحات غرست أملًا كبيرًا وصدى واسعًا في نفوس سكان البلاد التي وصل إليها الإسلام ويمكن القول: إن خصائص الإسلام وتعاليمه وطبيعته القائمة على التسامح والإخاء الإنساني، جعلت كثير من سكان البلاد يرحبون بالفتح الاسلامي، فقد أخرجوا أهالي تلك البلاد من الظلمات إلى النور، ومن الشك إلى اليقين، ومن الإلحاد إلى الإيمان، ومن التعدد إلى التوحيد، ومن العنصرية إلى الإنسانية.[2]

ومع الفتوحات الإسلامية التي تمت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ) يتقرر مصير بلاد الشام في معركة اليرموك[3] عام 15هـ/636م، كما يتقرر مصير بلاد العراق في معركه القادِسِيَّة[4] عام 16هـ/637م، كما يتقرر مصير مصر في معركه حصن بابليون[5] عام 20هـ/641م، ويتقرر مصير بلاد الأندلس في

[1] علي الطنطاوي: أخبار عمر، دمشق، 1959م، ص182- 183

[2] مرعي مدكور: الإعلام الاسلامي وخطر التدفق الإعلامي الدولي، رابطة الجامعات الاسلامية، ط1، 1409هـ/ 1988م، ص35

[3] معركة اليرموك (15هـ /636م)، هي معركة وقعت بين العرب المسلمين بقيادة خالد بن الوليد ضد الإمبراطورية البيزنطية، ويعتبرها بعض المؤرخين من أهم المعارك في تاريخ العالم، لأنها كانت بداية أول موجة انتصارات للمسلمين خارج شبه الجزيرة العربية، وآذنت لتقدم الإسلام السريع في بلاد الشام والعراق. انظر: البلاذري (أبو العباس أحمد بن يحي بن جابر، ت 279هـ /892م) ، فتوح البلدان، تحقيق: نجيب الماجدي، المكتبة العصرية، بيروت ، ط 1، 1428هـ / 2008م، ص141 ؛ ابن الأثير (أبو الحسن علي بن محمد الملقب بعز الدين، ت 630هـ / 1233م)، الكامل في التاريخ، بيروت، 1965م ، جـ2 ، ص 238

[4] دارت هذه المعركة بين المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص والفرس بقيادة رستم، وقد دامت المعركة يومين وليلة، وانتهت بانتصار المسلمين على الفرس وقتل قائدهم. انظر : البلاذري : فتوح البلدان، ص 44

[5] حصن بابليون : هو اسم عامّ لديار مصر بلغة القدماء، وقيل هو اسم لموضع الفسطاط خاصة، وقيل بابليون كان ملكاً من سبأ، ومن ولده عمرو بن امرئ القيس، حيث كان ملكاً على مصر في زمن إبراهيم الخليل، عليه السلام. انظر: ياقوت الحموي (شـهاب الدين أبو عبد الله بن عبـد الله ، ت 626هـ / 1228م)، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1397هـ / 1977م، جـ1، ص311

معركة شذونة[1] عام 92هـ/711م.[2]

وعندما فتح المسلمون بلاد الشام وجاء الخليفة عمر بن الخطاب ليجتمع مع قاده الجيوش الأربعة في الجابية من أعمال دمشق عام 18هـ/639م تم إعطاء أهالي البلاد والمدن المفتوحة الأمان في مقابل حمايتهم وحماية أموالهم وكنائسهم، أو مقاسمة كنائسهم في بعض الأحيان لبناء المساجد بعد دفع التعويضات للمسيحيين وبناء كنائس جديدة لهم.[3]

وتظهر سياسة التسامح الإسلامي في بلاد الشام مدى قناعة أهل البلاد بالفتح الاسلامي وحبهم للمسلمين، فعندما فتح المسلمون مدينة حمص ببلاد الشام، أعطي يزيد بن أبي سفيان أهل حمص الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، واستأذنهم في ربع كنيسة يوحنا للمسجد والصلاه فسمحوا له.[4]

وكذلك لما فُتحت مدينة اللاذقية طلب نصارى اللاذقية[5] الأمان، وتُركت لهم كنيستهم وبنى المسلمون مسجدًا جامعًا، وأثناء معركة اليرموك عام 15هـ/636م

[1] معركة وادي لكة أو شذونة، وقعت في 19 يوليو 711م بين قوات الدولة الأموية تحت إمرة طارق بن زياد، وجيش الملك القوطي الغربي رودريغو الذي يعرف في التاريخ العربي بإسم لذريق، وقد انتصر الأمويون انتصاراً ساحقاً أدى لسقوط دولة القوط الغربيين، وبالتالي سقوط معظم أراضي شبه الجزيرة الأيبيرية تحت سلطة الخلفاء الأمويين. انظر: المقري (شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني ، ت 1041هـ / 1631م) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ط1، 1968م، جـ1، ص358

[2] إبراهيم علي طرخان: المسلمون في أوربا في العصور الوسطى، القاهرة، مؤسسة سجل العرب، 1966م، ص57

[3] مثلما حدث في مدينة دمشق حين استخدم المسلمون نصف مساحه مبنى الكاتدرائية الخاصة بالمسيحيين، لتكون أول مسجدهم، ولم يتم إخراج المسيحيين من كنائسهم إلا بعد حوالي 60 سنة من الفتح حين تم إخراج المسيحيين من إحدى كنائسهم بعد أن تم دفع التعويضات اللازمة وبناء كاتدرائية جديدة تبعد عن المسجد بحوالي نصف كيلو متر، وقد ظلت هذه الكاتدرائية للمسيحيين الأرثوذكس في المدينة حتى اليوم. انظر: هيود كينيدي، الفتوح العربية الكبرى كيف غير الإسلام العالم الذي نعيش فيه، ترجمة: قاسم عبده قاسم، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2008م، ص126

[4] البلاذري: المصدر السابق، ص137

[5] اللاذقية: مدينة على ساحل البحر المتوسط، كانت تعد من أعمال حمص، وقبل من أعمال حلب، وقيل إنها مدينة رومية قديمة، وقيل إنها سميت باسم بانيها. انظر: ياقوت الحموي معجم البلدان، جـ5، ص6

طلب أهل حمص من المسلمين أن يدفعوا عنهم غدر الروم بهم، وكان من بين ما قالوا للمسلمين: لولا يتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم، ونهض اليهود الموجودين بالمدينة، فقالوا: والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد، فأغلقوا الأبواب وحرسوها، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود.[1]

وتُظهر أثر سياسة التسامح الإسلامية التي اتبعها العرب في بلاد الشام حينما فتح المسلمون مدينة إيلياء بيت المقدس عام 15هـ/637م بقيادة خالد ابن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح، فقد ظلت الجيوش الإسلامية خارج المدينة انتظاراً لحين قدوم الخليفة عمر بن الخطاب، ليتسلمها بنفسه طبقًا للشروط التي حدّدها المسيحيون المقيمون في المدينة وجاء الخليفة ليتسلمها بنفسه من بطريركها المسيحي لصفرونيوس،[2] وقد عقدت معاهدة الصلح بين المسلمين والبطريرك المسيحي، وهذه المعاهدة تدل على مدى التسامح الذي أبداه الخليفة عمر بن الخطاب مع المسيحيين في مدينه بيت المقدس.[3]

---

[1] البلاذري: المصدر السابق، ص138- 139

[2] ولد صفرونيوس الذي يعني اسمه "العفة" في دمشق من أبوين تقيين عفيفين، بلنشوس وميرا، كان ذلك حوالي عام 550م، تمتع صفرونيوس بطاقات عقلية كبيرة وبموهبة شعرية فذة، جمع بين الحكمة والعفة وأتقن الفلسفة فلُقب بـ"الحكيم"، وإذ رغب في اقتناء الحكمة الروحية، زار الأديرة والمناسك وخرج إلى أورشليم، ثم كان الفتح العربي الإسلامي وحوصرت أورشليم سنتان فاوض صفرونيوس، على أثرها، الخليفة عمر بن الخطاب، فأمنه على المسيحيين وأماكن العبادة التابعة لهم وفُتحت أبواب المدينة، كان ذلك عام 638م، لم يعش قديس الله بعد ذلك طويلاً في حدود عام 639م. انظر: مفاتيح القدس، المركز الملكي للبحوث والدراسات الإسلامية، ترجمة ودراسة وتعليق: محمد حسن الباشا، دبي، مرايا للنشر والتوزيع، 2022م، ص8

[3] من ميثاق عمر الشهير: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا (القدس) من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم..." Tibawi, Abdul Latif; Jerusalem: Its Place in Islam and Arab History (The Institute for Palestine Studies, Beirut, 1969).

فتبدو لنا بجلاء المنزلة التي تتمتع بها مدينة بيت المقدس في نفوس المسلمين والمسيحيين على السواء، وتلك الحكمة البالغة التي أبداها الخليفة عمر بن الخطاب مع أهالي المدينة، وأنّ بنود المعاهدة حملت كثيرًا من ألوان التسامح الإسلامي في حرية المسيحيين في المدينة، واحترام مشاعرهم وعقائدهم وممتلكاتهم.

ولما حضر وقت الصلاه اقترح البطريرك على الخليفة عمر أن يصلي في الكنيسة كنيسة الضريح المقدس، ولكن الخليفة رفض الصلاة فيها، لأنه ذكر أنه لو صلّى فيها أو فعل هذا فإن المسلمين سوف يستخدمونها مسجدًا ويخسرها المسيحيون، ثم أصدر الخليفة مرسومًا يمنع فيه المسلمين من الصلاة في أيّ جزء من أجزاء الكنيسة، وبقيت كنيسة الضريح المقدس في أيدي المسيحيين، وطلب الخليفة موضعًا آخر لبناء مسجد للمسلمين، فأخذ البطريرك صفرونيوس بيد الخليفة عمر إلى الصخرة التي كان يقوم عليها المعبد اليهودي هيرود الذي دمّره الرومان عند التمرد اليهودي الذي حدث عام 70م، وتُرك ليكون مقرًا للقمامة في العصور البيزنطية، فأخذ عمر ينظّف المكان بنفسه، ثم تبعه الناس واتخذ المسلمون من هذا المكان موضعًا للصلاة حتى أنّ البعض أطلق على هذا المكان مسجد عمر، وكان ذلك عام 16هـ/737م.[1]

وقصة فتح مصر وما أبداه العرب من التسامح مع أقباط مصر ليدعو إلى التأمل في نظام التعامل الإسلامي مع الغير، فحينما تم فتح مصر (18-21هـ/639-641م) بقيادة القائد عمرو بن العاص،[2] وبناء أول عاصمة إسلامية هي مدينة الفسطاط،

[1] هيود كينيدي: الفتوح العربية الكبرى، ص132 -133

[2] عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي (50 ق هـ-43هـ/574-664م)، أبو عبد الله: فاتح مصر، وأحد عظماء العرب ودهاتهم وأولي الرأي والحزم والمكيدة فيهم. كان في الجاهلية من الأشداء على الإسلام، وأسلم في هدنة الحديبيّة، وولاه النبي- صلّى الله عليه وسلّم- إمرة جيش "ذات السلاسل"، ثم استعمله على عُمان. ثم كان من أمراء الجيوش في الجهاد بالشام في زمن عمر بن الخطاب. وولاه عمر فلسطين، ثم مصر فافتتحها، وعزله عثمان، ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية، كان عمرو مع معاوية، فولاه معاوية على مصر سنة 38هـ وأطلق له خراجها ست سنين، فجمع أموالًا طائلة، وتوفي بالقاهرة. انظر: الزركلي (خير الدين، ت 1396هـ)، الأعلام قاموس تراجم، بيروت، دار العلم للملايين، ط14، 1999م، جـ 5، ص79

وُضعت أسس التسامح الإسلامي والإخاء الإنساني مع المصريين الأقباط في مصر، فقد فرح الأقباط المصريون بمقدم هؤلاء المسلمين، فيقال إن قبط الفرما[1] ساعدوا الجيش الإسلامي بقيادة عمرو ابن العاص عند فتح المدينة عام 19هـ/640م،[2] وكذلك عندما حاصر المسلمون مدينة بلبيس كانت قصبة إقليم الشرقية آنذاك لمدة شهر، ووقع حوالي ثلاثة آلاف أسير من البيزنطيين المسيحيين في أيدي المسلمين، وكانت ابنة المقوقس عظيم القبط في مصر بالمدينة، فأرسلها عمرو بن العاص إلى أبيها معززة مكرمة، مما أكسب القبط المصريين محبة المسلمين، فحسن رأيهم فيهم وفي حكمهم.[3]

وعندما تم الفتح الإسلامي لمصر وقع كيراس عظيم القبط في مصر مع القائد عمرو بن العاص معاهدة صلح، تنص على الحرية الدينية للمصريين، وتأمينهم على أرواحهم وممتلكاتهم وكنائسهم،[4] وعامله المسلمون بكل احترام وتقدير، ولهذه المعاهدة قيمتها في ترسيخ مبدأ التسامح الإنساني للمسلمين الفاتحين مع أهل مصر، وكما يقول لينبول: "إن الفاتح العربي عمرو بن العاص قد توخى الكرم والسخاء في معاملته لأهل مصر".[5]

ومنذ أن وطأ العرب بأقدامهم أرض مصر، بدأت مظاهر التسامح الإسلامي والإخاء الإنساني يستشعر بها قلوب المصريين، حينما أطلق المسلمون لهم الحرية الدينية، ويؤيد ذلك ما فعله عمرو بن العاص بعد استيلائه على حصن بابليون الذي كان يُعد مركزًا لديانة الأقباط وثقافتهم في مصر[6] حينما كتب أمانًا لبطريرك كنيسة

[1] الفرما: شرق بورسعيد حاليًا

[2] قاسم عبده قاسم: أهل الذمة في مصر من الفتح الاسلامي حتى نهايه المماليك، عين للدراسات والبحوث الإسانية والاجتماعية، القاهرة، 2003م، ص29

[3] حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط4، 1982م، جـ1، ص238- 239

[4] ابن كثير (عماد الدين أبي الفداء إسماعيل القرشي، ت 774هـ/1372م): البداية والنهاية، القاهرة، مكتبة الصفا، ط 1، 1423هـ/2003م، جـ7، ص18

[5] لينبول ستانلي: سيرة القاهرة، ترجمة: حسن حسن إبراهيم حسن، علي إبراهيم حسن، مكتبة النهضة العربة، القاهرة، 1950، ص50؛ هيود كينيدي: المرجع السابق، ص220

[6] هيود كينيدي: المرجع السابق، ص231

الإسكندرية بنيامين، طمأنه فيه على نفسه ورعيته، وأعاده إلى مركزه الأصلي في مدينة الإسكندرية معززًا مكرمًا، بعد فراره منها زهاء ثلاثة عشر عامًا من اضطهاد البيزنطيين، وأمر عمرو بن العاص بأن يُستقبل بنيامين أحسن استقبال، ولما حضر بنيامين أكرمه عمرو وأظهر له الولاء ومنحه السلطة التامة على المسيحيين، وكان بنيامين موصوفًا بالعقل والمعرفة والحكمة لدرجة أنّ البعض سمّاه بالحكيم، حتى كان عمرو بن العاص يستشيره في شؤون البلاد.[1]

وهذه شهاده نصرانية ذكرت من قبل الأقباط أنفسهم، حيث تدل دلالة قاطعة على مدى السماحة الإسلامية، خاصة لأنّ من ذكرها كانوا من رجال الدين المسيحيين في مصر، وعاشوا قصة الفتح الإسلامي لمصر، ومعاملة العرب المسلمين لهم، وهذا هو رجل الدين المسيحي ميخائيل السرياني الذي يرى أنّ الفتح الإسلامي لمصر قد حرر النصرانية المصرية فيقول: "لم يسمح الإمبراطور الروماني لكنيستنا بالظهور، ولم يصغ إلى شكاوي الأساقفة فيما يتعلق بالكنائس التي نُهبت، ولهذا فقد انتقم الرب منه، لقد نهب الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة دون شفقة، ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء إسماعيل العرب المسلمين لينقذونا من ظلم الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية".[2]

لقد ترك العرب المسلمون الأرض للمصريين يتصرفون في زراعتها، وسُمح لهم بحرية الكسب والاشتغال بما يروق لهم من أعمال، وتعهد المسلمين بحماية هذا الكسب وعدم التعرض أو الاعتداء عليه، كما عني المسلمين بالقيام ببعض الإصلاحات الاقتصادية، وكان من أثر هذه السياسة أن تحسنت أحوال القبط المصريين وزادت ثرواتهم.[3]

---

[1] محمد عمارة: السماحة الإسلامية .. النظرية والتطبيق، مقال بكتاب التسامح في الحضارة الإسلامية، العدد (110)، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 2004، ص201-202

[2] صبري أبو الخير سليم: تاريخ مصر في العصور الوسطى، القاهرة، 2001م، ص62

[3] حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، جـ1، ص244 ؛ أحمد الشامي: الخلفاء الراشدون، دار النهضة العربية، القاهرة، ط1، 1982 ، ص251

ثالثًا: التسامح والتعايش الإنساني في عهد الخليفة عثمان بن عفان (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)

عندما تولّى الخلافة عثمان بن عفان (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) (23-35هـ/643-655م)،[1] فقد استهل خلافته بخطبة حثّ فيها الناس على الخير والتمسك بتقوى الله، كما أرسل إلى عماله وقادته وعمال الخراج في الأمصار التابعة للدولة الإسلامية كتبًا يحثهم فيها على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعطف على أهل الذمة.[2]

وكان عثمان (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) من تسامحه لا يسمح بحمل السلاح في المدينة المنورة، وهذا لحقن دماء المسلمين وتكريمًا للمدينة المنورة التي هي أرض حُرم، وعندما قام عبد الله بن سبأ[3] بافتعال الفتنة بين صفوف المسلمين، وأدخل جماعته من الخوارج إلى المدينة المنورة تسوّروا بيتًا بجوار بيت عثمان بن عفان، وكان الحسن والحسين يحرسان بيت عثمان بن عفان، ومعهما رهط من الصحابة وخيار الأمة، إلا أنّ الفتنة كانت قد وقعت، وظهر تسامح عثمان بن عفان مع خصومه حين كان يقول لهم "كتاب الله بيني وبينكم" كما أنه كان بمقدوره القضاء عليهم، ولكنه كان يرفض إراقة دم مسلم لحرمة الدم عند الله تعالى وورعًا منه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.[4]

---

[1] هو أبو عبد الله عثمان بن عفان الأموي القرشي، ولد في السنة السادسة من عام الفيل وأسلم قديمًا، وهو ممن دعاه الصديق إلى الإسلام، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وحدثت في عهد خلافته الفتنة الكبري التي انتهت بمقتله سنة 35هـ/655م. انظر: ابن سعد، المصدر السابق، جـ3، ص53-80؛ السيوطي: المصدر السابق، ص133-144

[2] حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، جـ1، ص262

[3] عبد الله بن سبأ: (000- نحو 40هـ/000- نحو 660م) رأس الطائفة السبئية، وكانت تقول بألوهية علي، أصله من اليمن، قيل: كان يهوديًا وأظهر الإسلام، رحل إلى الحجاز فالبصرة فالكوفة، ودخل دمشق في أيام عثمان بن عفان، فأخرجه أهلها، فانصرف إلى مصر، وجهر ببدعته، ولما بويع عليّ قام إليه ابن سبإ فقال له: أنت خلقت الأرض وبسطت الرزق! فنفاه إلى ساباط المدائن، حيث القرامطة وغلاة الشيعة، وكان يقال له "ابن السوداء" لسواد أمه، وقال ابن حجر العسقلاني: ابن سبإ، من غلاة الزنادقة، أحسب أنّ عليًا حرقة بالنار. انظر: الزركلي، الأعلام، جـ4، ص88

[4] محمد بن عبد الله الغبان: فتنة مقتل عثمان بن عفان (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، مكتبة العبيكان، السعودية، ط1، 1999م، جـ1، ص143-150

رابعًا: التسامح والتعايش الانساني في عهد الخليفة علي بن أبي طالب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)

إن الاضطراب السياسي والفكري الذي ساد أواسط المجتمع الإسلامي عقب مقتل عثمان بن عفان (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) وتولية الخليفة علي بن أبي طالب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)[1] أثمر ثلاث حروب كبرى خلال مدة خلافته، فكان الخليفة علي (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قبل كل حرب يُجبر على خوضها يتبنى فكرة الإصلاح، ومحاولة حلّ الخلاف بصورة سلمية، حيث يقول: "أيها الناس إنه لم يزل أمري معكم على ما أحب، حتى نهكتكم الحرب، وقد والله أخذت منكم وتركت، وهي لعدوكم أنهك، لقد كنت أمسّ أميرًا فأصبحت اليوم مأمورًا، وكنت أمس ناهيًا فأصبحت اليوم منهيًا، وقد أحببتم البقاء وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون".[2]

وكان الخليفة علي (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) يعامل أهل الذمة معاملة طيبة، فقد وقف بجوار خصمه اليهودي الذي سرق درعه أمام القاضي شريح بن الحارث، الذي لم يمنعه إجلاله وإكباره للخليفة أن يطلب منه البينة على سرقة اليهودي لدرعه، ولما لم يجد الخليفة البينة على سرقة اليهودي لدرعه، ولما لم يجد الخليفة علي حكم القاضي لليهودي.[3]

فعلي بن أبي طالب حينما تمرد عليه الخوارج[4]- وهو الحاكم الشرعي- المنتخب من

[1] هو ابن عم الرسول وصهره، وأحد السابقين إلى الإسلام، وأحد العلماء الربانيين، وهو أول خليفة من بني هاشم، استشهد عام 40هـ /660م على أثر خلافه مع معاوية بن أبي سفيان. انظر: ابن سعد، المصدر السابق، جـ3، ص19- 30

[2] ابن أبي حديد (أبو حامد بن هبة الله المدائني، ت 656هـ/1258م): شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ط1، (د.ت)، جـ6، ص187

[3] محمد علي الهاشمي: القيم الكبرى التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية، بحث بكتاب الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم، أبحاث ووقائع اللقاء الرابع للندوة العالمية للشباب الإسلامي المنعقد بالرياض في الفترة 18-25 مارس، 1979م، ص56-57

[4] الخوارج: كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت عليه الجماعة يسمي خارجيًا سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان، وقد تفرق الخوارج إلى عدة فرق منهم الزيدية والأباضية والصفرية، وقد عاثوا فسادًا وتسببوا في كثير من الحروب في الدولة الإسلامية. انظر: الشهرستاني (أبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر، ت 548هـ/1153م)، الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، بيروت، دار صعب، 1986م، جـ 1، ص 28

جماهير الأمة، ورغم أنهم تجرؤا عليه برميه بالكفر والشرك، إلا أنه وانطلاقًا من بصيرته الدينية النافذة وتسامحه، ورفض أن يعتبر الخوارج الذين كفروه كفارًا، أو أن يحكم بخروجهم من الإسلام.[1]

صفوة القول: كان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم يمتازون بحسن الخلق والجوار، فلم يظلموا أو يغدروا، فقد ساد العدل في خلافتهم، وكانت المساواة في الإسلام، فالكل أمام القانون الاسلامي سواء، فلا فرق بين غني وفقير، أو مسلم أو ذمي، فالأديان السماوية جميعها تدعو للإخاء والعدل والمساواة والتسامح، ولكن البشر هم الذين يغيرون المبادئ والآداب التي جاءت بها كل الأديان.

الخاتمة: لقد اتضح لنا أنّ التسامح والتعايش الإنساني في هذا العصر مطلوب موضوعيًا واجتماعيًا، وأنّ كل دول العالم اليوم تقريبًا تتعايش في داخل مجتمعاتها مئات من الشعوب والأقليات والإثنيات القومية، ومن الاستحالة أن تفرض كل دولة ثقافتها الخاصة أو تقاليدها أو لغتها على الآخرين بالقوة، ولذلك تحتم في هذا العصر تعزيز الانتماء إلى الأرض كوطن للجميع، هذا وقد ظهر لنا من خلال هذه الدراسة العديد من النتائج أهمها:

أولًا: الأصل في العلاقات الإنسانية هو التعارف والتعاون، وضرورة التسامح والتعايش السلمي في ضوء مقاصد الشريعة والسنة النبوية وأخلاقيات الخلفاء الراشدين.

ثانيًا: العداوة في الإسلام مشروطة بالاعتداء، وهي مؤقتة لا دائمة، والخلاف في العقيدة ليس سببًا لقتال المخالفين.

ثالثًا: من أعلى القيم التي رعتها الشريعة الإسلامية قيمة المصلحة الإسلامية العليا القائمة على الصلات الطيبة والرحمة الإنسانية.

[1] الحميري (عبد الله بن جعفر، ت 300هـ/912م): قرب الإسناد، قم، مؤسسة آل البيت لاحياء التراث، 1413هـ، ص94

رابعًا: لا فرق عند الله بين الناس إلا بالتقوى، فالناس عند الله سواسية، ولكنهم يتمايزون عنده سبحانه وتعالى بدينهم المكتسب وتقواهم وعملهم الصالح.

خامسًا: التعايش بين المسلمين وبين غيرهم من أهل الأديان، ينبغي أن ينطلق من الثقة والاحترام المتبادلين، ومن الرغبة في التعاون لخير الإنسانية في المجالات ذات الاهتمام المشترك.

سادسًا: وضع الله سبحانه وتعالى لعباده في قرآنه قاعدة قرآنية تعد الدستور الأساس في معاملة المسلمين لغيرهم من الناس في قوله تعالى: "لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ" (سورة الممتحنة: 8).

التوصيات:

أولًا: يجب علينا العمل على تنمية روح التسامح والتعايش الآمن في المجتمعات من خلال تضمين مفهومه في المناهج الدراسية، وتضافر جهود الهيئات والمؤسسات المؤثرة كالإعلام المسموع والمقروؤ والمرئي والمؤسسات الدينية في التوعية بالمفاهيم الصحيحة للتعايش الآمن.

ثانيًا: مثل تلك الدراسة تحتاج لجهد كبير من الباحثين والمتخصصين، بل وفي أمس الحاجة لعقد المؤتمرات والندوات العلمية، ليكون ذلك مرآة وانعكاسًا لصورة الإسلام الحقيقية التي يحاول البعض إما عن جهل أو تعصب وحقد.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المصادر

1. ابن أبي حديد (أبو حامد بن هبة الله المدائني، ت 656هـ/1258م): شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل، بيروت ، دار إحياء الكتب العربية ، ط1، د.ت.
2. ابن الأثير (أبو الحسن علي بن محمد الملقب بعز الدين، ت 630هـ/1233م): الكامل في التاريخ، بيروت، 1965م
3. ابن سعد (أبو عبد الله البصري، ت 230هـ/844م): الطبقات الكبري، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968م
4. ابن كثير (عماد الدين أبي الفداء إسماعيل القرشي، ت 774هـ/1372م): البداية والنهاية، القاهرة، مكتبة الصفا، ط 1، 1423هـ/2003م
5. ابن هشام (أبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري، ت 213هـ/828م): السيرة النبوية، القاهرة، المكبة التوفيقية، د.ت.
6. البلاذري (أبو العباس أحمد بن يحي بن جابر، ت 279هـ/892م): فتوح البلدان، تحقيق: نجيب الماجدي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1428هـ/2008م
7. الحميري (عبد الله بن جعفر، ت 300هـ/912م): قرب الإسناد، قم، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، 1413هـ
8. السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، ت 911هـ/1505م): تاريخ الخلفاء، تحقيق: أحمد بن شعبان، القاهرة، مكتبة الصفا، ط 1، 1423هـ/2005م
9. الشهرستاني (أبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر، ت 548هـ/1153م): الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، بيروت، دار صعب، 1986م

10. المقري (شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، ت 1041هـ/1631م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ط1، 1968م
11. ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله، ت 626هـ/1228م): معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1397هـ/1977م

ثانيًا: المراجع

12. إبراهيم علي طرخان: المسلمون في أوربا في العصور الوسطى، القاهرة، مؤسسة سجل العرب، 1966م
13. أحمد الشامي: الخلفاء الراشدون، دار النهضة العربية، القاهرة، 1982م
14. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط4، 1982م
15. الزركلي (خير الدين، ت 1396هـ): الأعلام قاموس تراجم، بيروت، دار العلم للملايين، ط14، 1999م
16. صبري أبو الخير سليم: تاريخ مصر في العصور الوسطى، القاهرة، 2001م
17. علي الطنطاوي: أخبار عمر، دمشق، 1959م
18. قاسم عبده قاسم: أهل الذمة في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهايه المماليك، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، 2003م
19. كولمن، محمد فتح الله: النور الخالد محمد نخر الإنسانية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1999م
20. محمد بن عبد الله الغبان: فتنة مقتل عثمان بن عفان (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، مكتبة العبيكان، السعودية، ط1، 1999م
21. مرعي مدكور: الإعلام الإسلامي وخطر التدفق الإعلامي الدولي، رابطة

الجامعات الإسلامية، ط1، 1409هـ/1988م

ثالثًا: المراجع الأجنبية المعربة

22. لينبول ستانلي: سيرة القاهرة، ترجمة: حسن حسن إبراهيم حسن، علي إبراهيم حسن، مكتبة النهضة العربة، القاهرة، 1950م
23. مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ترجمة: عفيف دمشقية، بيروت، دار الآداب، 1980م
24. مفاتيح القدس: المركز الملكي للبحوث والدراسات الإسلامية، ترجمة ودراسة وتعليق: محمد حسن الباشا، دبي، مرايا للنشر والتوزيع، 2022م
25. هيود كينيدي: الفتوح العربية الكبرى كيف غير الإسلام العالم الذي نعيش فيه، ترجمة: قاسم عبده قاسم، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2008م

رابعًا: المراجع الأجنبية

26. Tibawi, Abdul Latif; Jerusalem: Its Place in Islam and Arab History (The Institute for Palestine Studies, Beirut, 1969).

خامسًا: الدوريات

27. محمد علي الهاشمي: القيم الكبرى التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية، بحث بكتاب الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم، أبحاث ووقائع اللقاء الرابع للندوة العالمية للشباب الإسلامي المنعقد بالرياض في الفترة 18-25 مارس، 1979م
28. محمد عمارة: السماحة الاسلامية .. النظرية والتطبيق، مقال بكتاب التسامح في الحضارة الإسلامية، العدد (110)، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 2004م

ISSN: 2321-7928

الهند وثقافتها كما تتجلى في كتاب "حول العالم في 200 يوم"
(للصحفي المصري أنيس منصور)

- د. عظمت الله[1]

مدخل: يتطرق هذا المقال إلى ما كتبه الصحفي المصري أنيس منصور، في كتابه "حول العالم في 200 يوم"، عن الهند من ثقافتها وتقاليدها وأساطيرها الاجتماعية وكذلك عن سكانها وملابسهم وأكلاتهم، وذلك في ضوء ما شاهده بأم عينيه خلال زيارته للهند مرتين في عام 1962م وشملت هذه الزيارة أهمّ المدن الهندية مثل مومباي، ودلهي، وتشيناي وولاية كيرالا بشكل خاص.

حاولت لأتناول أبرز وأهم الذكريات والانطباعات والتجارب والمعلومات عن الهند وعن ثقافتها، والتي دبجها يراع الكاتب في هذا الكتاب، الذي ورد فيه ذكر وسيلة المواصلات، والحيوانات، وبعض صفات أصحاب الديانات المختلفة من الإسلام والهندوسية والسيخية. إضافة إلى ذلك، قدّمت عرضًا سريعًا لحياة صاحب الكتاب وإسهاماته الأدبية بإيجاز. وذلك بغية الاطلاع على كتاباته عن وطننا الغالي وعن ثقافتنا الثرية.

نبذة عن الكاتب: يُعدّ الكاتب أنيس منصور أشهرَ صحفي مصري في الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين، وله جولة وصولة طويلة بين العلم والأدب والصحافة والكتابة بسبب حبّه واشتغاله في مجال الصحافة والإعلام. وكان يتقن عددًا من اللغات الأجنبية مثل الإيطالية والألمانية والإنجليزية إلى جانب لغته الأم العربية، لذا قام بترجمة عشرات من الكتب بما فيها الروايات والمسرحيات وكتب الفلسفة ومن أهم ترجماته إلى العربية كتاب "الخالدون المائة أعظمهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" للعالم

[1] أستاذ مساعد (متعاقد)، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي، الهند

الفلكي الرياضي الأمريكي مايكال هارت.

ولد أنيس منصور في مدينة المنصورة بمصر، في عام 1924م، حيث نشأ وترعرع وحفظ القرآن الكريم في سن التاسعة من عمره، وتلقّى تعليمه المدرسي والجامعي حتى حصل على ليسانس الآداب في عام 1947م، وبعد ذلك اشتغل أستاذًا في جامعة عين شمس. ولكنه تفرغ لهوايته في مجال الصحافة حتى اشتغل في أكبر المؤسسات الصحفية مثلًا مجلة الأهرام، وأخبار اليوم، ونداء. وسافر الكاتب أنيس منصور إلى عدد من بلدان العالم للعمل الصحفي.

توفي هذا الكاتب العملاق في اليوم الواحد والعشرين من أكتوبر عام 2011م، عن عمر يناهز 87 عامًا، وقد تم نصب تمثال له في محافظة المنصورة بمصر، تخليدًا لأعماله ومسيرته العلمية والأدبية.

يعتبر الصحفي أنيس منصور كاتبًا شهيرًا في أدب الرحلات بما أنه قدّم إسهامات قيمة في هذا المجال حتى لُقِّبَ بـ"كاتب الرحلات". كما صدر من قلمه الرصين عدد من الكتب حول العناوين الأخرى، إذ يبلغ عدد مؤلفاته حوالي 200 كتاب. من أهم أعماله "أعجب الرحلات في التاريخ"، و"كتاب اليمن"، و"ذلك المجهول"، و"أطيب تحياتي من موسكو"، و"بلاد الله لخلق الله"، و"غريب في بلاد غريبة." و"حول العالم في 200 يوم"، ونال منصور ضمن تكريماته، جائزة الدولة التشجيعية في مصر على كتابه "حول العالم في 200 يوم". هذا هو الكتاب الذي تحدث فيه الكاتب عن مدن الهند وثقافتها، وذلك من باكورة كتاباته في مجال أدب الرحلات، لأنه بدأ رحلاته لدول العالم من الهند، كما يكتب: "فمن هنا بدأت دورتي حول الأرض مبتدئًا بالهند، وهنا انتهت دورتي حول الأرض قادمًا من إيطاليا".

أما كتابه "حول العالم في 200 يوم" فيحتوي على 639 صفحة، ونشر الكتاب وفي طبعته الأولى مصحوبًا بمقدمة كتبها صاحب الكتاب بنفسه في نوفمبر عام 1962م،

وفي طبعته الثانية مقدمة إضافية كتبها الدكتور طه حسين في أغسطس عام 1966م، وفي طبعته الثانية مقدمة خاصة كتبها الأديب المصري محمود تيمور في عام 1977م.

تناول الكاتب أنيس منصر في هذا الكتاب، كلًا من الدول التي زارها، ابتداء من الهند وانتهاء إلى إيطاليا، وكتب في مستهل حكاية كل دولة، عبارة تعكس انطباعاته عن تلك الدولة، فكتب للهند "كل شيء كثير"، ولسريكانا "جزيرة الشاي"، وللمالديف "بلاد السمك"، ولسنغافورة "أرخص بلد في العالم"، وللفليبين "سبعة آلاف جزيرة" ولهونغ كونغ "لؤلؤة البحار"، ولأستراليا "القارة السعيدة"، ولإندونيسيا "لا مكان لي"، ولجزيرة بالي "جزيرة النهود"، ولليابان "بلاد الذوق والأدب الذي ليس له أول ولا آخر"، ولأمريكا "كلّ شيء موجود في أمريكا إلا الذوق وكل شيء واسع إلا البنطلونات"، وما إلى ذلك.

تجدر الإشارة إلى أن الكاتب المصري أنيس منصور زار الهند مرتين في عام 1962م. في المرة الأولى إنه زار بعض المدن الهندية بما فيها مومباي، ودلهي، ثم ولاية كيرالا التي كانت هدف زيارته الثانية، إذ انتصر الحزب الشيوعي الهندي في الانتخابات التشريعية فشكّل الحكومة في هذه الولاية لأول مرة آنذاك. وفيما يبدو أنّ زيارة الصحفي المصري إلى الهند أتت في وقت كانت تنتشر فيه الفكرة الشيوعية في بعض أجزاء العالم بما فيها الهند بجانب مصر وسوريا والعراق.

وكتب صاحب هذا الكتاب:

"والمهمة الثانية هي أنْ أذهب إلى ولاية كيرالا، في أقصى جنوب الهند، لأكتب قصة الصراع بين الحزب الشيوعي وبين الحكومة المركزية في نيودلهي. فالهند مجموعة من الولايات وكل واحد لها برلمان ولها وزارة. وهي جميعًا تتلقى التعليمات من الحكومة المركزية وبعض ولايات الهند يبلغ سكانها ثمانين مليون نسمة.

ولاية كيرالا، تقع على الساحل الغربي للهند.. ويقال: إنّ اسمها خير الله. وإنّ هذه التسمية قد أطلقها العرب على هذه البلاد. والمسلمون قد دخلوا إلى الهند من هذه

النقطة. واليهود أيضًا".[1]

على كل حال، أعطى الكاتب حظًا أوفر للهند في هذا الكتاب بحيث تغطي كتاباته عن الهند 110 صفحات. وزع الكاتب كتاباته عن الهند إلى ستة عناوين فرعية بما فيها "حفاة تقدميون جدًا"، و"إله في انتظاري"، و"الدلاي لاما"، و"صاحب القداسة رفض"، و"باسم الله"، ثم في الختام "تأملات هندية".

وضمن عنوان "تأملات هندية"، سرد الكاتب عددًا من الأساطير التي سمعها أو تعرف عليها خلال الزيارة، على سبيل المثال الزواج واستخدام التوابل والقصص المختلفة عن الهنود وثقافتها وما إلى ذلك.

ماذا كتب أنيس منصور عن الهند كدولة: يصف الكاتب الهند بقارة، إذ يكتب:

"إن الهند ليست دولة ولكنها قارة واسعة.. الهند هي رأس آسيا.. وهي شعرها الطويل والقصير.. وهي أغرب ما في آسيا وأغرب ما في الدنيا.. ولكنها شيء كبير.. كبير جدًا. كل شيء هنا موجود، من الممكن أن تحبّ الهند وأن تكره آسيا كلها، ومن الممكن أن تهيئ نفسك لأنك جئت إلى هذه البلاد.

نهرو هو أعظم رجل في الهند، ولا يعرف الهند من لم يعرف نهرو، ولا يعرف آسيا من لم يعرف الهند. ولا يعرف مستقبل العالم من لم يعرف آسيا..."[2]

إلى ذلك، كتب أنيس منصور عن بعض الملابس الهندية من أهمها فساتين السيدات والساري والدوتي.

فيكتب عن الساري:

"إن المرأة تلبس الساري وهو قطعة من الحرير تلتفُّ حول الساقين وترتمي على

[1] أنيس منصور، حول العالم في 200 يوم، ص 94

[2] نفس المصدر، ص 141- 142

الكتف. ويبدو كأنه فستان من قطعتين منفصلتين تمامًا.. بلوزة قصيرة جدًا. وجيب تحت الساري. ويبدأ من تحت الوسط.. وأنت ترى منطقة عارية من جسم المرأة عُرضها شبر. فإذا لفت هذا نظرك وضبطتك المرأة وأنت تنظر إليها فإنها تندهش جدًا ويبدو عليها الضيق. كأنك أنت الذي زحزحت البلوزة عن الجيب!"

ويكتب الكاتب عن الدوتي الذي يلبسه الرجال فيقول:

"فهناك الدوتي، وهي قطعة من القماش طويلة جدًا، تلتف حول الجسم، وأحيانًا على شكل بنطلون يشبه اللباس الذي يرتديه أبناء البلد في الأسكندرية... قُماشة أكثر من اللازم..

وهناك من يكتفي بأن يضع شريطًا من القماش يغطي به مساحة ضئيلة جدًا من الجسم من أسف. أما الباقي فعريان.

كذلك أشار صاحب الكتاب إلى شيرواني وهو بدلة رجالية، واصفًا إياه بما يلي:

"وهناك من يرتدي الجاكتة الطويلة جدًا كالبالطو وتحتها بنطلون ضيق جدًا وملاصق للساق.

.. والرجل العظيم نهرو كان يرتدي هذا الزي دائمًا...".[1]

كما ذكر الكاتب أهم صفات أصحاب الديانات المختلفة من الإسلام والهندوسية والسيخية، وذلك كما يلي حسب النص الوارد في الكتاب:

"هناك رجال يطلقون شَعر الرأس واللحية طول العمر، ودينهم يمنعهم من أن يقُصّوا شَعرة واحدة. ويضع الواحد منهم عمامة كبيرة ملفوفة حول شعر أطول من أي امرأة. وهذه العمامة ملونة: خضراء، زرقاء. حمراء.. ولحية طويلة أيضًا. ومعظمهم يضعون على اللحية شبكة كالتي تضعها الفتيات فوق الشعر.. وبعضهم يكتفي بأن يضع

[1] نقس المصدر، ص 141

منديلًا مشدودًا حول اللحية.

هولاء هم السيخ. وهم أنشط الأقليات الهندية. تجدهم في كل مجال من مجالات العمل، ويظهر أنّ رجال السيخ يمتازون بقوام سليم، ولهم بنات وزوجات من أجمل فتيات الهند مع الأسف".[1]

كذلك كتب صاحب الكتاب عن مجموعة من الأشخاص الهندوس الذين يحتفظون بضفيرة في منتصف الرأس.

"ويوجد في الهند أناس يحلقون شعر الرأس تمامًا.. بالموسى ويتركون مجموعة من الشعر في منتصف الرأس ولا يحلقونها طول العمر...".[2]

بالنسبة للمسلمين، يقول اقتباس من كتابه:

"هناك المسلمون الذين يطلقون شعر اللحية، ولكنهم يقصرونه قليلًا بصورة تلفت النظر إلا أنهم ليسوا من السيخ. وهم لا يعرفون من اللغة العربية إلا السلام عليكم".[3]

كما تحدث الكاتب عن شَعْرِ المرأة الهندية أيضًا مشيرًا إلى: "أما شَعر المرأة فطويل وأسود يُوجع قلبَ كلِ نساء أوروبا...

يصف الكاتب الرجل الهندي بما يلي:

"الرجل الهندي يستطيع أن يعيش في أسوأ الظروف وفي أصغر مساحة من الأرض وبأقل طعام وشراب ممكن، ولا يشكو ويجد من دينه وفلسفة بلاده ما يجعله يرضي بهذا القليل من كل شيء".[4]

[1] نفس المصدر، ص 140
[2] نفس المصدر، ص 140
[3] نفس المصدر، ص 140- 141
[4] نفس المصدر، ص 141

وذكر صاحب الكتاب ضمن وسائل المواصلات، عربة ريكشا، كما يلي: "ووسيلة المواصلات واحدة هنا وهي الريكشا..

والريكشا عبارة عن محفة تشبه عربة كارو قد نزعت عجلاتها... وبدل العجلات والحصان أو الحمار، يوجد عدد من الهنود القصار القامة يحملون هذه المحفة وينطلقون بك في إي اتجاه. وهم يلهثون وتزداد وجوههم صفارًا وتزداد عيونهم احمرارًا. وتحس أنك إنسان رأسمالي أو إقطاعي. أو على الأقل فيك كل العيوب والإقطاعيين والرأسماليين، بالمعنى الذي تشير إليه أكثر الكتب الاشتراكية تطرفًا.. فأنت تستأجر إنسانًا، أو تستبعد إنسانًا أو تركب إنسانًا كأنه حيوان.. كأنه ليس آدميًا مثلك. وتضع رجلًا على رجل. فوق كتف هولاء المساكين..

ولكن ما الذي يمكن عمله.. فأنت لست المسؤول عن هذا النظام غير الإنساني.. وإنما المسؤول الأول والآخر هو الفقر.. ".[1]

زار الكاتب المصري بصفته صحفيًا، فإنه يكتب عن الصحافة في الهند:

في الهند صحافة تحتفي بك، وصحافة تشتمك، وصحافة تدعو لك، وصحافة تدعو عليك.. وصحافة تجعلك تكره الصحافة..[2]

وفي مكان آخر:

والصحافة في الهند ممتازة.. وصفحاتها أنيقة. والطباعة جيدة. والموضوعات معروضة عرضًا ممتازًا. وأسلوب الصحفيين هنا لا يختلف عن أي صحفيين في أوروبا وفي أمريكا أيضًا".[3]

وفيما يخص القصص والأساطير الشهيرة التي سمعها أو تعرف عليها خلال الزيارة،

[1] نفس المصدر، ص 75
[2] نفس المصدر، ص 141
[3] نفس المصدر، ص 62

على سبيل المثال، كتب عن التوابل أي كَمّون، فلفل وشطّة، وقصص مختلفة عن الهنود وثقافتها، أذكر هنا قصة عن التوابل على سبيل المثال:

"كتب السلطان بابار، أحد ملوك منغوليا، مذكراته، لو عرف أبناء وطني فوائد الشطة كماعرفها أبناء الهند، لغزوا العالم كله.

والشطة هي النار التي تلسع كل عضو وكل فكرة... وهي الذي يبتلعه الهنود ليسوقهم من الداخل إلى الحياة.".[1]

وفيما يخص سرد الشطة، أكد الكاتب في الاقتباس التالي:

ليس على لساني غير هذه الأغنية: أكلك نار... وشربك... بعدك نار... وقربك نار!.. النار حقيقة.. تخرج من أنفك وتدخل في صدرك.. والطعام كله شطة حمراء وكما يوجد هواء سائل توجد أيضًا نار سائلة توضع في كل شيء.. النار في يدك وفي فمك، وفي معدتك.. نار يا حبيبي نار..[2]

وكتب الصحفي المصري أنيس عن وجود البَعوضة والأفاعي والقرود بشكل خاص في كتابته عن الهند، فيكتب في مكان عن البعوض:

"بعد أن اَلتقي مع طبيب مصري يدرس بَعوضة الملاريا في الهند. إنه اطلع خلال النقاش على أنّ هناك 43 نوعًا من أنواع البَعوض، موزعة على مقاطعات الهند. وكل بعوضة لها طريقة في نقل الأمراض. ولكن الذي يلدغ عادة، من البَعوض هو الإناث فقط".[3]

يكتب الكاتب عن الأفاعي كما يلي:

"إذا ذهبت إلى حديقة، فيجب ألا يكون ذلك في ساعة مبكرة، من النهار، أو ساعة

[1] نفس المصدر، ص 126
[2] نفس المصدر، ص 135
[3] نفس المصدر، ص 129

متأخرة من الليل. في الحديقة أشجار لها عطر.. فهذه الأشجار تجتذب نوعًا من الأفاعي ..

وهناك نوع من الأفاعي اسمها الكوبرا السلطانية أو الكوبرا الملكية، بعضها ينام على الأشجار ذات العطور. وبعضها ينام بلا عطور. وهذه الأخيرة سمها يقتل في 24 ثانية.. أي قبل أن يقول الإنسان آه.. يعني الموت هنا أسرع من الصوت".

وهناك نوع من الأفاعي صوته يشبه صوت الصرصار بالضبط. وهذا النوع من الأفاعي أعمى. ولكنه يهتدي بأذنيه إلى الأماكن التي يسمع فيها أنفاس النائمين وهو يعض وليس ساما".[1]

كما أشار الكاتب إلى وجود قرد في الهند أيضًا. فيما أنه قدّم حكاية تقول:

"وإياي أن أسكن في فندق له حديقة... ففي هذه المنطقة ملايين القرود وكلها شرسة. وحادثة الصحفي الأمريكي الذي ظل طول الليل يكتب. وفي الصباح وجد الآلة الكاتبة والأوراق وملابسه كلها غير موجودة. وأبلغ إدارة الفندق.. وقسم البوليس. فأتوا له بالمتهم وفي يده السلاسل ومعه الآلة الكاتبة وكَوم من الأوراق الممزقة وكان المتهم قردًا".[2]

ومن ضمنها، كتب الصحفي المصري تجربة فريدة تمثل أنّ هناك شخصًا خاصًا لكل عمل، أقدم أمامكم اقتباسًا من الكتاب:

"الهنود تعلموا من الإنجليز أشياء مختلفة.. تعلموا اللغة الإنجليزية وينطقونها بطريقة لا يمكن فهمها في كثير من الأحيان.. هم منظمون فعلًا، وكل الأعمال تتم بنظام.

شيء آخر تعلموه أيضًا، لا أعرف ماذا اسميه؟

.. تفسير ذلك أنّ كل عمل له رجل خاص.. فالذي يعد لك السرير غير الذي

[1] نفس المصدر، ص 131

[2] نفس المصدر، ص 130-131

يكنس لك الأرض، وغير الذي يغسل لك الحمام، وغير الذي يأتي لك بالماء، وغير الذي يأتي لك الفطور.. وغير الذي يحضر لك العشاء..

إنهم كثيرون جدًا أجورهم رخيصة جدًا".[1]

وذكر الكاتب بعض التقاليد الهندية أيضًا، ومنها ما يلي:

"إذا تزوجت في الهند فأنت ضامن أن حماتَك لن تزورَك أبدًا. لأن هذا حرام... وإذا زارتك فمرة واحدة كل بضع سنوات. ولايجوز للحماة أن تأكل أو تشرب في بيت ابنتها لأن هذا حرام أيضًا. وإذا زارتها فالجيران هم الذين يقدمون لها الطعام والشراب".[2]

خلاصة القول:

الكاتب المصري أنيس منصور كتب في هذا الكتاب، كل ما شاهد وتعرف عليه من دولة الهند وثقافتها وتقاليدها وأساطيرها الشهيرة خلال زيارته، وذلك في أسلوب رائع وسلس للغاية، فأسلوبه الرشيق يجتذب القاري على نحو لا يطيب له أن يترك أي حكاية من حكاياته في منتصفها حتى يكملها.

بينما وجدت خلال قراءة هذا الكتاب أنّ الكاتب قد تشابه عليه بعض القصص، كما أنه بالغ في سرد بعض التقاليد ولاسيما في قصة الزواج.

على كل، قدّم هذا الكاتب العملاق إسهامات قيمة في مجال العلم والأدب والرحلات والصحافة وترك خلفه ثروة علمية وأدبية عظيمة، مما يثري مكتبات العالم. حيث يمكن القول إن ذكرياته وإنجازاته تُبقيه حيًا بعد مماته.

[1] نفس المصدر، ص 127-128

[2] نفس المصدر، ص 133

المصادر والمراجع

1. أنيس منصور، حول العالم في 200 يوم، د.م.، مصر، 1962م
2. أنيس منصور، عاشوا في حياته، مطابع الهيئة العامة المصرية للكتاب، د.س.
3. بوابة أخبار اليوم المصرية.
4. موقع الجزيرة نت الإلكتروني.
5. موقع العربية.

ISSN: 2321-7928

صور وخواطر... من خلال رسائل جبران

- د. هيفاء شاكري[1]

تمهيد

عندما بدأتُ الكتابة عن رسائل الأدباء والأديبات حيث قدّمتُ حلقتين عن هذا الموضوع بعنوان "رسائل غسان كنفاني لغادة السمان" و"الشعلة الزرقاء، لقاء الغرب بالشرق"، ذكرتُ أنّ الرسائل هي المصدر الأهم لكشف خبايا النفس البشرية وهي التي يبوح فيها الكاتب بمشاعره وأحاسيسه، وهي أصدق تعبير لما يشعر به دون أيّ قناع يخفي وراءه عواطفه وأهدافه، خاصة إذا كانت هذه الرسائل شخصية كتبت لشخص قريب أو صديق أو حبيب.

وهذه المقالة هي الحلقة الثالثة من هذه السلسلة، حيث نناقش الرسائل التي أرسلها الكاتب والأديب جبران خليل جبران لأصدقائه ومعارفه وبعض الرسائل إلى ميّ زيادة، فقد جمعت رسائله لميّ زيادة في مجموعة "الشعلة الزرقاء"، أما هذه الرسائل الأخرى فهي التي جمعها السيّد جميل جبر تحت عنوان "رسائل جبران، صفحات مطوية من أدب جبران الخالد".

عن الكتاب: كما ذكر فإنّ عنوان الكتاب هو "رسائل جبران، صفحات مطوية من أدب جبران الخالد". جمع فيه جميل جبر رسائل جبران وقدّم لها، يحتوي الكتاب على 112 صفحة تشتمل على 50 رسالة إلى كل من:

.1	والده الخليل	رسالة واحدة
.2	أمين الغريب (صديق)	ثلاث رسائل

[1] مشارك في التحرير وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي

.3	نخلة (ابن العم)	رسالتان
.4	الفنان اللبناني يوسف الحويك	رسالة واحدة
.5	سليم سركيس	رسالة واحدة
.6	ميخائيل نعيمة	سبع وعشرون رسالة
.7	أميل زيدان	ثلاث رسائل
.8	مي زيادة	ثماني رسائل
.9	نسيب عريضة	رسالة واحدة
.10	أدمون وهبة	رسالة واحدة
.11	فليكس فارس	رسالة واحدة

ويضم الكتاب رسالة من فليكس فارس لجبران.

والنسخة التي بين أيدينا من منشورات مكتبة بيروت بلبنان في 1951م.

وطبعًا يعتبر الكتاب من تأليف جبران خليل جبران وقدّمه وكتب مقدمتَه جميل جبر والذي قدّم أيضًا "رسائل ميّ، صفحات مطوية من أدب ميّ الخالد". ويذكر في مقدمة الكتاب نبذة عن حياة جبران من مولده وهجرته إلى أمريكا ومواجهته حياة الفقر في مدينة بوسطن في حي الصينيين، ثم عودته إلى بيروت ومكوثه هناك قبل العودة مرة أخرى إلى أمريكا، ويذكر كذلك بإيجاز التغير الذي طرأ على حياته بعد تعرفه على السيدة الأمريكية الثرية ماري هاسكل وانتقاله إلى باريس وتعلمه الفنون هناك واستفادته من الجو الثقافي فيها. وكذلك تجواله في بلدان أخرى مثل إيطاليا وبلجيكا وإنجلترا والتعرف على فنونها من خلال زيارة متاحفها وآثارها. وبعد عودته إلى بوسطن بدأ الرسم والتأليف وقد أغرق نفسه في هذه الأعمال بدافع من روحه ونفسه التواقة دائمًا إلى الانطلاق والبحث عن عالم يملأ الفراغ الذي يشعر به، إضافة إلى شوقه ولهفته المؤلمة للشرق عمومًا ولوطنه لبنان خاصة. كل هذه العوامل أثّرت

على صحته، وضعف جسده إلى أنْ فارق الحياة في 10 أبريل 1931م.

وهذه الرسائل هي نتاج تلك الفترة، الفترة التي عاشها بعيدًا عن أهله ووطنه يبثّ فيها آلامه وأحلامه أو يتحدث عن مؤلفاته وأمور تخص أحد أقربائه أو أصدقائه. وسنناقش الأمور التي تتحدث عنها هذه الرسائل بالتفصيل في الصفحات القادمة بإذن الله.

أما بالنسبة لمصادر هذه الرسائل ومآخذها فيذكرها جميل جبر كما يلي:

1. جبران خليل جبران لميخائيل نعيمة
2. مي وجبران لجميل جبر
3. الهلال: مجلة شهرية أسّسها جرجي زيدان وصدر أول عدد لها في 1 سبتمبر 1892م
4. المقتطف: مجلة شهرية أسّسها يعقوب صروف وصدر أول عدد لها 1876م
5. مجلة الورود
6. مجلة الشعاع

أمور عائلية: يتحدث جبران في هذه الرسائل التي بين أيدينا عن بعض الأمور العائلية وذلك في الرسائل التي بعث بها إلى والده وابن عمه، فنراه في رسالته التي بعث بها إلى والده خليل في نيسان 1904م يخبره باستلام رسالته، ويطمئنه على صحة أختيه، مريانة وسلطانة، حيث قلق عليهما الوالد بعد أن كتب إليه أحد أقاربهم عن طريق زوجة العم عن مرض مريانا وسلطانة، وقد عدّها جبران من الخطط الماضية والمزاح اللطيف الذي اعتادت عليه زوجة العم وخاصة في أوائل نيسان (أبريل). يقول مخاطبًا والده: "وقولها إن المرض يلم بشقيقتي منذ ستة أشهر، كلام بعيد عن الحقيقة .... لأنه منذ سبعة أشهر لهذا التاريخ ورد إليّ من المستر راي خمس رسائل، يذكر لي بها شقيقتي مريانة وسلطانة ويخبر عن طبائعهما ويطري لي خصوصًا بذكر سلطانة وأطوارها

ومشابهتها لي خلقًا وأخلاقًا وغير ذلك من كلام أصدق رجل عرفته وهو يستهجن أكاذيب أول نيسان ... كن مطمئن البال مرتاح الضمير".[1]

السفر والتجوال: نجد في الرسائل ذكرًا متكررًا لأسفاره التي قام بها في تلك الفترة وخاصة سفره إلى باريس، حيث تعتبر سفرته تلك نقطة تحول في حياته من الفقر والجوع والأحياء الضيقة إلى الشهرة والفن وظروف عيش أفضل من قبل. وقد سعد بهذه السفرة كثيرًا، وأخبر بها أول ما أخبر الأديب أمين الغريب، بعد أخته مريانا، فذكر في رسالته إليه المؤرخة 12 شباط (فبراير) 1908م بأنه سيذهب إلى باريس عاصمة الفنون، ويكون مكوثه فيها سنة كاملة، واعتبر سفره هذا فصلًا جديدًا من رواية عمره، حيث ينضم هناك إلى لجنة تصويرية عظيمة ويحصل على فائدة كبيرة من انتقاداتها وملاحظاتها في هذا الفن، ثم يقول ساخرًا: "وسواء حصلت على فائدة أو لم أحصل، فمجرد رجوعي إلى أمريكا من باريس يجعل لرسومي شهرة ويجعل الأغنياء العميان أن يتهافتوا عليها ليس لأنها جميلة، بل لأنها من عمل رجل صرف سنة في باريس بين أعظم المصورين في أوربا".[2]

وصف أمريكا: يذكر جبران كذلك وصفًا لبعض المدن الأمريكية ويبيّن أنّ وجوده في بوسطن لم يكن ناجمًا عن محبته لهذه المدينة، وكرهه لنيويورك، ولكن يوجد في بوسطن من يفتح أمامه طريق المستقبل: "لأن في بوسطن ملائكة تريني المستقبل مشعشعًا وتفتح أمامي سبيل النجاح الأدبي والمادي".[3]

ويصف أمريكا بالبلاد الآلية التجارية، وفضاؤها مملوء بالضجيج، ويبين الفرق بين الفرنسيين والأمريكان، فالفرنسيون يعبدون الفنون الجميلة، بينما يعبد الأمركيون الدولار، ولكنه في نفس الوقت يصف الدولار بالقوة وأنّ الأيام علّمتْه بأن يحترم

[1] رسائل جبران، ص 10
[2] المصدر نفسه، ص 12
[3] المصدر نفسه، ص 13

هذا الدولار لأنه أعظم واسطة بين الإنسان وأمانيه. ونرى هنا أيضًا أثرًا لحياة البؤس التي عاشها جبران في طفولته مما جعله يشعر بقيمة المال في الحياة.

ذكر أدباء كبار: يذكر جبران في ثنايا رسائله أسماء عدد من الأدباء والفنانين الكبار الذين تأثر بهم ووصلت أعمالهم الشهيرة إليه، ومنهم: روسو ولامارتين وهوغو وشتوبريان ورنان وروفائيل وميكل إنجلو ودافنشي وبارجينو وبيتهوفن وفكنر وموزارت وفردي وروسيني. ويصفهم بأنّ هؤلاء الرجال هم الذين بنوا مدنية أوروبا، وبالرغم من أنّ هؤلاء الرجال قد طوتهم الأرض ولكن أعمالهم العظيمة باقية إلى الآن.

ذكر مجلة المهاجر: نجد في الرسائل في مواضع كثيرة ذكرًا لمجلة المهاجر التي كان يصدرها أمين الغريب، وهو الذي اكتشف موهبة جبران الكتابية. فشجّعه على الكتابة وأصدر نتاجه الكتابي في مجلته، ومن هنا عرف العالم جبران الكاتب والمؤلف.

ونرى جبران يتعهد باحترام مجلة المهاجر في غياب أمين فيبعث لكل عدد بشيء مكتوب للنشر، وهذه الكتابات لن تكون مجرد كلمات، وإنما هي تعبير عما يشعر به في قلبه ونفسه ودماغه من العواطف والميول والمبادئ، ثم إنه لا يطلب لقاء ذلك إلا رضا صديقه وغيرته عليه وعلى مستقبله. ولكن إن كان أمين يريد أن يمنحه فضلاً ماديًا فطلب منه أن يوصي إدارة "المهاجر" بأن تهتم ببيع كتابه "الأرواح المتمردة" للقراء والتجار في نيويورك والمناطق الداخلية. ولا يمكن له الاستفادة من بيع الكتاب إلا بمساعدة الجريدة.

ثم يذكر أهمية مجلة المهاجر بقوله: "جريدة المهاجر تبقى عروسة الجرائد مهما تقلبت الأحوال. رسالة من أمين وقصيدة من أسعد رستم ومقالة من جبران في كل أسبوع تكفي لتجعل العالم العربي فاتحًا عينيه نحو 21 واشنطن"[1] (عنوان مكتب جريدة المهاجر).

ومن المعروف أنّ أمين الغريب نشر على الصفحة الأولى من المهاجر مقالات

[1] المصدر نفسه، ص 14

أسبوعية لجبران بعنوان "دمعة وابتسامة"، وكان يصحّح له بعض أخطائه اللغوية، ثم أصدر له في كتاب منفصل مقالته الطويلة بعنوان: "نبذة في فن الموسيقى". ويعتبر أول كتاب لجبران باللغة العربية، طبع في مطبعة جريدة المهاجر 21 شارع واشنطن نيويورك. وذلك عام 1905م. وفي عام 1906م نشر له كتابه الثاني باللغة العربية "عرائس المروج"، ثم الكتاب الثالث في عام 1908م "الأرواح المتمردة" وكتب له مقدمته التي تحدث فيها عن "أفكار جبران وأسلوبه المبتكر". وقد سرّ جبران بهذه المقدمة وكتب له: "مقدمتك لكتاب الأرواح المتمردة سرتني جدًا، لأنها خالية من الكلام الشخصي. وقد بعثت يوم الاثنين بمقالة صغيرة إلى المهاجر، فهل وصلت؟[1]

ذكر المؤلفات: مؤلفات جبران معروفة والتي نالت شهرة واسعة وترجمت إلى لغات عالمية عديدة. ونجد ذكرًا لهذه المؤلفات في مراحلها الأولى في هذه الرسائل. فنراه يتحدث عن كتاباته ومؤلفاته وطباعتها وتوزيعها. فكما سبق في ذكر جريدة المهاجر أنه طلب من أمين الغريب أن يوصي إدارة المهاجر بالمساعدة في بيع (الأرواح المتمردة)، ويذكر نيته بطبع كتابه (الأجنحة المتكسرة)، وفي نظره فهو أفضل شيء كتبه إلى حين كتابة الرسالة أي 18 آذار (مارس) 1908م، وكذلك يصف كتابه (الدين والتدين) بأنه سيولد في العالم العربي حركة هائلة، حيث أنه كتاب فلسفي بدا بتأليفه منذ أكثر من سنة، وهو بمنزلة النقطة من الدائرة بالنسبة لأفكاره، وأنه ينوي إنجاز هذا الكتاب في باريس، وربما طبعه على نفقته الخاصة.

وكما علمنا من الحلقة السابقة أنّ علاقات وثيقة كانت تربط بين جبران ومي زيادة، وكان جبران يرسل إليها كل كتاب جديد يؤلفه ويطلب رأيها الأدبي فيه، فنجده قد أرسل إليها كتاب (المواكب) وكذلك (المجنون). يقول في رسالة موجهة إلى مي: "وسوف يتحقق لديك بأن المجنون لم يكن سوى حلقة من سلسلة طويلة مصنوعة من

[1] المصدر نفسه، ص 14

المعادن، لا أنكر أنّ المجنون كان حلقة خشنة مصنوعة من الحديد، ولكن هذا لا يدل على أن السلسلة تكون كلها خشنة ومن الحديد، لكل روح فصول يا مي، وشتاء الروح ليس كربيعها ولا صيفها نكريفها.[1]

وعندما انتقدت مي لهجته وأفكاره التي اعتبرتها صبيانية وسألته عنها وعن سبب نشرها في كتاب (دمعة وابتسامة)، بين لها أن الكتاب ظهر قبل نشوب الحرب بمدة قصيرة، وقد بعث به إليها أول صدوره، ومقالات "دمعة وابتسامة" هي بدايات كتاباته منذ 16 سنة، وقام نسيب عريضة بجمعها بعد أن أضاف إليها مقالين كتبهما جبران في باريس. ويذكر لها أنه حتى قبل (دمعة وابتسامة) قد كتب ونظم في مرحلة الطفولة والشباب ما يملأ المجلدات الضخمة، ولكنه لم يقترف جريمة نشرها ولم يفعل. كما ذكر لمي كتاب (نحو الله) وأنه لا يزال في المعمل السديمي،[2] وأفضل رسومه مخطوط بعنوان (السابق).

وفي رسالة إلى الأديب ميخائيل نعيمة بتاريخ 26 آذار 1929م يسأله عن فكرة كتاب مؤلف من أربع حكايات، ميكل أنجلو، شكسبير، سبينوزا، بيتهوفن، لتعبر كل حكاية نتيجة مقررة لما في القلب البشري من الألم والطموح والغربة ثم الأمل. ثم يذكر له كتاب (حديقة النبي): "أما كتاب حديقة النبي فأمر مقرر، على أنني أرى أن من الحكمة أن أبتعد عن الطابعين في الوقت الحاضر".[3]

والمعروف أن كتاب "حديقة النبي" طبع بعد ذلك عام 1933م أي بعد وفاة جبران.

الحنين إلى الوطن: حنّ جبران دائمًا إلى الشرق عمومًا، وإلى بلده لبنان خاصة، وحنّ كذلك إلى قريته بشري وجبالها وأطلالها وهوائها، عاش في الغرب حياة الشهرة

[1] المصدر نفسه، ص 42-43

[2] السديم: هو ضباب رقيق أو نجوم بعيدة أو التعب

[3] رسائل جبران، ص 98

والإبداع ولكنه اشتاق دومًا إلى طيب بلده.

كتب في رسالة إلى أميل زيدان صاحب "الهدى" في أواخر سنة 1922م: "لقد صرت مشتاقًا إلى الشرق، رغم ما يكتبه إليّ بعض الأصحاب مما يولد القنوط في نفسي ويجعلني بعض الأحيان أفضل الغربة بين الغرباء على الغربة بين الأقرباء، برغم كل ذلك سأعود إلى بيتي القديم لأرى بعيني ما فعلت به الأيام".[1]

وفي رسالة إلى ميخائيل نعيمة من بوسطن عام 1922م يتوقع من المستقبل أن يمدهما بصومعة قائمة على كتف وادٍ من أودية لبنان، فالمدنية لم تكن تعجبه وقد وصفها بأنها شدت أوتار روحيهما هو وصديقه ميخائيل حتى كادت تنقطع، وأن عليهما أن يرحلا قبل انقطاع هذه الأوتار، ولكن عليهما بالصبر والتجلد حتى يوم الرحيل. ولكن للأسف لم يأت يوم الرحيل هذا إلا بعد وفاته.

وكان يطلب من أصدقائه الذين يسافرون إلى الشرق أن يحكوا أمام الناس أحاديث المهاجرين، ويذكروا لهم ما طوته المسافة الشاسعة بين قلوبهم، فلم يعتبر جبران بعد المسافة بين البلدان بعدًا بقدر ما يكون المرء بعيدًا لبعد القلوب. أما إذا التقت الأرواح فلا يؤثر عليها شيء: "إن نواميس الزمان والمكان والمسافة لا تؤثر على الأرواح، سبعة آلاف ميل مثل ميل واحد، وألفا سنة مثل دقيقة واحدة عند الروح".[2] كان الشوق يبلغ به لدرجة أنه كان يتخيل المناظر الخلابة لوطنه، وكانت أفكاره وعواطفه وأحلامه لا تتجه إلا نحو أبناء الوطن، وكان يرسل تحياته للأجداد النائمين تحت الثرى والآباء والإخوان العائشين فوقه. يكتب في رسالة من بوسطن بتاريخ 18 شباط (فبراير) 1913م إلى أمين الغريب: "قف على إحدى قمم لبنان صباحًا، وتأمل بطلوع الشمس وانسكاب شعاعها الذهبي على القرى والأودية، وأبق

[1] المصدر نفسه، ص 75

[2] المصدر نفسه، ص 15

هذه الصورة السماوية مرسومة على لوح صدرك لكي نراها عندما تعود إليها. تلطف وأجرِ ذكر حنين أرواحنا وتمنيات قلوبنا أمام الناشئة اللبنانية".[1]

وفي بعض الرسائل يتذكر أيام الطفولة البريئة والحكايات الشعبية التي كانت تحكى في جو مفعم بالدفء والحنان الذي افتقده في الغرب، ففي رسالة إلى ابن عمه صديقه نخلة كتبها من باريس في 27 من أيلول (سبتمبر) 1910م يحاول أن يعود بصديقه ليتذكر الماضي: "ألا تذكر تلك الحكايات اللذيذة التي كنا نسمعها أيام الشتاء بقرب المواقد بينما الثلوج تتساقط والأرياح تولول بين المنازل؟ وهل تذكر تلك الحكاية التي تخبر عن حديقة غناء ذات أشجار بهيجة المنظر شهية الأثمار؟[2]

النقد الموجه إليه: لم يسلم جبران من النقد الذي وجّهه إليه النقاد والكتّاب الآخرون، وليس المجال هنا لمناقشة هذه القضية، إنما نذكر فقط ما وجدنا إليه الإشارة في بعض هذه الرسائل، ففي رسالة إلى نخلة بتاريخ 15 آذار (مارس) 1908م يعبر عن شكوكه فيما إذا كان العالم العربي يظل صديقًا كما كان في السنوات الثلاث الأخيرة، أو يصبح عدوًا مخيفًا، لأنه كان قد بدأ يلاحظ طلائع العداوة تظهر من وراء الشفق، وقد ذكر بنفسه أنّ القوم في سوريا يدعونه بالكافر. أما أدباء مصر فينتقدونه بأنه عدو للشرائع القويمة والروابط العائلية والتقاليد القديمة. ثم يعترف بأنه فعلًا وجد نفسه يكره الشرائع التي وضعها البشر للبشر، ويكره كذلك التقاليد البالية التي تترك للأحفاد للالتزام بها. ثم يتساءل: "هل يكون لتعاليمي شأن في العالم العربي أو تفنى وتضمحل كالفيء؟".[3]

والنقد الذي وجهته إليه مي زيادة لأسلوبه وبعض أفكاره وطريقة معالجته للقضايا التي

[1] المصدر نفسه، ص 33

[2] المصدر نفسه، ص29

[3] المصدر نفسه، ص18-19

ناقشها في (دمعة وابتسامة) وكذلك في (الأجنحة المتكسرة) فمعروف وقد سبق ذكره.

وكذلك أشار في رسالة إلى أمين الغريب بتاريخ 28 آذار 1908م عن النقد الموجه إليه من قبل مصطفى لطفي المنفلوطي بشأن قصة (وردة الهاني) في مجموعة (الأرواح المتمردة)، حيث كتبه ونشره في جريدة (المؤيد)، فسأل جبران أمين إن كان سليم أفندي سركيس قد أخبره عن هذا النقد، ثم يقول: "أما أنا فقد سررت جدًا بالانتقاد لأنّ الاضطهاد هو غذاء المبادئ الجديدة خصوصًا إذا كان صادرًا عن رجل أديب مثل المنفلوطي".[1]

وكان المنفلوطي قد كتب مقالة بعنوان (الحب و الزواج) في مجلة المؤيد ونجدها بعد ذلك في كتابه (النظرات) في الجزء الأول، وانتقد فيها قصة (وردة الهاني) دون ذكر اسم جبران. ومن قرأ قصة (وردة الهاني) يمكنه أن يقف مؤيدًا أو معارضًا للأوضاع التي مرّت بها البطلة ثم موقف جبران من القرار الذي اتخذته بالانفصال عن زوجها بسبب فارق السن الكبير بينهما، وقد فارقته بالرغم من حبه الشديد لها وتوفير كل وسائل والراحة ورغد العيش من أجلها. وقد عبر المنفلوطي عن اشمئزازه من موقف جبران تجاه المرأة التي كانت أرق النساء عيشا وأروحهن بالًا، ولكنها في نظر المنفلوطي امرأة مجرمة بسبب فعلتها، واعتبره هدمًا لأسس الأسرة العربية الشريفة، و استهتارًا بقدسية الرباط الزوجي الذي تسقط أمامه كل الميول والعواطف والمشاعر. فقال: "إنّ الضجر والسآمة من الشيء المتكرر المتردد طبيعة من طبائع النوع الإنساني فهو لا يصبر على ثوب واحد أو طعام واحد أو عشير واحد وقد علم الله سبحانه وتعالى ذلك منه، وعلم أنّ نظام الأسرة لا يتم إلا إذا بني على رجل وامرأة تدوم عشرتهما ويطول ائتلافهما، فوضع قاعدة الزواج الثابت ليهدم بها قاعدة الحب المضطرب، وأمر الزوجين أن يعتبرا هذا الرباط رباطًا مقدسًا حتى يحول بينهما

[1] المصدر نفسه، ص24

وبين رجوعهما إلى طبيعتهما، وذهابهما في أمر الزوجية مذهبهما في المطاعم والمشارب من حيث الميل لكل جديد والشغف بكل غريب".[1]

ولما علم جبران على ما جاء في مقالة المنفلوطي ونقده اللاذع لقصة (وردة الهاني) رد للدفاع عن موقفه عن طريق مقال، وهو أيضًا لم يذكر اسم المنفلوطي بل أشار إليه بـ"الأديب المصري الفاضل" (ولكننا رأينا في الرسالة ذكرًا صريحًا للاسم). فكتب مقالة يتأسف فيها على حال المجتمع الإنساني المنافق من الداخل لكنه يتصف بالصلاح في الظاهر ويكبل الناس بقيود الشرائع، ثم يصفهم بالأشرار إذا ما استمعوا يومًا إلى نداء النفس، ورغبة العيش السعيد، وثاروا على القوانين التي سنها الإنسان ليستعبد الإنسان. ويدافع جبران عن شخصية وردة الهاني في رده: "لأنها كسرت قيود الشرائع والتقاليد الفاسدة واتبعت نداء القلب وصدى نغمة الملائكة ومشت فارحة نحو النور والحب والحرية". ثم يقول: "...نعم وألف سلام وسلام على العائلة التي تخشى خرابها أيها الكاتب الأديب، ألف سلام وسلام على البيت القائم على الخبث والتصنع والرياء..."[2]

الصحة والتدخين: من خلال الرسائل نستطيع التعرف على بعض العادات اليومية التي كان يمارسها جبران، ومنها عادة التدخين وشرب القهوة. وكان يوصد باب غرفته ويجلس وحده في ظلال سحابة من دخان السجائر الممزوج بعطر القهوة المجازية. "فما ألذ السكاير وما ألذ القهوة المجازية..."[3]

وقد أدت به عادة التدخين المستمر هذه إلى ترك مضاعفات على صحته، فكان ينتقل من طبيب إلى آخر ويجري الفحوصات الطبية الدقيقة، ثم طالبه الأطباء بالخروج من المدينة الصاخبة نيويورك والذهاب إلى البرية والاستسلام إلى الحياة البسيطة الخالية من كل فكر

[1] النظرات للمنفلوطي، 211/1 مقالة (الحب والزواج)
[2] الصفحة الأولى من جريدة "المهاجر"، (لم يعرف العدد)
[3] رسائل جبران، ص 21

ومن كل قصد. "أي أنهم يطلبون مني أن أتحول إلى ملفوفة في بستان أو إلى نبتة طفيلة".[1]

وقد انتقل إلى بوسطن لأنّ الطبيب قد حكم عليه بالانزواء والابتعاد عن المدن والمدنية، فاستأجر هناك كوخًا صغيرًا بالقرب من الحر لينتقل إليه للعيش مع شقيقته، وسيبقى هناك حتى يعود قلبه إلى نظامه. وهذا ما ذكره في رسالة إلى ميخائيل نعيمة من بوسطن عام 1922م.

الحديث عن نفسه وأحلامه: كان جبران يحب العمل، بل يمكن أن نقول أنه كان مدمنا للعمل، ورأينا أنه أنهك نفسه ولم يبال بصحته بسبب انغماسه في الكتابة، ورغم تحذيرات الأطباء له. ولكنه لم يكن يدع دقيقة تمر دون انشغال، وكانت الأيام التي تمر عليه دون عمل ونفسه راقدة خاملة كان يعتبرها أمر من العلقم وأشد قساوة من نياب الذئاب.

وقد تحدث في رسالته إلى أمين الغريب 28 آذار 1908م عن التغيرات التي طرأت على معيشته وما كان يشعر به من قبل، فكان قبل سفره إلى باريس يحب العزلة والانفراد، ولكنه فقد هذه اللذة بعد حلمه بالسفر إلى باريس، والقناعة التي كان يتصف بها في تمثيل الأدوار أصبحت لديه خمولًا. وكان ينظر إلى الحياة من وراء دمعة وابتسامة، أي يوجد فيها الفرح والحزن والسعادة والشقاء، ولكن نظرته تغيرت وأصبحت الحياة جميلة من وراء اشعة ذهبية سحرية تبث القوة في النفس والإقدام في القلب والحركة في الجسد. يقول: "كنت يا أخي مثل طائر مسجون في قفص، وكنت راضيًا بالبذور التي كانت تضعها يد القدر، أما اليوم فصرت مثل طائر حر يرى أمان بهجة الحقول والمروج الخضراء، فهو يريد أن يطير سابحًا في الفضاء الوسيع، ساكبًا في الأثير أشباح روحه وخيالات أمياله".[2]

كان دائمًا يتحدث عن خلجات نفسه في هذه الرسائل وما يشعر به تجاه نفسه: "أنا يا

[1] المصدر نفسه، ص 67

[2] المصدر نفسه، ص 25

نخلة شجرة مسحورة ولحد الآن لم يأت- سي علاء الدين- (شخصية في قصة شعبية) من وراء سبعة بحور ليفك قيودي ويحل روابط السحر عن كياني ويجعلني حرًا بكل ما في الحرية من استقلال".[1]

مناقشة قضايا فنية: كان يكتب في رسائله لأصحابه عن بعض القضايا الفنية التي كانت تشغل تفكيره، فكان إما يناقشها معهم أو يكتب لهم عن بعض الأمور التي كانت تدور بينه وأدباء آخرين، ففي رسالة إلى ميخائيل نعيمة من نيويورك بتاريخ 4 أيلول 1919م يذكر له حديثه مع نسيب عريضة، وكيف أنه تحدث إليه بشأن إحياء الفنون (الظاهر من محتوى الرسالة أنه يتحدث عن مجلة الفنون) والسبل التي تضمن مستقبلها. وكان يبذل قصارى جهده لكي يضع أمام الناس هذه القضية، فكان يجتمع ويتحدث إلى الكثير من أدباء بوسطن ونيويورك، ولكنه يظهر استياءه كذلك، حيث تتوقف المحادثات كلها عند نقطة واحدة وهي أن الأديب نسيب عريضة لا يمكنه أن يقوم بكل الأعمال بمفرده، فلا بد من عودة ميخائيل نعيمة (وهو المرسل إليه) إلى نيويورك ويشترك مع نسيب في وضع المشروع بطريقة عملية أمام الأدباء في نيويورك وتجارها، وذلك لكسب ثقتهم بوجود شخصيتين وليست واحدة.

واقترح كذلك إقامة حفلة كبيرة يذهب ريعها لصالح المجلة، ويتساءل عن كيفية نجاح الحفلة ومديرها ومرتبها موجود في واشنطن وليس نيويورك؟ ويقصد بذلك ميخائيل نعيمة. ومن أجل إحياء المجلة تقدم باقتراح تشكيل لجنة صغيرة تقوم بالعمل ويجب أن أمين صندوقها شخص معروف وموثوق به، وهو أيضًا ميخائيل الذي يستطيع أن يشكل لجنة كهذه. فكان ميخائيل في نظر جبران هو الشخص الذي تبدأ وتنتهي به أمور كثيرة فيما يتعلق بمجلة الفنون. ولذلك نراه يطلب من ميخائيل العودة إلى نيويورك إن كان يريد إحياء المجلة، وتحدث كذلك عن المبلغ الذي يكفل مستقبل المجلة وهو

[1] المصدر نفسه، ص 29

خمسة آلاف ريال، ولكنهم لا يستطيعون جمع نصف هذا المبلغ بدون عقد الحفل. ثم يكتب: "الخلاصة أنه على وجودك في نيويورك يتوقف نجاح المشروع، وإذا كان رجوعك إلى نيويورك يستلزم التضحية فالتضحية في مثل هذه الظروف هي عزيز الموضوع على أقدام الأعز والمهم الموقوف على مذبح الأهم، وعندي أن الأعز في حياتك هو تحقيق أحلامك، والأهم في حياتك هو استثمار مواهبك".[1]

وكان من مهماته حضور اجتماعات الرابطة القلمية، وهي الرابطة المعروفة التي أسّسها جبران مع أصحابه المهاجرين إلى أمريكا ومنهم ميخائيل نعيمة وإيليا أبو ماضي وعبد المسيح حداد ورشيد أيوب وغيرهم وذلك عام 1920م، وكان من إصداراتها مجلة الفنون التي سبق ذكرها. وفي رسالة إلى ميخائيل يعتذر عن حضور اجتماع الرابطة، ويطلب منه أن يجتمع هو وأصحابه ويقرّروا ما فيه الفائدة. وكان هذا الاعتذار بسبب مكوثه في بوسطن. وقد ذكر أنه في هذه الأيام بحاجة ماسة إلى تمنيات الأصدقاء وصلوات المتعبدين.

وهكذا رأينا أننا من خلال الرسائل تعرفنا على الكثير مما كان يدور وراء كواليس الفنون والأدب وطباعة الكتب والمجلات وخروجها إلى النور حتى يطلع عليها القراء في شكلها النهائي والصعوبات التي كانت تواجههم في هذا الطريق، كما أننا تعرفنا على أمور شخصية لهؤلاء الأدباء قلما نجدها في الكتب والمقالات التي تكتب لتعرف بهؤلاء. فكأننا نتعرف على حياة جديدة وشخصية مختلفة عما يقدم في المقالات التي تكتب لبيان سيرة الأدباء. وستتبع هذه المقالة مقالات أخرى بإذن الله نتعرف من خلالها على جوانب خفية من شخصيات كتاب آخرين.

[1] المصدر نفسه، ص 36

ISSN: 2321-7928

استعراض كتاب:

"خير الماعون في منع الفرار من الطاعون"

- د. محمد فضل الله شريف[1]

اسم الكتاب: خير الماعون في منع الفرار من الطاعون

اسم المؤلف: الإمام العلامة المحدث أبو العلاء محمد عبد الرحمن المباركفوري

اسم المترجم: راشد حسن المباركفوري

الطابع: دار المقتبس، دمشق، سوريا.

سنة الطبع: الطبعة الأولى، 1442هـ=2021م.

ثمن النسخة: غير متوفر

إنّ هذا الكتاب مهمٌ جدًا في بيان تاريخ الطاعون والأمراض الفتاكة وأحكامها، في ضوء الشريعة الإسلامية ونصوص الكتاب والسنة، التي أبادت كثيرًا من الناس، واجتاحت العمران الكبير، واستأصلت كلّ صغير وكبير، ولا أصابت قرية ولا بلدًا ولا إقليمًا إلا واكتسح أسودها وأبيضها، مثل هذه الأوبية والأمراض الفتاكة والطاعون قد وقعت في كثير من الأقاليم والبلاد على مرّ العصور، وكرّ الأزمان على وجه الغبراء، يستحيل إحصاؤها ويستعصي عدّها، وقد جاء تأليف هذا الكتاب المهم لما وقع الطاعون بمباركفور (أعظم كره، الهند)، وجعل يتفشى بسرعة هائلة، فجعل الناس يلوذون إلى المدن والقرى، فارين وهاربين من هذا المرض الموذي، سنة

[1] رئيس هيئة الدراسات العربية الشرقية بالجامعة العثمانية.

1321هـ=1903م، ومات كثير من الناس إثر هذا الوباء العامّ الفتاك، وعند ذلك جرى النقاش بين العلماء حول مسألة الفرار من الطاعون، فقام العلامة عبد الرحمن المباركفوري بتأليف هذا الكتاب النفيس باللغة الأردية، وأحاط بجميع جوانب المسألة في ضوء الكتاب والسنة النبوية الشريفة، ليكون الناس على حقّ وصواب. والكتاب مهمٌّ جدًا، لما يحتوي على مباحث قيمة، وجاء مستغرقًا 284 صحفة.

محتويات الكتاب:

تقريظ المحدث مشهور بن حسن آل سلمان (الأردن، عمان)

في بداية الكتاب تقريظ مختصر لفضيلة الشيخ المحدث مشهور بن حسن آل سلمان/ حفظه الله ورعاه في التعريف بالكتاب، والإشارة إلى جهود العلماء وآثارهم العلمية، وخاصة علماء الهنود وأياديهم البيضاء في إنجاز المؤلفات الإسلامية ونشرها، فمنهم الشيخ العلامة المحدث محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (ت: 1353هـ=1935م) مؤلف سفره العظيم المبارك: "تحفة الأحوذي" شرح "سنن الترمذي". يقول في التقريظ:

"ومما ألّف، كتبًا في الطاعون، ولكنها بلغة أهل الهند (الأردو)، ووقعت نازلة (وباء كرونا) في هذا الزمان، فطلبت من أخي في الله العالم الشيخ راشد حسن بن فضل حق المباركفوري، ترجمة كتاب "خير الماعون في منع الفرار من الطاعون" له.

إذ هو كتاب علمي، محرر، قائم على طريقة أهل الحديث، فقام صديقنا الدكتور حفظه الله بترجمة هذا الكتاب إلى العربية، وهو لم ينشر قبل هذه الطبعة إلا باللغة الأردية، فشكر الله له، وجعله في ميزان حسناته.

ومما ازدان به عمل الأخ المترجم، تلك الدراسة المهمة عن المؤلف، وكذا محاولته لإحصاء المؤلفات التي كتبت عن الطاعون، وتزداد المكتبة العربية، وتزدان بهذا

المؤلف المهم، في هذه النازلة التي عمت أرجاء الدنيا". (خير الماعون في منع الفرار من الطاعون، ص 5-6)

مقدمة المترجم (راشد حسن المباركفوري)

قام المترجم راشد حسن المباركفوري (الأستاذ المساعد بالجامعة الإسلامية فيض عام، مئو، الهند) في المقدمة بذكر الطاعون والأمراض الفتاكة التي أبادت العالم في العصور المختلفة، واجتاحت كثيرًا من العمران والعباد والبلاد، واكتسحت القرى والأمصار والأقاليم، فذكر خلال ذلك أول طاعون وقع في تاريخ الإسلام في عهد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وموت خمسة وعشرين ألفًا أو ثلاثين ألفًا، فمنهم أجلة الصحابة وأشرافهم أمثال أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، ويزيد بن أبي سفيان، رضي الله عنهم أجمعين، ثم قام ببيان معنى الطاعون وأقسامه وأنواعه، والفرق بين الطاعون والأوبئة الأخرى، ثم تحدث عن الأعضاء التي يقع بها الطاعون، من جسم الإنسان، كل ذلك في ضوء أقوال العلماء الأطباء، وبيان موقف العلماء والأطباء في وقوع الطاعون، والأحاديث التي ورد فيها ذكر الطاعون، وأطال في بيان الكتب المحررة في الطاعون وهي كثيرة، فمنها 14 كتابًا ذكرها لعلماء العرب، واثنا عشر كتابًا لعلماء الهنود. فيقول في هذا الصدد:

"إن الطاعون من الأمراض الفتاكة القاتلة، لا يحل بمربع إلا أباد أهله، ولا ينزل بمرتع إلا اجتاح صغيره وكبيره، ولا يصيب قرية أو بلدًا أو إقليمًا إلا واكتسح أسودها وأبيضها، واستأصل شأفتها، بدون التمييز بين قادم ومقيم، وغاد ورائح، كأن الموت بين أيديهم يدور، وفوق رأسهم يجول ويطوف، وقد وقع هذا الطاعون في الأقاليم والبلاد على مرّ الأزمان وكرّ القرون حيث لا يأتي عليه الحصر ويستعصي العد، وأول طاعون في الإسلام كان طاعون عمواس بالشام في زمن خلافة عمر بن الخطاب، ومات فيه خمسة وعشرون ألفًا أو ثلاثون ألفًا، منهم أجلة أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأشرافهم

أمثال أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، ويزيد بن أبي سفيان، وغيرهم، ثم وقع في الفترات الزمنية المختلفة، ذكرها الحافظ في "بذله" بتفصيل وإتقان، وهنا يهمنا أن نتحدث عن معنى الطاعون، وأقسامه، والفرق بين الطاعون والأوبئة العامة، وكذا الفرق بين موقف الإطباء والشرع منه، والإشارة العاجلة إلى الكتب التي ألفت في هذا الخصوص مع التركيز على ما ألّف في شبه القارة الهندية، ومن ثم عن هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ اللبيب الآن، وذلك لتستوعب ما فات المؤلف- رحمه الله- من المباحث الأولية في ثنايا الكتاب". (خير الماعون في منع الفرار من الطاعون، 7-8)

قام المترجم الخبير بترجمة هذا الكتاب ونقله إلى العربية بأسلوب علميّ رشيق، واللغة العربية الفصيحة، والاقتباس السالف أعلاه من المقدمة خير شاهد على مدى تضلعه وبراعته في التعريب والنقل والتحقيق، إنَّه قام بتعريب الكتاب، بأسلوب علمي فصيح، وطريق أكاديمي سليم، حيث لا يُعرف أنه منقول من الأردية، بل يبدو في بادي النظر أنه مؤلَّف أصلي، أُلف باللغة العربية أصلاً، ولا نشعر برائحة الترجمة، وقام به كالمترجم النابغ الناجح الذي يراعي جميع خصائص الترجمة الناجحة، للنصوص المترجمة، ونقل الأفكار والآراء بكل دقة وسلاسة ومهارة.

كيف لا وهو كاتب قدير ومترجم بصير معروفٌ في الأوساط العلمية العالمية، أثنى على جهوده وإنجازاته عدد من الباحثين المتضلعين والعلماء المتقنين، وقد طبع له عددٌ يُذكر من مؤلفاته ومترجماته ما بين العربية والأردية في أشهر مكتبات العالم من بيروت ودمشق والكويت والرياض والمدينة النبوية والهند.

منها: "من رواد حركة التجديد والإصلاح في الهند: العلامة المحدث محمد فاخر زائر الإله آبادي" (وفيه رسالته: رسالة في النجاة في مسائل الاعتقاد، المستمد من السنة والكتاب)، طبع في "دار اللؤلؤة" ببيروت، و"الدليل المحكم في نفي أثر القدم" للمحدث نذير حسين الدهلوي، تعريب، طبع في "دار إمام مسلم" بالمدينة المنورة. وغيرها.

وهذا الكتاب الذي نحن بصدد التعريف به، يقع في مقدمة، وبابين، وخاتمة، فمقدمة الكتاب تشمل المسائل الأولية بعرض التساؤلات والإجاجة عنها بالبسط والتفصيل، مثل: هل الفرار من الطاعون يضمن النجاة؟ ما حكم الاعتقاد بالنجاة لمن فرّ؟ سبب وقوع الطاعون، هل دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمته بالموت فيه وغير ذلك.

ترجمة الكتاب:

ثم بيّن المترجم محتويات الكتاب بالبسط والتفصيل بعنوان "هذا الكتاب" وعمله في الكتاب في التعريب.

لما فشى كوفيد 19 الفتاكة في عام 2019م إلى 2021م في العالم كله، وعاد الزمان على ما كان عليه في العصور الماضية المختلفة في تفشي الأمراض والأوبئة الفتاكة المعدية، بشكل غير ما كان في العصور الأولية الماضية، فأصبح الناس في هرج ومرج، وطرأ العالم الخوف والذعر والهيبة، ومات كثير من الناس، وتعرض لهذا المرض الموذي، فتعطلت المصالح في العالم كله، أغلقت المساجد، والمدارس والكليات والجامعات، والأسواق، والمكاتيب، وبل تعطل كل شيء، وأغفلت المدن والمديريات لئلا يدخل فيها من لم يكن من أهلها، فاضطر الناس إلى المكث في بيوتهم، فعند ذلك قام المترجم بنقل هذا الكتاب المهم العلمي الجامع من الأردية إلى العربية، ليكون هذا السفر الجليل في أيدي علماء العرب، فكان الناس في حاجة إلى توجيهات وإرشادات في المسائل والأحكام المتعلقة بهذا المرض، فكانت للعماء الأقدمين في هذا الصدد كتب كثيرة شهيرة، وكانت الحاجة شديدة إلى ظهور كتاب مهم في هذا الصدد، فأشار للمؤلف فضيلة الشيخ المحدث مشهور بن حسن آل سلمان حفظه الله، واقترح على المترجم بتعريب هذا الكتاب المهم، فقام المترجم بالتعريف به ونقله خير قيام، وبذل غاية اهتمام وعناية، وأدّى الحق، وقام بالترجمة السلسلة البينة الواضحة، والفصيحة البليغة، لا يشعر القاري بأنه مترجَم، بل هو مؤلف في العربية، والعجب بأن المترجم

قام بترجمته في ثمانية أيام فقط، وواصل العمل ليلًا ونهارًا، ثم قام بتحرير ترجمة المؤلف في البداية، وكتب ترجمة المؤلف ترجمة موسعة، وكتب مقدمة الكتاب، ووضع الفهارس العلمية، فجاء نشر هذا الكتاب وطبعه من بيروت في حلة قشيبة.

ولم يكن المترجم قام بتعريف الكتاب فقط، بل خلال عمل الترجمة قام برعاية أمور عديدة، حيث أنه نقل النص الأردي إلى العربية بكل دقة وأمانة ووضوح، وإتقان وبراعة، مع مراعاة الأسلوب العربي.

كما قام بنقل الآيات الورادة في الكتاب مشكلة، وعزاها إلى الأماكن في القرآن مع بيان السور ورقم الآية لكي يسهل للقارئ العلم بموقع الآية ومكانها في القرآن الكريم. كما قام بتخرج الأحاديث الواردة على الطريقة العلمية المعاصرة. وكذا اهتم بوضع الأحكام على الأحاديث مستمدًا بأقوال الأئمة النقاد، وخاصة حكم الإمام الألباني، عندما لم يتعرض المؤلف ببيان أحكام الأحاديث صحة وضعفًا. وهكذا اهتم بتخريج جميع ما ورد في الكتاب من النصوص والنقول والمقتبسات مع إيراد رقم الصحة والمجلد. إلى جانب ما قام به من التعليق والتحشية على المواضع العديدة حسب الحاجة والضرورة والاقتضاء.

يقول المترجم وهو يذكر أسباب الترجمة لهذا الكتاب:

"فكانت الحاجة ملحة أن يظهر كتاب في هذا الخصوص، وللعلماء الأقدمين كتب كثيرة فيه، فشعر بهذه الحاجة والأهمية فضيلة الشيخ المحدث مشهور بن حسن آل سلمان حفظه الله تعالى واقترح علي قبل أيام بتعريب كتاب "خير الماعون في منع القرار من الطاعون" للعلامة المحدث أبي العلاء محمد عبد الرحمن المباركفوري- رحمه الله- فوقع الاقتراح موقعه في قلبي؛ لأهمية الكتاب ولمكانة المؤلف العلمية، فبدأت وجاوزت مرحلة التعريب في ثمانية أيام بعد عمل متواصل ليل نهار، ثم عكفت على كتابة وتحرير ترجمة المؤلف ترجمة موسعة، ومقدمة المترجم، وصنع الفهارس العلمية، فجاء في هذه الحلة التي ترونها الآن، والحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات وتدوم

الطيبات". (خير الماعون في منع الفرار من الطاعون، ص 21)

ترجمة المؤلف:

ثم كتب المؤلف ترجمة المؤلف الإمام المحدث أبو العلاء محمد عبد الرحمن المباركفوري سيرته ومآثره ببسط وتفصيل، فقسم هذه الترجمة إلى بابين، ففي الباب الأول قام بذكر سيرته الشريفة، فذكر اسمه ونسبه، وهو: الشيخ العلامة المحدث أبو العلاء محمد عبد الرحمن بن الحافظ عبد الرحيم، ثم ذكر العصر الذي عاش فيه، بأنه عاش عصرَ انحطاط المسلمين، ثم ذكر مولده ومنشأه: بأنه من مواليد عام 1283هـ=1865م في أسرة دينية بمباركفور، فحصل على بداية العلوم ثم سافر إلى غازي فور حيث التحق بمدرسة جشمه رحمت، واستقر هناك ملازمًا استاذ الحافظ عبد الله الغازيفوري قرابة خمس سنوات، ودرس عليه الأدب والمعاني، والتفسير، والحديث وعلومه، والفقه، والعلوم العقلية من المنطق والفلسفة والهيئة، ثم ارتحل إلى دهلي للأخذ عن الشيخ المحدث السيد محمد نذير حسين المحدث الدهلوي، فقرأ عليه متونًا جليلة، ثم توجه إلى الشيخ الجليل المحدث حسين بن محسن الأنصاري اليماني لأخذ الحديث وطلب علو الإسناد، ثم رجع إلى مسقط رأسه ومرتع صباه مباركفور، اشتغل بالدعوة والإرشاد، والتدريس والتصنيف، وإنشاء المدارس.

ثم قام المترجم بذكر زواجه وعائله، وشيوخه، ومآثره وتبحره في الحديث وعلومه، ووفاته بأنه للسادس عشر من شهر شوال: 1353هـ، المصادف للثاني والعشرين من يناير 1935م ودفن في مقبرة "روضة" في حي حيدرآباد بمباركفور، ثم ذكر سمعته وصيته بين العلماء بذكر أقوال العلماء المرموقين في العالم مثل قول الشيخ تقي الدين الهلالي المراكشي، وأقوال العلامة المحدث ناصر الدين الألباني، والشيخ أبي الحسن علي الندوي، والشيخ عبد الواسع اليمني وفي الباب الثاني ذكر مآثره ومحاسنه.

فذكر أنه بعد الفراغ قام بنشر الدعوة إلى الله ونشر التعاليم السمحة المستقاة من

الكتاب والسنة، والتصنيف والتأليف، والإفادة والتدريس، وإنشاء المدارس، فأسّس مدرسة في بيته مع والده لنشر السنة الصحيحة وإعادة الناس إليها، وأسمى هذه المدرسة "مدرسة دار التعليم"، فطلبه كبار العلماء للتدريس والإفادة في مدارسهم، حتى طلب الملك عبد العزيز آل سعود من العلامة المباركفوري أن يدرس الحديث في الحرم المكي، ولكن اعتذر عنه لأشغاله العلمية؛ بأنه مشتغل ومكبّ على إكمال "تحفة الأحوذي بشرح الجامع الترمذي"، وقال: سأفكر بعد الفراغ.

ثم تحدث المترجم عن مآثره في التأليف والتصنيف: وذكر عدة كتب وفصل الكلام حولها: مثل: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، مقدمة تحفة الأحوذي، أبكار المنن في تنقيد آثار السنن، تحقيق الكلام في وجوب القراءة خلف الإمام، خير الماعون في منع الفرار من الطاعون، المقالة الحسنى في سنية المصافحة باليد اليمنى، كتاب الجنائز، نور الأبصار (في إقامة الجمعة في القرى والأمصار) (تعريب وتحقيق: راشد حسن المباركفوري)، تنوير الأبصار في تأييد نور الأبصار، ضياء الأبصار في رد تبصرة الأنظار، القول السديد فيما يتعلق بتكبيرات العيد (تعريب وتحقيق: راشد حسن المباركفوري)، إعلام أهل الزمن، الدر المكنون في تأييد خير الماعون، جزء من مصنف ابن أبي شيبة.

وعلاوة على ذلك ذكر المترجم له الكتب غير المطبوعة، وهي لا زالت مخطوطة، فمنها: الوشاح الإبريزي في حكم الداء الإنجليزي، إرشاد الهائم إلى منع إخصاء البهائم، الكلمتة الحسنى في المصافحة باليد اليمنى، رسالة في رفع اليدين للدعاء بعد الصلوات المكتوبة، رسالة في مسائل العشر، تنقيد الدرة الغرة، الحق المبين في سنية المصافحة باليمين، رسالة في ركعة الوتر، مجموع الفتاوى.

أصل الكتاب ومحتوياته:

إنّ الكتاب يشرع من هنا فيقول المؤلف في بداية الكتاب:

فهذه الرسالة المسماة بـ"خير الماعون في منع الفرار من الطاعون" أوضحنا فيها عدم

جواز الفرار من الطاعون ومحله بنصوص الكتاب وصحيح السنة، ثم ناقشنا جميع دلائل القائلين بالفرار، وأجبنا عن حيلهم وأعذارهم إجابة مفصلة. (خير الماعون في منع الفرار من الطاعون، ص 93)

فالرسالة تحتوي على مقدمة وبابين وخاتمة.

مقدمة المؤلف:

قام المؤلف في مقدمة الكتاب بإيضاح بعض الأمور المهمة المفتقرة إلى التوضيح والبيان مما يساعد القارئ على فهم المفاهيم والمغلوطات في خصوص هذا الموضوع، بشكل سؤال وجواب مثل: هل ينفع الفارين من الطاعون فرارهم، يعني هل هم سالمون عنه بسبب فرارهم من مكانهم؟ ما حكم من اعتقد أنه ينجو منه إن فر؟ ما سبب وقوع الطاعون، فساد الهواء أم هناك سبب آخر؟ هل الطاعون مرض يعدي عند الشرع أم لا؟

هل استعاذ النبي من الطاعون أم دعا لأمته أن يموت فيه؟ هل البقاء في مكان وقع به الطاعون منهي عنه في الشرع أم له فضل ثابت؟ ما هو مذهب الجمهور من أهل العلم من الصحابة والتابعين وغيرهم، في جواز الفرار منه، وهذه المباحث تبدأ من الصحفة 93 من الكتاب وينتهي إلى الصحفة 109.

فقد فصل الكلام المؤلف في هذا تفصيلًا دقيقًا في ضوء الكتاب والسنة فمثلًا يقول:

رابعا: هل الطاعون مرض يعدي؟

فأجاب في ضوء الأحاديث في التعدية وعدمها: "ثبت في ضوء الدلائل أنّ الطاعون ليس من الأمراض المعدية بطبعها، وثبت بالعقل أيضًا، وأما الدلائل التي أثبتت الإعداء، فهي ضعيفة واهنة لا تقبل ثم إن الدكتور ميجر كل كهارن والدكتور هيفكن أثبتا عدم إعدائه بعد البحث والتحقيق في خصوص الطاعون الواقع بمومبائي حاليًا، ولم تقله هذه اللجنة المكونة من الدكتورين وزملائهما فحسب بل قاله طائفة مثقفة من أوروبا". (خير الماعون في منع الفرار من الطاعون، ص 21)

الباب الأول النهي عن الفرار عن محل الطاعون:

فالباب الأول يحتوي على بيان عدم جواز الفرار من المكان الذي وقع به الطاعون، وهذا الباب محتوٍ على ثلاثة فصول مهمة.

الفصل الأول: الأدلة من القرآن الكريم:

الفصل الأول أورد فيه المؤلف الأدلة من القرآن الكريم في منع الفرار من الطاعون، وهذا الفصل يبتدئ من الصفحة 113، وينتهي بنهاية الصفحة: 127.

فقدّم المؤلف الآية من القرآن الكريم، واستنبط بذلك عدم جواز الفرار من موضع الطاعون وهي الآية: " أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾" (سورة البقرة: 243)

فقدم في تفسير هذه الآية أقوالَ كثير من العلماء بأنّ المراد بالفرار وهو موضع الطاعون، مثلا قول الشاه ولي الله الدهلوي، وقول الشيخ أحمد الصاوي في حاشية الجلالين، وقول السيوط في الإكليل، وقول ملا جيون في التفسيرات الأحمدية، وقول العلامة ابن حجر الهيثمي في "الزواجر". وقول العلامة مرتضى الزبيدي في شرح إحياء العلوم بعد نقل الأحاديث الدالة على منع الفرار من الطاعون، وقول العلامة العيني في عمدة القاري، وقول البغوي في معالم التنزيل، وقول الحافظ ابن كثير في تفسيره.

وهناك أحاديث أخرى مؤيدة لحديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأما ما قلنا في السطور السالفة أعلاه بأن هؤلاء هربوا من الطاعون، وهو قول أكثر المفسرين فاسمعوا الدليل، ولكن القول الثاني في ذلك فرارهم من الجهاد من خوف العدو، وهذا القول ضعيف إلى ذلك يشير المؤلف:

"وأما ما ضعفنا القول الثاني في السطور المذكورة أعلاه فلأنّ المفسرين عامة يوردون

هذا القول بعد القول الأول، وكل ما عثرنا عليه من كتب التفسير وجدناه كذلك، ثم إنه قد ورد في بعض التفاسير بلفظة "قبل، وفي البعض الآخر لا يوجد على القطع، أكتفي بالقول الأول، فتجد في تفسير الجلالين، وتفسير ابن كثير، وجامع البيان، والأكليل في استنباط التأويل، وتفسير الحسني=القول الأول فقط لم يذكر القول الثاني.

وذُكر القولان في معالم التنزيل، وتفسير الخازن، والتفسير الكبير، وتفسير البيضاوي، والكشاف، وتفسير الخطيب، وتفسير أبي السعود، وتفسير المدارك، وتفسير النيسافوري، وروح المعاني وغيرها. وهؤلاء ذكروا القولين وقدموا الأول على الثاني، وبالتالي لم يذكروا دليلًا للقول الثاني، والروايات التي أوردها الطبري عن ابن عباس في هذا الخصوص لا تحتج بها، فمنها حديث لا توجد رجاله في كتب الرجال... ومنها ما هو منقطع". (خير الماعون في منع الفرار من الطاعون، ص 123)

كما يجدر بالذكر أن أذكر من الكتاب تفسير الحافظ ابن كثير في خلفية الآية:

"ذكر غير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كانوا أهل بلدة في زمان بني إسرائيل استوخموا أرضهم وأصابهم بها وباء شديد فخرجوا فرارًا من الموت إلى البرية، فنزلوا واديًا أفيح، فملأوا ما بين عدوتيه فأرسل الله إليهم ملكين أحدهما من أسفل الوادي والآخر من أعلاه، فصاحا بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم موتة رجل واحد". (خير الماعون في منع الفرار من الطاعون، ص 122)

الفصل الثاني: وجوب الإقامة في محل الطاعون ومنع الفرار منه في ضوء الأحاديث النبوية المشرفة.

الفصل الثاني: أورد فيه المؤلف الأدلة من السنة النبوية الشريفة، وسرد في هذا الباب سبعة أحاديث مع بيان الأحكام من صحة وضعف، كما قام باستيعاب المسائل والفوائد والنكات المستنبطة منها، وهذا الفصل يتراوح ما بين الصفحة 128 إلى 142.

فيقدم أقوال العلماء الأفذاذ في شرح حديث أسامة بن زيد: ماذا سمعت من رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في الطاعون؟ فقال: أسامة: قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: الطاعون رجس أرسل على طائفة من بني إسرائيل، أو على من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض، فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض، وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه.

فقال بعد ذكر الحديث المذكور:

ثبت من هذا الحديث بصراحة حرمة الفرار من الطاعون ومحله، لأنه ورد فيه منع الخروج بصيغة النهي (فلا تخرجوا) والنهي موضوع للحرمة، ويؤيده حديث عائشة "الفار من الطاعون كالفار من الزحف" وهذا هو مذهب الجمهور، والقائلون بالنهي على التنزيه قولهم دون دليل، قال العلامة الزرقاني في شرح الموطأ: والجمهور حتى قال ابن خزيمة أنه من الكبائر التي يعاقب الله عليها أن لم يعف.

وقال ابن خزيمة إنّ الفرار من مكان الطاعون من الكبائر التي يعاقب الله عليها إن لم يعف، وقال الزرقاني في "شرح المواهب اللدنية":

وخالفهم الأكثر، وقالوا: إنه للتحريم، حتى قال ابن خزيمة، إنه من الكبائر التي يعاقب الله عليها، إن لم يعطف، وهو ظاهر قوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: الطاعون غدة كغدة البعير المقيم بها، كالشهيد، والفار منها كالفار من الزحف" رواه أحمد، برجال ثقات. (خير الماعون في منع الفرار من الطاعون، ص 138)

وهكذا قدّم المؤلف سبعة أحاديث، وقام بشرح الأحاديث كلها في ضوء أقوال العلماء، وعزا القول إلى المؤلف في كتابه، وأثبت بذلك حرمة الفرار من موضع الطاعون.

الفصل الثالث: آثار الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين في منع الفرار من الطاعون:

بيّن المؤلف في هذا الفصل ما جاء من آثار الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين في منع الفرار من الطاعون.

فقدم أولًا قول الصحابي عتبة الخولاني من كتاب السيوطي شرح الصدر بشرح حال الموتى والقبور:

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عتبة الخولاني الصحابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قيل له: إن عبد الله بن عبد الملك خرج هاربًا من الطاعون، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون ما كنت أرى أني أبقى حتى أسمع بمثل هذا، أفلا أخبركم عن خلال كان عليها إخوانكم، أولها: لقاء الله تعالى كان أحبّ إليهم من الشهد، والثانية: لم يكونوا يخافون عدوًا قلّوا أو كثروا، والثالثة: لم يكونوا يخافون عوزًا من الدنيا كانوا واثقين بالله أن يرزقهم، والرابعة: إن نزل بهم الطاعون لم يبرحوا حتى يقضي الله فيهم ما قضى. (خير الماعون في منع الفرار من الطاعون، ص 150)

كما قدم قول الصحابي شرحبيل بن حسنة عندما وقع الطاعون في بلاد الشام، وخطب عمرو بن العاص بين الناس: إن هذا الطاعون رجس، فتفرقوا عنه في الشعاب، وفي هذه الأودية، فغضب شرحبيل عند ذلك: فجاء وهو يجر ثوبه معلقًا نعله بيده، فقال: صحبت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعمرو أضل من حمار أهله، ولكنه رحمة بكم، ودعوة نبيكم، ووفاة الصالحين قبلكم.

الباب الثاني: شبهات القائلين بجواز الفرار من محل الطاعون والرد عليها:

الباب الثاني يشتمل على بيان شبهات القائلين بالفرار، ومن ثم الرد عليها ردًا علميًا متينًا شافيًا، فقد أورد المؤلف في هذا الباب أربعًا وعشرين شبهة مع المناقشة لتلك الشبهات مناقشة علمية، توحي وتنم عن مكانة المؤلف العلمية السامية، وتضلعه في استيعاب المسائل، واستخراج الفوائد الدقيقة.

إن المؤلف قدم الآية الكريمة، وعبارة من عمدة القاري، وتفسير روح البيان وبيتا لسليمان بن معبد ثم أورد الشبهات والأعذار للقائلين بجواز الفرار من الطاعون ومحله: "أما الآية فهي: "وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا" (سورة آل عمران: 145)

أما العبارة من عمدة القاري، فهي: "وَلَا يتحيل في الخروج في تجارة أو زيارة أو شبههما ناويًا بذلك القرار منه، وبين هذا المعنى قَوْلِهِ "إِنَّمَا الْأَعْمَال بالنيات".

والعبارة من تفسير روح البيان وأما الخروج بغير طريق القرار فرخص فيه؛ لكن الرخصة مشروطة بشرائط صعبة لا يقدر عليها إلا الأفراد، منها حفظ أمر الاعتقاد والتحرز من الأسباب العادية للمرض كالهواء الفاسد وغيره، فهو رخصة لكن مباشرة الحمية لأجل الخلاص من الموت سفه وعبث، لا يشك في حرمتها عوام المسلمين فضلًا عن خواصهم. وشعر سليمان بن معيد:

لعمرك ما للناس في الموت حيلة ولا لقضاء الله في الخلق مدفع

تأمل من القائلين بجواز الفرار من الطاعون والآمرين به أولًا أن يحفظوا مدلول الآية والعبارتين والشعر تمامًا، ثم ليلاحظوا الرد على الشبهات والإجابة عن الإشكالات". (خير الماعون في منع الفرار من الطاعون، ص 155)

وهذا الباب يحيط بالصفحات من 155 إلى 201، أورد فيه بالبسط والتفصيل أربعًا وعشرين شبهة من الذين يجوزون الفرار من أرض الطاعون، ثم أجاب لكل شبهة في ضوء الكتاب والسنة والدلائل الواضحة البينة.

وهذه الشبهات كالآتي إجمالًا:

الشبهة الأولى: الفرار من المجذوم غير منهي عنه.

الشبهة الثانية: الفرار من الأسد والعدو أمر ضروري.

الشبهة الثالثة: أتهربون من مكان وقع فيه الحريق.

الشبهة الرابعة: الطاعون عذاب إلهي وبلية كبرى.

الشبهة الخامسة، ولا تلقوا بأديكم إلى التهلكة.

الشبهة السادسة: الطاعون من الأمراض المعدية بطبعها.

الشبهة السابعة: تخرج إلى مكان آخر لتغير الجو، لا فرارًا منه.

الشبهة الثامنة: البقاء في محل الطاعون عزيمة والخروج منه رخصة.

الشبهة التاسعة: نحن نخرج للعلاج والداء، لا نفر منه.

الشبهة العاشرة: الفرار من الطاعون من الإيمان بالقضاء والقدر.

الشبهة الحادية عشرة: من مات تحت حائط سقط عليه؟

الشبهة الثانية عشرة: يجوز الخروج إلى الغابات المجاورة.

الشبهة الثالثة عشرة: إن هذا الطاعون رجس.

الشبهة الرابعة عشرة: إن فناء العمران في حكم العمران.

الشبهة الخامسة عشرة: يجوز الخروج إلى المكان المجاور.

الشبهة السادسة عشرة: إذا وقع الرجز بأرض...

الشبهة السابعة عشرة: لو خرج الصحيح لضاعت المرضى..

الشبهة الثامنة عشرة: الوارد بلفظ الأرض الوارد في الحديث..

الشبهة التاسعة عشرة: فر عمر رضى الله عنه من الطاعون بنفسه..

الشبهة العشرون: فر من الطاعون عدد من الصحابة..

الشبهة الحادية والعشرون: البقاء في محل الطاعون يعني إلقاء النفس إلى الهلاك..

الشبهة الثانية والعشرون: الاستدلال بحديث: فرخص لهم رسول الله أن يأتوا إبل الصدقة.

الشبهة الثالثة والعشرون: الاستدلال بحديث: دعها عنك، فإن من القرف التلف.

الشبهة الرابعة والعشرون: الاستدلال بحديث: ذروها ذميمة.

وهنا أقدم الشبهة السادسة والرد عليها نموذجًا؛ ليعلم بذلك مدى طريقة عرض الشبهة

والإجابة عنها والأسلوب الذي اختير له:

الشبهة السادسة: الطاعون من الأمراض المعدية بطبعها

مما تقرر عند الدكاترة والأطباء اليونانيين وكذا عند الشرع أن الطاعون من الأمراض المعدية بطبعها، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفسه منع من المقدم على بلد وقع به الطاعون، فإن كان الطاعون من الأمراض المعدية بطبعها، وجب القرار من محله.

الرد عليها:

لم يثبت كون الطاعون من الأمراض المعدية بطبعها، لا عقلًا ولا شرعًا، بل ثبت صريحًا عدم إعدائه بالشرع، كما بيناه في المقدمة بتفصيل، وأما منع النبي من المقدم على محل الطاعون فليس لأجل الإعداء، لأنه إن كان كذلك لما أمر بالمكوث فيه ولا منع الخروج منه، بل أمر القرار منه. قال الإمام الطحاوي في شرح معاني الآثار:

قَدْ أَمَرَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الآثارِ أَنْ لَا يُقْدَمَ عَلَى الطَّاعُونِ، وَذَلِكَ الخوف منه قيل لهم ما في هذا قليل على ما دارتم لانه لو قال أمره بترك القدوم للخوف منه، لكان يُطلق لأهل الموضع الَّذِي وَقَعَ فِيهِ أَيْضًا الخُرُوجَ منه، لأن الخوف عَلَيْهِمْ مِنْهُ كَالْخَوْفِ عَلَى غيرهم. فلما منع أهل الموضع الذي وقع فيه الطاعون من الخروج منه ثبت أن المعنى الذي من أجله منعهم من القدوم، غير المعنى الذي تعلم إليه". (خير الماعون في منع الفرار من الطاعون، ص 162)

خاتمة الرسالة: هل يشرع القنوت في الصلوات والدعاء لرفع الطاعون أم لا؟

والخاتمة للكتاب في بيان مشروعية الدعاء والقنوت لرفع الطاعون من عدمه، وفي الخاتمة فصلان.

يقول المؤلف حول الآراء المتباينة المختلفة فيها:

اختلفت آراء العلماء وتضاربت في هذا الباب، يعني هل يجوز القنوت في الصلاة

والدعاء لرفع الطاعون أم لا؟ إننا بحثنا كثيرًا عما كتب في المسألة فلم تعثر- رغم البحث الطويل والتفحص الكثير- على نص صريح في الدعاء والقنوت في الصلاة لرفع الوباء والطاعون- في مشروعيته أو عدم مشروعيته، وهنا ننقل أدلة الطريفين: القائلين بالجواز والمانعين مع مناقشة ما لها وما عليها دون بيان الراجح من عدمه، ونترك الأمر للقارئ الكريم. (خير الماعون في منع الفرار من الطاعون، ص 205)

الفصل الأول: أدلة القائلين بالجواز

هذا الفصل يحوي الكلام عن القائلين بالجواز، فأورد المؤلف فيه ستة دلائل مع مناقشتها، مناقشة علمية.

وهنا أقدم أولًا دليلًا واحدًا للمجوزين، ومناقشة هذا الدليل:

دليل الأول للقائلين بالجواز

قال الحافظ السخاوي رحمه الله في القول البديع:

ذكر الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة أيضًا أن بعض الصالحين حين كثر الطاعون في المحلة ذكر أنه رأى النبي في المنام، وشكا إليه الحال، فأمره أن يدعو بهذا الدعاء: اللهم إنا نعوذ بك من الطعن والطاعون، وعظيم البلاء، في النفي والمال والأهل والولد، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر مما تخاف ونحذر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر عدد ذنوبنا حتى تغفر الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، وصلى الله على محمد وآله وسلم، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، اللهم كما شفعت نبيك فينا فأمهلتنا، وعمرت بنا منازلنا فلا تهلكنا بذنوبنا، يا أرحم الراحمين.

مناقشة هذا الدليل:

قال الحافظ السخاوي نفسه بعد نقل هذا الدعاء: قال شيخنا (يعني به الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ) ويبعد صحة صدور هذا الدعاء لمصادمته لما ثبت عنه أنه دعا بذلك

لأمته، فكيف يتصور أن يأمرهم بأن يستعيذوا مما دعا لهم به. والله أعلم. انتهى".
(خير الماعون في منع الفرار من الطاعون، ص 207)

هكذا استمر المؤلف في بيان الدلائل الستة والمناقشة لها مناقشة علمية.

الفصل الثاني: أدلة القائلين بالمنع

هذا الفصل يبين أدلة القائلين بالمنع بالدعاء، وأورد فيه المؤلف أربعة دلائل مع مناقشتها مناقشة فريدة علمية على طراز المحدثين الأقدمين.

وكذا أقدم هنا دليلًا للقائلين بالمنع بالدعاء

الدليل الأول للمقاتلين بالمنع

جاء في حديث شرحبيل بن حسنة ومعاذ بن جبل وغيرها الله أن الطاعون شهادة ورحمة ودعوة نبينا في حق المؤمنين، فإن كان الطاعون في حق المؤمنين شهادة ورحمة فلا يجوز الدعاء برفعه. قال مجالس الأبراره: قال المنيجي: يكره لأن معاذا امتنع منه، وأعمل أن الطاعون شهادة ورحمة ودعوة نبينا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بناءً على ما روى عن عبد الله بن رافع أن أبا عبيدة بن الجراح لما أصيب في طاعون عمواس استخلف معاذًا واشتد الأمر فقال الناس لمعاذ: ادع الله يرفع هذا الرجز، فقال: إنه ليس برجز ولكنه دعوة نبيكم، وموت الصالحين قبلكم، وشهادة يخص الله تعالى بها من شاء منكم، اللهم آت آل معاذ نصيبهم الأوفر من هذه الرحمة، فهذا القول من معاذ صريح بأن الدعاء برفعه غير مشروع، وقد صح أن معاذا أعلم الأمة بالحلال والحرام وأنه إمام الفقهاء يوم القيامة، فلو كان مشروعًا لما أحوجهم أن يسألوه، بل كان يفعل من تلقاء نفسه، بل لو كان مباحًا ليا در يفعله عند سؤال الرعية عنه ما ظنوا أنه كان مصلحة لهم.

مناقشة هذا الدليل

الطاعون ليس نفس الشهادة والرحمة، إنما هو منشؤهما، والدعاء برفع نفس الشهادة

والرحمة لا يجوز، لكن الدعاء برفع منشأهما يجوز، فاللقاء مع العدد في القتال منشأ الشهادة وصح الدعاء بالعافية منه، ثم إن الدعاة برفع الطاعون لا يستلزم الدعاة برفع الشهادة والرحمة، لأن مقصود الدعاء به هو أن لا يسلط الله علينا الأعداء، بل يجعلنا تنتصر..

قال العلامة الحموي في "شرح الأشباه" نقلًا عن كتاب "تحفة الراغبين أمر الطواعين": وأجيب: بأن الطاعون منشأ الشهادة والرحمة، لا نفسهما، المطلوب رفع ما هو المنشأ، وغايته أن يكون كملاقاة العدو، وقد ثبت سؤال العافية منها.

خلاصة القول: إن هذا الكتاب مهم جدًا، بيّن فيه المؤلف مسألة الفرار من الطاعون تبيينًا علميًا دقيقًا، وقد قام المؤلف بتأليف هذا الكتاب المستطاب، باللغة الأردية، فقام المترجم بنقله إلى العربية، نظرًا لأهمية الكتاب وقيمته العلمية ومكانة مؤلفه العظيمة، فجاء في العربية في حلة قشيبة، مزينًا بالتحقيق والتدقيق من قبل المترجم، وأسلوب المؤلف فيه هو: أولًا عرض الأسئلة وأجاب عنها بتفصيل ودقة، حول الطاعون، ثم بيّن عدم جواز الفرار من الموضع الذي وقع به الطاعون، فقد أورد الأدلة في ذلك من كتاب الله العزيز والسنة النبوية الشريفة، وآثار الصحابة الكرام، ثم ناقش شبهات القائلين بالقرار، ثم ردّ عليهم ردًا علميًا مقنعًا، وفي الخاتمة قام المؤلف ببيان مشروعة الدعاء والقنوت لرفع الطاعون وعدمها، أولًا أورد الأدلة للقائلين بالجواز بالدعاء والقنوت لرفع الطاعون، فناقشها مناقشة علمية، ثم ذكر أدلة القائلين بالمنع، وأورد دلائهم مع مناقشتها مناقشة دقيقة.

ISSN: 2321-7928

فاتحة

صحيفة "البلاغ" الأسبوعية

- الشيخ أبو الكلام آزاد[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿1﴾

الحمد لله الذي رضي لنا الإسلام دينا، ونصب لنا الدلالة على صحته برهانًا مبينا، وأمرنا أنْ نستهديه صراطَه المستقيم، صراط ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ (69/71) غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ اليهود، الذين لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ (88/2) وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۗ (61/2) وَلَا ٱلضَّآلِّينَ النصارى ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104/18) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ، وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ، ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (35/45).

فسبحان الذي جعلنا أمة التوحيد، وجعل ديننا دين التوحيد، وصراطنا صراط التوحيد، وسياستنا سياسة التوحيد، وأعزّ مَنْ استقاموا منا على التوحيد، وأذلّ مَنْ

[1] الشيخ أبو الكلام آزاد (1888-1958م) عالم هندي مبدع ورد السياسة فلم يصدر عنها حتى وافته المنية. له مؤلفات ورسائل معظمها غير تامّ. أصدر صحفًا أبرزها "الهلال" و"البلاغ". كان يكتب لها افتتاحيات رائعة بعضها بالعربية وأكثرها بالأردوية. هذه افتتاحيته لصحيفته "البلاغ" التي نشرت في حلقتين. ننشرها في مجلتنا لتكون ذكرى وفائدة.

انحرف منا عن محجة التوحيد، ليعيدنا كما بدأنا إلى التوحيد، إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (86/14-16).

والصلاة والسلام على سيّدنا ونبينا محمد خاتم أنبيائه ورسله، وصفوته من خلقه، وحجته على عباده، وأمينه على وحيه؛ الذي بعثه بتوحيد الألوهية ليحرّر الخلق من رقّ العبودية، للعوالم السماوية أو الأرضية، وبتوحيد الربوبية ليعتقهم من رقّ التقاليد الدينية، التي ألحقها رؤساء الأديان بالشرائع الإلهية، وبتوحيد السياسة، لتكون الشعوب والقبائل أمة واحدة تضمّها شريعة عادلة مقومة واحدة، وتتعارف بلغة واحدة، ليطلقهم من قيود الحكومة الشخصية الجائرة، ويفكّهم من أغلال العصبية الجنسية والوطنية الخاسرة، فاهتدى بكتابه العقلاء المستقلون، وضل به السفهاء المقلّدون، وعزّ باتباعه المؤمنون الصالحون، وذلّ بإعراضهم المعرضون الخاسرون، وإِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ (56/77-79) تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ (36/5-6) وإِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (29/51) لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (41/42) قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ. (61/44).

(وبعد)

أتى على الإنسان حين من الدهر كان في طورٍ أشبه بطور الطفولية، فسادت الأوهام والخرافات على العقول البشرية، وكثر بين الناس الدجالون المحتالون، والغارّون البحائرون، والظالمون الضالّون، والسحرة والمشعوذون؛ ملكوا نواصي الناس بإفكهم وكذبهم، وصاروا يتصرفون في جميع أمورهم، فما كان أحد يُقدِم على عملٍ ما إلا بحكمهم والاسترشاد برأيهم، فكان الناس في أيديهم كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا: عقول فاسدة، وآراء كاسدة، وأفهام ساذجة، وبصائر قاصرة، وجهل وأوهام،

وخرافات وخزعيلات؛ تقيمهم وتقعدهم، وتفرحهم وتحزنهم، وتخيفهم وتزعجهم، فإذا برق بارق من السماء، ارتجفوا واضطربوا، وإذا نزلت صاعقة من السحاب، ماجوا وارتعبوا، وإذا أصابهم مرض، علقوا لدفعه الأرواق، أو استنجدوا براق، وإذا نظر إلى بنيهم ناظر، حوّطوهم بالتمائم وأطلقوا حولهم بخور المباخر، وإذا كسفت الشمس أو خسف القمر، صاحوا ودقّوا الدفوف وقرعوا الطبول، لرضى آلهتهم على ما يزعمون: ومَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ (157/4) بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ (9/44) وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (117)

سار الله تعالى مع تلك الأمم في هذا الطور سيرَ الأب الحكيم مع أبنائه في طفوليتهم، فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ (213/2) لهداية الناس وإصلاح شأنهم في دنياهم وإعدادهم للسعادة في معادهم. وقد مضت سنته في البشر أنْ يرتقي نوعهم بالتدريج والتحويل، كما يرتقي أفرادهم من طفولية إلى تميز ومنه إلى رشد وعقل. لذلك جعل خطاب الرسل والكتب لهم في كل طور على حسب استعدادهم وعقولهم: نخاطبهم طوراً بما يناسب مدركات الحس، وطوراً بما يناسب وجدان النفس، وحملهم أولًا على الطاعة بالقهر والإلزام، وجذبهم إليها ثانيًا بالإقناع وضرب الأمثال، فرشدوا من وعظهم ونصحهم، ووعدهم ووعيدهم، خذلوا من كانوا متسلطين، على عقولهم من الملوك والكهنة والمشعوذين، بما أجراه الله على أيديهم من المعجزات، وأظهر لهم من الآيات البينات. ثم أخذ الله المعاندين المنكرين الذين خالفوا ضمائرهم، وكابروا عقولهم وأبصارهم، لم يميزوا بين الحق والباطل، والعالم والجاهل، والغالب والمغلوب، والصادق والكذوب، والظن واليقين: لَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ؟ (36/16) كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ؟ (35/16).

مضت الأيام والأعوام، وتوالت القرون والأجيال، علت فيها الأقوام وسقطت، وارتفعت وانحطّت، جربت وكسبت، وتخالفت واتفقت، وذاقت من الأيام آلاما، وتقلبت في السعادة والشقاء أياما، انتقل الشر من حال إلى حال، وارتقوا من طور إلى طور، حتى إذاما ارتقت عقولهم بتقلب الزمان، استعدوا لتحكيم العقل والفكر في مدركات الحس والوجدان، بعث فيهم خاتم النبيين والمرسلين، الذي جعل الفكر والنظر أساس الدين، ومنحه دين الإسلام، الذي كالعقل العام، والمرشد الحكيم لجميع الأنام، الموافق لهم في كل مكان، المنطبق على مصالحهم في كل زمان، فهو للقبائل الساذجة كالمربي الرحيم، وللشعوب الراقية كالإمام الحكيم، فلما ساروا في العلوم والمدنية شوطا رأوه المجلى في ميدان السبق: سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ (53/61)

أنزل عليه كتابًا احتج على صحة العقائد بآيات الله في الأنفس والآفاق، وبيّن فوائد ما دعا إليه من العبادة ومكارم الأخلاق، وأشار إلى مصالح الناس فيما شرعه من الأحكام والسنن، ونبّه على مفاسد ما حرّمه عليهم من المنكرات ما ظهر منها وما بطن، جاء بالبينات والهدى فنهى عن التقليد واتباع الهوى، وقرّر حرية الوجدان والاجتهاد، في جميع الأعمال والاعتقاد، وعظّم شأن الفكر والعقل، وجعله هو المخاطب بفهم النقل، فامتاز دينه على سائر الأديان، بأنه دين الحجة والبرهان، الناعي على متبعي الأوهام والظنون، بأنهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون، بل وصفهم بقوله: أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ (179/7) صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18/2)

كان لضلال البشر قبل الإسلام علّتان: إحداهما ضعف قوى الخلقة، وثانيتهما الانحراف عن سنن الفطرة، فكان من الضعف أنْ يعتقد الناس في كل مظهر من مظاهر الخليقة، لا يعرفون علته أنه هو القوة الغيبية التي قامت بها جميع المظاهر وهي القوة الإلهية، فيعبدوا ذلك المظهر، وكان من الانحراف عن قوانين الفطرة ما كان من الأوضاع والبدع

والخرافات، والتقاليد والرسوم والعادات، حتى جاء القرآن ينادي إليهم وهم غافلون: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ (30/30) فعلم الناس أنّ الدين الحق إقامة الفطرة لا مقاومتها، والاستنارة بنور العقل لا إطفاؤه، وأنّ العمدة في معرفة الأحكام، والحلال والحرام، اجتنابُ المضار واجتلاب المنافع، ودرء المفاسد وطلب المصالح، فبهذا كان الإسلام هو الدين الأخير الذي أخرج البشر من حجر القصور وعبوديته، إلى فضاء الرشد وحريته، وكان ناسخًا لما قبله من الأديان، ولا يمكن أن ينسخ أو ينقضي الزمان، فـ"تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾". (1/25)

جاء الإسلام والعالم كله في تأخر من جميع الوجوه من جهة الدين، من جهة العلم، من جهة المدنية، من جهة السياسة، فلم يمرّ قرن واحد حتى جدّد للعالم كله دينًا قيّما، وعلمًا محكما، ومدنية سعيدة، وسياسة رشيدة، ونشر ذلك كله في مشارق الأرض ومغاربها، بقوة الحق، وسرعة البرق، فأحيا به الأرض بعد موتها، وارتفع كلمة الحق غاية الارتفاع والاعتلاء، بحيث صار أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ. (24/16).

قضى الإسلام القضاء المبرم على الوثنية التي أذلّت البشر، واستعبدتهم للملوك المستبدين، والرؤساء الروحانيين، والسادة الظالمين، والقادة الغارّين، والهداة الضالّين، ولمظاهر الطبيعة وما يمثلها في الهياكل من الأصنام، والطواغيت والأوثان؛ في أيّ لباس وجدت، وفي أيّ صورة ظهرت، وتحت أيّ اسم عرفت، فقرّر حرية الوجدان والاعتقاد، والاجتهاد الاستقلالي في العقالد والأعمال، والشورى في السياسة والأحكام، وأبطل امتيازات الأنساب والأجناس التي كان يستعلي بها الناس على الناس، بغير علم نافع، ولا عمل رافع، وجعل قاعدة الإنسانية العامة قوله عزّ وجلّ: يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ (13/39)

جاء الإسلام والناس شيع في الدين، وإن كانوا إلا قليلًا في جانب عن اليقين: يتنابذون ويتلاعنون، ويزعمون في ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون، فرقة وتخالف وشعب، يظنونها في سبيل الله أقوى سبب، فأنكر الإسلام ذلك كله، وصرح تصريحًا لا يحتمل الريبة بأن دين الله في جميع الأزمان وعلى ألسن جميع الأنبياء واحد: إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ (19/3) شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ۚ. (13/62).

وجملة القول كان الإسلام نورًا وضياء، سطح في أفق الجزيرة، فعمّ الكون بأسره وبهر الناظرين، وكان المسلمون عصبة صالحة نبتت في منبسط الحجاز، فتدلت على المشرق والمغرب وقبضت على نواصي المجد الأعلى، فملكت زمام العالمين.

هذا هو شأن الإسلام وهكذا كان المسلمون: نورًا ساطعا، ومجدًا طالعا، ونفوذًا قاهرا، وعزًا باهرا، وعلمًا زاهرا، وخلقًا ساحرا، سياسة ملكت الأقطار ومصرت الأمصار، وكياسة ارتاحت لها القلوب، واطمأنت الأمم والشعوب، لا يمسّهم فيها نصب، ولا يمسّهم فيها لغرب: تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (63/19)

هكذا كان شأن الإسلام والمسلمين والأمر على ذلك حتى عمل الشيطان مكائده عليهم، وألقى بأسهم بينهم، وأفشى فيهم فتنة الشبهات والشهوات، وزيّنت لهم التقاليد والمبتدعات، ضلّوا عن هدى القرآن المجيد، بما وضع في عنقهم من رهق التقليد ودبّ الفساد الاجتماعي في جسم الأمة، وعمّ الظلم والطغيان والإسراف، فأفسد الأخلاق، وأضعف النفوس، وطبع على قلوب الأمة بطابع القهر والعبودية، حتى لا أمر بمعروف ولا نهي عن منكر، ولا تعاون على برّ ولا تناصر على رفع ضر. فذهبت ريح الدولة وقوة الأمة، واستعد الفريقان بعملهم لنقمة الله تعالى بدلًا من النصر والنعمة. فتمزق شمل المسلمين، وأضاعوا السياسة والدين، وردوا الأمة أسفل

سافلين، نخسروا الدنيا والآخرة: ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ. (11/22)

الإسلام دين التوحيد، وما أمر المسلمون إلا ليعبدوا إلهًا واحدا، ويتبعوا دينًا واحدا، ويقيموا لهم إمامًا واحدا، ويكونوا أمة واحدة. لا يفرّقهم نسب ولا لغة، ولا وطن ولا جنس. وقد نهوا عن التفرق كما نهوا عن الكفر. فقال الله تعالى: وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ (103/3) وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ (105/3) ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا (32/30) لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ (159/6) و وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ (98/4-5) تِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ (93/10) وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ (16/45) وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ (47/8).

إنّ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بيّن مثل ذلك في قوله وعمله حتى لم يكن يغضب شيء كما يغضب إذا رأى الاختلاف بين أصحابه قد أفضى أو كاد يفضي إلى التفرق. والنقول في هذا كثيرة وحسبك ما رواه البخاري من وصيته صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: "لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم أعناق بعض".

ولكن خالفنا كل هذه النصوص، فتفرقنا وتنازعنا، وشاقّ بعضنا بعضًا بشبهة الدين، إذ اتخذنا مذاهب متفرقة، كل فريق يتعصب لمذهب، ويعادي سائر أخوانه المسلمين لأجله زاعمًا أنه ينصر الدين، وهو يخذله بتفريق كلمة المسلمين: هذا سني يقاتل شيعيًا، وهذا شيعي ينازل إباضيًا، وهذا شافعي يغري التتار بالحنفية، وهذا حنفي يقيس الشافعية على الذمية وهؤلاء مقلدة الخلف، يحادّون من اتّبع طريق السلف، حتى جثوا على التوحيد نفسه؛ توحيد الألوهية بالتوجه إلى غير الله ودعاء سواه، وتوحيد الربوبية بشرع ما لم يأذن به الله، فسلّط الله على جميع هذه الأحزاب أعداء خضدوا شركتها، وزلزلوا دولتها: ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ

مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (55/8).

طريق الحق هو الوحدة والإسلام: أَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ (153/6) وطرق الشيطان هي مثارات التفرق والخصام: وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (142/6) فقد كانت يهود أمة واحدة مجتمعة على كتاب واحد، فسوّل لهم الشيطان فتفرقوا وجعلوا لهم مذاهب وطرقا، أضافوا إلى الكتاب ما أضافوا، وحرّفوا من كلمة ما حرّفوا، واتبعوا السبل فتفرقت بهم عن سبيل الله، وضربت عليهم الذلة والمسكنة، ومزّقوا كل ممزق، وباؤوا بغضب من الله، وكذلك فعل غيرهم، كأنهم رأوا دينهم ناقصًا فكملوه، وقليلًا فكثّروه، وواحدًا فعدّدوه، وسهلًا فصعّبوه، فثقل عليهم بذلك: فوضعوه، فذهب الله بوحدتهم حتى لم تغن عنهم كثرتهم، وسلّط الله عليهم الأعداء، وأنزل بهم البلاء: سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا (23/48)

كان المسلمون في خير القرون أمة واحدة، وكان العلماء فيهم أدلّاء ونقلة لدين الله: متعاضدون متناصرون متحابّون متعاشرون. وما كان من اختلاف قليل ردّ إلى الكتاب والسنة، ثم جاء عصر التابعين والأئمة المجتهدين رضوان الله عليهم أجمعين، فسلكوا على آثارهم اقتصاصًا، واقتبسوا عن مشكاتهم اقتباسًا، وكان دين الله أجلّ في صدورهم من أن يقدموا عليه رأيًا أو تقليدا، وكانت تلك الأزمنة مملوءة بالمجتهدين، وليس فيهم مقلدًا، بل كلهم مجتهدون يستمدون من أصلين جليلين، وهما كتاب الله وسنة رسوله: فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ. (59/4)

ولكن خلف من بعدهم خلوف فرّقوا دينهم وكانوا شيعا، فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (53/23) فاستقرت المذاهب المدوّنة وهجر غيرها، وجعلوا التعصب للمذاهب ديانتهم التي يدينون ورؤوس أموالهم التي بها يتجرون وآخرون منهم قنعوا بمحض التقليد، وقالوا: إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم

مُّقْتَدُونَ (23/43) فصارت أقوال أئمتهم بمنزلة الأصلين، وذلك معنى قوله تعالى: ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ (32/9) وهجروا على رب العالمين مثل اليهود أن لا يبعث بعد أئمتهم وليًا مجتهدا وأنكروا بالرسول حيث قال: "لا يزال يبعث على رأس كلّ مئة سنة لهذه الأمة من يجدّد لها دينها".

وقالوا لم يبق في الأرض عالم منذ الأعصار المتقدمة فقالت طائفة: ليس لأحد أن يختار بعد أبي حنيفة وأبي يوسف وزفر ومحمد بن الحسن والحسن بن زياد اللؤلوي (رحمهم الله تعالى) وقال بكر بن العلاء المالكي: ليس لأحد أن يختار بعد المئتين من الهجرة، وقال آخرون: ليس لأحد أن يختار بعد الأوزاعي والثوري ووكيع وابن مبارك (رضي الله عنهم) وقالت طائفة: ليس لأحد أن يختار بعد الشافعي والمزني (شكر الله مساعيهما) وكذا قالوا في التفسير والحديث والأصول، حتى في العلوم الآلية والعقلية، فانظر كيف بدّلوا الحق بالباطل، و ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ (16/2)

واختلف المقلدون فيمن يؤخذ بقوله من المنتسبين إليه، ويكون له وجه يفتي ويحكم به ممن ليس كذلك، فيجعلوهم ثلاث مراتب وقسموهم في عدة طبقات، ثم اختلفوا متى انسدّ باب الاجتهاد على أقوال كثيرة ما أنزل الله بها من سلطان، فقالوا إنّ الأرض قد خلت من قائم لله بحججه، ولم يبق فيها من يتكلم بالعلم والبصيرة، ولم يحل لأحد بعد أن ينظر في كتاب الله ولا سنة رسوله لأخذ الأحكام والعلوم منهما، ولا يقضي ولا يفتي بما فيهما حتى يعرضه على قول مقلده ومتبوعه. وهذه الأقوال كما ترى قد بلغت من الفساد والبطلان والتناقض والقول على الله بلا علم وإبطال حججه والزهد في كتابه وسنة رسوله وتلقي الأحكام منهما مبلغها ويكفي في فساد هذه الأقوال أنْ يقال لأربابها: فإذا لم يكن لأحد أن يختار بعد مَنْ ذكرتم، فمن أين وقع لكم اختيار تقليدهم دون غيرهم؟ وكيف حرمتم تقليدَ مَنْ سواه؟ فما الذي سوّغ لكم

هذا الاختيار الذي لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس ولا قول إمام من أئمتكم؟ فإذا كان لا يجوز الاختيار بعد المئتين عندكم، فمن أين يساغ لكم وأنتم لم تولدوا إلا بعد المئتين؟

يا للعجب! إن الأمام أشهب، وابن الماجشون، ومطرف بن عبد الله، وسحنون بن سعيد، ومَنْ في طبقتهم من فقهاء المئة الثالثة، كان لهم أن يختاروا إلى انسلاخ ذي الحجة من سنة مئتين، فلما استهل هلال المحرم من سنة إحدى ومئيه وغابت الشمس من تلك الليلة، حرم عليهم في الوقت بلا مهلة، ما كان مطلقًا لهم من الاختيار!! ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا؟ (48/17)

شهد الله في كتابه أنه جعل دين الإسلام يسرا، لا عسر فيه ولا حرج: يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ (185/2) هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ (77/22) وأشهد رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على المؤمنين بذلك، فقال: أحبّ الأديان إلى الله الحنيفية السمحة[1] وكان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ينهى عن كثرة السؤال، لأنه سبب لكثرة التكاليف. وبيّن لنا أنّ الله سكت عن أشياء رحمةً بنا وأن لا نكون كبني إسرائيل، شدّدوا فشدّده الله عليهم، ولكن هؤلاء المتفقهة المقلدة جعلوا اليسر عسرا، والسعة ضيقًا وحرجا، والسمحة شكسة شرسة، وشدّدوا على أنفسهم وعلى الناس، وإن لم يشدّد الله عليهم، وبسبب هذا الغلو الذي نهى الله عنه وذمّ أقوامًا عليه في قوله: يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ (77/5) هجرت السلاطين المسلمون الشريعة في أمر القضاء والسياسة، بزعم ودعوى أنّ الشريعة شاقة وغير مطابقة لمصلحة الزمان، وتركتها عامة الأمة أيضًا في أكثر أحوالها، وهم يمسون ويصبحون، ولا يدرون ماذا يعملون، تراهم في عدو إلى الحيل يخبطون: ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ (40/24)

ولا تظن أنّ هذا الترك قريب العهد، فإنه لم ينقل إلينا التاريخ أنّ طائفة من طوائف

[1] حديث صحيح ورواه أحمد والبخاري في الأدب والطبراني من حديث ابن عباس.

التقليد استطاعت إحياءَ شوؤنها على جميع قواعد ومسائل فقهية، فمذهبهم ليس هو تمذهب عمل واكتساب ثواب، بل اعتقاد وأقوال، ونزاع وجدال، وتخاذل وافتراق، وبلاء وشقاق، وكان نتيجة هذا التقليد أنْ شوّهوا وجه الشريعة الغراء، حتى ظن مَنْ ضعف إدراكه أنّ الشريعة ليست سوى ما بأيدى هؤلاء المقلدة فيا لله وللمسلمين من هذه الفاقرة التي هي أعظم فواقر الدين، والرزية التي ما رزي بمثلها سبيل المؤمنين!

كان أهون الاختلاف اختلاف الصحابة وغيرهم من السلف في فهم الأحكام، مع عذر كلّ منهم لمخالفه بحيث لم يكونوا شيعًا تتفرق في الدين، وتتعصب كل شيعة منها لبعض المخالفين، فإنّ مثل هذا الاختلاف طبيعي في البشر لا يمكن اتقاؤه، ولكن لما جاء دور التقليد والتحزب، والتعصب للمذاهب، حلّت النقمة، وتفرّقت الكلمة، وذهبت الريح والشوكة إلى أنْ وصلنا إلى هذه الدرجة من الضعف والذل: ذهب ملكنا، وصارت المملكة الكبيرة من ممالكنا تقع في قبضة الأجانب فلا يبالي بهم سائر المسلمين! فأين الوحدة والأخوة؟ والتوادّ والتراحم؟ والتعاون والتناصر؟ وأين تمثيل مجموعهم بالجسد الواحد؟ كل ذلك قد زال وكان مبدأ زواله ذلك الاختلاف: فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا؟ (78/4)

اقرأ في التاريخ حوادث الفتن بين أهل السنة والشيعة، وبين المنتسبين إلى السنة بعضهم مع بعض: بين الأشاعرة والحنابلة، بين الحنفية والشافعية، وبين الشافعية والحنبلية. ومن أغرب ما تجد أنّ العدوان بين الشافعية والحنفية كان من أسباب حملة التتار على المسلمين. تلك الحملة التي كانت أول صدمة صدعتْ بناءَ قوة المسلمين صدعا، لم يلتئم من بعده ويعدّ كما كان: ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ. (182/3)

إنّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: لتسوّون صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم[1] ولا

[1] متفق عليه في الصحاح والسنن كلها وفي رواية أبي داؤد "أو ليخلفن الله بين قلوبكم" قال النوري معناه يوقع بينكم العداوة والبغضاء وقال القرطبي: تفترقون فيأخذ كل واحد وجها غير النبي يأخذه ماحبه.

يفقه هذه الحكمةَ النبويةَ إلا العليمُ بصفات الأنفس البشرية وأخلاقها ونظام الاجتماع الإنساني، ومن سنن الله في ذلك أنّ ما يتفق فيه الأفراد من الأعمال الظاهرة المشتركة بينهم يكون سبباً لائتلافهم واتفاقهم ووحدتهم، والضد بالضد. ولذلك تتحرى الأمم المرتقية في العلم والنظام أنْ تربي أفرادها على نظام واحد في الأعمال الظاهرة، وأن تنشر عاداتها في الأمم الأخرى لتجذب بها قلوبها إليها.

يا سبحان الله! إنّ رسولنا لم يسمح لنا أن نختلف أفرادنا في صف الصلوة فيتقدم بعضهم على بعض، وأقسم على أنّ ذلك يكون سبب اختلاف قلوبنا، ووقوع التفرق بيننا. ثم نحن نجيز لأنفسنا أنْ نُقيم في المسجد الحرام عدةَ جماعات في وقت واحد لاختلاف المذاهب؟ ونعدّ هذا رحمة بنا، ونعتقد بأن الاختلاف بين الأمة رحمة؟ فأيّ رحمة استفادها المسلمون من الاختلاف والافتراق غير التذلل والتسفل والشقاق؟ أفرأيت لو لم توجد بدعة التحزب والتفرق من كل طائفة لتعليم معين، هل كان وجد هذا الضلال؟ أرأيت لو أنّ المسلمين يعملون في كل عصر بقوله تعالى "فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ": هل كان وجد هذا التفرق والتمزق والانحلال؟ لا، لا، وإنما وجد بالتقليد الأعمى، لأنّ كل طائفة وثقت برؤسائها فاتبعتم بغير دليل، وسنزيد هذا بياناً في وقت آخر وحسبي الله ونعم الوكيل.

لقد بعث الله في القرون الخالية علماء أصفياء يجددون لهذه الأمة أمرَ دينها فكانوا فيها كأنبياء بني إسرائيل. من اهتدى بدعوته النفر والرهط والجماعة، ومنهم من حال الاضطهاد وضعف الاستعداد دون الاهتداء به. كانت العامة المسكينة تغتر بمقاومة فقهاء الرسوم وساداتهم الحكام لأولئك المصلحين المجددين وتتبعهم في تضليلهم، لأن الناس على دين ملوكهم، حتى أنّ صوت حجة الإسلام أحمد ابن تيمية قد خفت في هذه الأمة المسكينة وهو أندى أصوات المصلحين، وكتبُه خفيتْ فيهم عدة قرون وهي أقوى وأظهر حجة من سائر كتب المسلمين؟

آه ما أشد غفلة الناس عن حقيقة الإسلامّ أيّ سعادة للناس تعلو عرفان كل فرد من أفرادهم أنه أوتي من الاستعداد ما أوتيه من يوصفون بالولاية والقداسة، ويدلون بالزعامة والرياسة؛ فمنهم من يستعبد بها الناس استعبادًا روحانيا، ومنهم من يستعبدهم بها استعبادًا سياسيا، وإخلاص كل فرد من أفرادهم في علمه الديني لله وعلمه الدنيوي للناس! هذه السعادة هي روح الاسلام وحقيقته حجبتها عن بعضهم الرسوم العملية، والتقاليد المذهبية، وعن آخرين النزعات النظرية، والتقاليد الوضعية. فالأولون يرمون بالكفر أو البدعة كلَّ مَنْ خالف مذاهبهم، والآخرون ينبزون بالغباوة والتعصب كلَّ مَنْ لم يستعذب مشربهم. فمتى يكثر المسلمون الخالصون المخلصون للأولين والآخرين، فيكونوا حجة الله عليهم وعلى جميع العالمين، وآية الوحدة الفاضحة للمختلفين: وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ. (33/41)

لا إصلاح إلا بدعوة، ولا دعوة إلا بحجة، ولا حجة مع بقاء التقليد، فإغلاق باب التقليد الأعمى وفتح باب النظر والاستدال هو مبدأ كل إصلاح، ومفتاح النجاح والفلاح. والسلام على ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ. (18/39)[1]

﴿2﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ

[1] صحيفة "البلاغ"، 14-10/1/1

أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ (8/24-29)

تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ، تَنزِيلٞ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ، هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ، نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ، عَلَىٰ قَلۡبِ محمد خاتم النبيين، لِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ، وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ، وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ، وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ، يذكرها "البلاغ" قراءه على رأس السنة الرابعة والثلاثين، ليتذكروا أنّ في الكون ظلمة ونورا، وكلمًا خبيثا وكلمًا مأثورا، وعملًا سيئًا وعملًا مبرورا، وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا، (17/19) إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا (17/25).

وليتذكروا أنّ للأمم حياةً وموتا، وأنّ في الناس مكرًا وفتنا، وأنّ للحياة دعوة يخاطب بها الأحياء، وأنّ لها فتنة من قبل الكبراء والرؤساء، وأنّ العاقبة للمتقين، وإن كانوا مستضعفين، ولا عدوان إلا على الظالمين: كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةَۢ كَثِيرَةُۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ (2/249) وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ (6/123)

ليتذكروا أنّ مَنْ يدعو إلى الحياة فهو يدعو إلى الاستقلال والمساواة، ومَنْ يدعو إلى الحق فهو مقاوم للباطل. وأنّ أبغض الأشياء إلى الرؤساء المستبدين، والأمراء الضالين، والعلماء المقلدين، استقلال الفكر والتساوي بين الناس في الحقوق. وأبغض الناس إلى الكبراء المترفين، مَنْ يدعو إلى نصرة الحق ومقاومة الباطل، وإلى جعل التفاضل بين الناس بالأعمال والفضائل. فالسادات العالون، والكبراء المستكبرون، والرؤساء الغارون، والهداة الضالون، والمرشدون الدجالون، وجنود إبليس أجمعون، أعداءُ المصلحين في كل زمان، وخصماءُ الحق والسعادة في كل مكان، غرورًا بالقوة الشيطانية وطغيانًا بالغنى، وَٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي

ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ٤٤ (35/43-44)

وليتذكروا أنّ انتقال الأمم من حال إلى حال، لا يكون من الرؤساء المترفين، ولا بالاعتماد على الأمراء الفاسقين، والمقلدين الجاهلين، والمرشدين الضالين. وإنما يكون بتغير أفراد الأمة ما بأنفسهم من الأفكار والعقائد، وطلب المصالح درء المفاسد. تذكروا أنّ المسلمين غيّروا ما كان بأنفسهم في أول نشأتهم بالتدريج، فغيّر الله ما كان بهم من عزة الحياة والقوة، وسيادة العدل والفضيلة، ولن يغير ما هم الآن فيه، إلا بعد الرجوع إلى ما كانوا عليه. وشرطه قلع جراثيم التقليد واجتثات شجرة التعصب للمذاهب. وأساسه جمع كلمة الأمة. وتحقيق معنى الوحدة، والاعتصام بالكتاب والسنة. فـ"فالبلاغ" يدعوهم إلى "الإصلاح الديني" قبل كل شيء لأنه يتوقف عليه كل شيء فإنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. وصلح أول هذه الأمة بهدي كتاب الله تعالى وسنة نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ. وهداهم ذلك إلى كل إصلاح صوري ومعنوي، جزئي وكلي، مادّي وأدبي، علمي ومدني: وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣ (153/6)

لقد أتى على المسلمين حينٌ من الدهر وهم في مرض اجتماعي يشبه داء السكتة. تعيث في جامعتهم جراثيم المرض وهم لا يشعرون، وتهددهم بالزوال والفناء وهم لا يعلمون. حتى إذا فار التنور، وجاء القدر المقدور تخرق حجاب الغرور، وطفق يدبّ دبيب الشعور. ولكنه شعور يظهر أنه زاد الأمة مرضا، حتى تكون حرضا. شعور هبط ببعض ذويه في مهاوي الإياس، وطرح ببعضهم إلى مرامي الوسواس، فكان انتقالًا من طور الخدر والسبات، إلى طور الحيرة والشتات: كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ (22/22) قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ (77/19) وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ

ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدّٗا (79/19).

ولما استقيظ فيها الشعور بما فسد من أمر دنياها، قبل الشعور بما كان سببًا له من فساد أمر دينها، وشعرت بالخطر على حياتهم المادية والصورية، غافلة عن عللها الروحية وأسبابها المعنوية، شرعت في شيء من الإصلاح الصوري والجزئي، بدون أنْ توبده بروح الإصلاح المعنوي والكلي. فعُدَّ السلطان محمود خان المصلح مصلحًا بتغير الزي الرسمي ونظام الجندية، والسلطان عبد المجيد مصلحًا بإعلان التنظيمات العثمانية، ومصطفى رشيد وفواد باشا وخير الدين التونسي وأعوانهم مصلحين بإدخال الدولة العثمانية في سلك الدول الأروبية ومدحت باشا الشهير مصلحًا باقتباس القوانين الغربية، ومحمد علي في مصر بإرسالياته العلمية إلى البلاد الفرنجية، والسيد أحمد خان في الهند بفرنجة الأمة الإسلامية، وجال الدين الأسدآبادي بالدعوة إلى الجامعة السياسية، والأمير عبد الرحمن خان بالتأليف بين القبائل الأفغانية، والشيخ محمد بيرم التونسي وصدر الدين الروسي بأخذ العلوم العصرية والمادية. ولكن لم تتوجه همة أحد إلى الدعوة إلى القرآن، وإقامة الميزان والفرقان، وإزالة البدع والمنكرات، والتقاليد والعادات، وجمع الكلمة التي فرّقتها المذاهب واللغات. فما زاد الأمة ذلك الإصلاح الصوري والجزئي إلا ضروبًا من الفساد، ولا أفاد الدولة إلا إضعاف الاستقلال وإضاعة البلاد: قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥ (105/18)

نعم، إنّ المسلمين أمسوا كالريش في مهبّ رياح الحوادث، وكالغثاء في مجرى سيول الكوارث، لا رأي لخواصهم فيما يراد منهم، ولا شعور لعوامهم فيما يراد بهم. وللأعداء يدٌ في تصرف كبرائنا في سياستنا، ويدٌ في تصريف أموالنا وأنفسنا في مصلحتهم دون مصلحتنا، ويدٌ تطبع الأرواح بأخلاق وعادات تنافي آداب ملتنا،

وتودع في العقول عقائد وأفكارًا تقرض بناء وحدتنا. فأيّ شي بقي في أيدينا من شؤون أمتنا؟ اللهم إنه يقلّ فينا مَنْ بقي له أذن تسمع وعين تبصر، وقلب يشعر وعقل يفكّر. ويقل في هؤلاء القليلين مَنْ له إرادة تتوجه إلى عمل للأمة، وثبات فيما يحاول من كشف الغمة. والرجاء بفضل الله تعالى محصور في هؤلاء الأقلّين، ومن يتصل بحزبهم حينًا بعد حين، والعاقبة للمتقين: وكَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ (249/2)

قال الله سبحانه وتعالى: نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَۗ (3/3-4) وقال في سورة الحديد: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ (25/57)

فهذا بيان للناس بأنّ بناء معاشهم ومعادهم يقوم على أربعة أركان: الكتاب، والبصيرة، والعدل، والقوة النافذة والمقومة. وهي القرآن، والفرقان، والميزان، والحديد. من تمسك بهم نجا، ومن تركهم ضلّ وغوى، وخزي في الآخرة والأولى: وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا، قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ (20/124-127).

"الفرقان" عقل يفرّق بين الحق والأباطيل، ويدرك أسرار الخليقة وفقه التنزيل. فهو المخاطب بإقامة الشريعة، وهو المطالب بالتصرف في الطبيعة، فيأخذ منها بقدر اجتهاده، على حسب استعداده. و"الميزان" عدل عام، في الأخلاق والأفكار والأحكام، به ينفذ حكم القرآن والفرقان، حتى يلتمّ شمل الإنسان. فيعطي كلّ ذي حق حقه، ويوفي كل ذي قسط قسطه. وأنّ لربه عليه حقا، ولنفسه عليه حقا، ولزوجه عليه حقا، ولأهله عليه حقا، ولقومه عليه حقا، ولأمته عليه حقا، ولمجموع

الناس عليه حقا. فالقرآن يهدى إلى الحقوق ويبيّن، والفرقان يفرّق بين المتشابهات ويعيّن. وإنما القسمة بالميزان، وبالثلاثة تكمل فطرة الديّان. فالقرآن كتاب مسطور، وضياء ونور، وبالفرقان نقرء وندرس، نجتلي ونقتبس، وبالميزان نعمل بالعلم، ونقوم بالقسط. ومَنْ شَذَّ عن هذه الثلاثة فلم يهتد بالنقل والعقل، ولم يخضع لسلطان العدل، فقد أنزل الله لعلاجه "الحديد" الجامع بين المنافع والبأس الشديد. فيؤدب بقوة السلاح، حتى يستقيم أمر الإصلاح. وتكون كلمة الحق هي العليا، وكلمة الباطل هي السفلى: وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ (39/8)

بهذه الأركان الأربعة كان الإسلام دين الفطرة، والهادي بسنن الشريعة إلى كمال سنن الطبيعة. ولكن هدم التقليد جميع هذه الأركان، واستبدل بها قول فلان وفلان، أسماء سمّاها المقلدون هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان. فأما ركن "الكتاب" فبزعمهم أنّ فهمه والاهتداء به خاص بنفرٍ يسمّون المجتهدين والمفسدين، وأنهم انقرضوا وقد عقم الزمان عن مثلهم إلى يوم الدين! وأما ركن الفرقان فبما أهملوا من الحكمة الدينية، والعلوم الكونية، والفنون االعملية، واجتهاد الفكر والنظر في الحياة الاجتماعية. وأما ركن الميزان، فبإباحة الاستبدد لذوي السلطان، وتحتيم طاعتهم ولو في الإثم والعدوان، وبتعزيزهم وتأزيرهم، وإجلالهم وتوقيرهم، بل تكريمهم وتقديسهم بكرة وأصيلا. فقد اندرس من هذا الركن علمه وعمله، وانمحى بالكلية حقيقته ورسمه، واستولت على القلوب مداهنة الخلق، وانمحت عنها مراقبة الخالق، واسترسل الناس في اتباع الهوى استرسال البهائم، وعزّ على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم. وأما ركن الحديد، فبالإعراض عن الجهاد في سبيل الحق ومقاومة الظلم والطغيان، والتعاون على الإثم والعدوان، فمتى يثبت لشعوبهم ودولهم بنيان، وقد هدموا جميع هذه الأركان، وفسقوا فيها عن هداية القرآن؟ فأولئك أعداء الرحمن، وأولياء الشيطان وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ١١٩ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا

يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا (119/4) وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرًا (16/17)

إنّ بُعدَ رجال الدين عن علوم القرآن والفرقان والميزان والحديد، وجمودهم على ما أوجبوه على أنفسهم من التقليد، جعلهم بمعزل عن الزعامة، وحرمهم مقام الأسوة والإمامة. فلم يبق لهم شيء من الأمر والنهي، وبقوا لا يقصد إليهم في الاستشارة والرأي. لا يستفتون في إدارة المصالح والمفاسد، ولا يعتمد عليهم في نظام التربية والتعليم في المدارس. فقلّت بعدم الثقة بهم ثقة الناس بالدين، وكثر الفسق في الجاهلين، والإلحاد والكفر في المتعلمين. انحلت رابطة جامعته الملية، وكادت تنقصهم عروة أخوته الروحية. فسهل على الأعداء تخطفهم شعباً شعبا، وانتقاص بلادهم قطراً قطرا: وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورًا (41/17) وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورًا (30/25) وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا (8/65) وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ (168/7).

فـ"البلاغ" يدعو المسلمين إلى إقامة الأركان الأربعة باسم الإسلام، من حيث يحتجون على هدمها بالإسلام. وإنما إقامتها لن يكون أمر الأمة بأيدي أهل القرآن، وأصحاب الفرقان، ومقيمي الميزان، وحملة الحديد، الذي فيه بأس شديد: هَٰذِهِۦ سَبِيلِي أَدۡعُو إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي (108/13) وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ (40/10)

هذا ضرب من ضروب هداية القرآن، الذي دعا إلى جميع الأصول التي فيها سعادة الإنسان، فمن أقام هذه الأركان كلها كان هو المسلم الكامل وإن سمّي مبتدعًا أو ملحدًا أو دهريا. ومن هدمها كلها كان ملحدًا في آيات الله سبحانه وإنْ سمّى نفسَه مسلمًا حنيفيا. ومن كان أقرب إليها، كان حظه من السعادة بمقدار سهمه منها. ومتى

تنازع شعبان أو أمتان، كان الظفر لمن كان أقرب من هذه الأركان، وهو الأقرب إلى هداية القرآن: فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30/30)

سيقول السفهاء من الناس، وأهل الأوجاف والوسواس، إنّ هذه الدعوة إلى هداية القرآن، وهيمنة الفرقان والميزان، هي اجتهاد أقفل بابه في هذا الزمان، والداعي إليها عدوّ مبين لأهل الإيمان، وما علينا إلا تقليد شيوخنا أهل الفقه والتفسير والعرفان: بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ (81/23) إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ (23/43) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ (170/2) عَبَدْنَهُمْ ۖ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (20/43) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا (81/4) ومن هؤلاء مَنْ يلقي تبعه هلاك المسلمين وضياع الإسلام، على عواتق أهل السلطة المتغلبين على الأحكام. ومنهم من يوجب الخضوع والتعبد لكل ذي سلطان، وإن نسخ باستبداده القرآن والفرقان، وطغى بظلمه في الميزان ويقول بعزة فرعون وهامان. ومنهم من يحيل على القضاء والقدر. ومنهم من يقول ليس لها إلا المهدي المنتظر. ومنهم من يثبت أنّ هذا من علامات الساعة الكبرى. ومنهم من يصيح "إلا إيامًا معدودات قبل هلاك الدنيا". فأولئك أعداء القرآن، وخصماء العلم والفرقان، وأنّ كثيرًا من الأحبار والرهبان، ليأكلون أموال الناس بالعدوان، ويقعدون بكل صراط يصدّون عن سبيل الرحمن، فمثلهم في الإنجيل ومثلهم في القرآن، كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا (5/61) وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ (78/3)

(المتفرنجون المفسدون)

ومن ورائهم قومٌ آخرون، الذين يجعلون علته ما جهلوا أو تركوا من هدى الدين، وهو ما عمل به سلفهم فكانوا هم الأئمة الوارثين. يحاولون أن يقطعوا هذه الأمة أمما، ويسلكوا بها إلى المدنية الحديثة طرائقَ قددا، وهم ما عرفوا حقيقة المدنية الفاضلة وكنهها، ولا ما يصلح للمسلمين ويتفق مع طبائعهم منها. وهم في طلب قشورها مقلدين، صم بكم عمي فهم لا يبصرون. وهؤلاء هم الذين مرقوا من الدين، أنكروا التقليد ولم يعرفوا الحق اليقين. يقولون لا رجاء للمسلمين بحياتهم الملية، ولا بإقامة الحدود الشرعية، فإذا لم يحيوا حياة "أفرنجية" فلا حياة لهم، وإذا لم يتبعوا خطوات أوربا فلا مدنية لهم. كل هذا وذاك مما ينادي به المسلمون الجغرافيون، منهم الملحدون، وأكثرهم الفاسقون، وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ (63/23) يجرفون ثروة الأمة إلى الأجانب، ويقذفونها بالفجور والنفوذ الأجنبي من كل جانب، ويتغلبون فيها على المناصب، فينالون منها جمع المآرب. يحقرون لها سلفها، ويعظّمون في نفسها كلَّ ما هو أجنبي عنها. فهم المنافذ والكوى التي يدخلها منها الفساد، وهم الآلات التي يستعين بها الأجانب على أمر الأمة والبلاد، وهم ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104/18) فلا هم صاروا أوربيين، ولا ظلوا مسلمين شرقيين، ولكن لغرورهم الأفرنجية تراهم من المتكبرين الطاغين، طلعهم كأنه رؤس الشياطين. فأولئك هم المتفرنجون المفسدون، ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (135/26 ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ، قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (10/2)

ألا إنهم تحولوا عن التقاليد الإسلامية إلى التقاليد الأفرنجية الصورية. فيدحرجون الأمة من تقليد إلى تقليد ويقذفون الغيب من مكان بعيد، ويتبعون كل شيطان مريد. يسمّون أنفسهم المجددين، وطلّاب المجد والحضارة للإسلام والمسلمين، ومكوّني

"القومية"، وخالقي الشعور بالحياة المدنية. والحق أنهم شرّ من الراضين بما وصلنا إليه من الضعف والخمول. لأن هؤلاء الخاملين قد رضوا بهذه الحالة التي لا تجد لها تفسيرا، إلا أنها مما يسمّونه "الموت صبرا". وأما المتفرنجون الضالّون، الذين رضوا بانحلال رابطتهم الملية، وعفاء مقوماتهم ومشخصاتهم الإسلامية، فإنما رضوا أن ينجعوا أنفسهم، وينحروا أمتهم ويجعلوها غذاء لأعدائهم: أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ (108/16) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ (9/47) فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ (18/47)

يهاجم الإسلام والمسلمين جيشٌ خارجيّ من الأمم الطامعة، وجيشٌ آخر داخليّ من دعاة التقليد الأفرنجية. والثاني أنكى من الأول وأضر، وأدهى وأمر. لأنّ لسبعون عدوًا خارج الدار، أهون من عدو واحد في الدار. فالمتفرنجون المنافقون، المفسدون الدجّالون، يغشون المسلمين بأنهم منهم، ينفعهم ما ينفعهم، ويضرّهم ما يضرّهم، والله يعلم أنهم لكاذبون: يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ (9/1) يغشون الأمة أنهم يدعونهم إلى الترقي عما هم عليه إلى مدنية أعلى، وحضارة أسمى. وهي أنْ يكونوا مثل الأفرنج في عزّهم وثروتهم وزخرفهم. ويحسبون لصفر عقولهم وقطع نظرهم، أنّ ما يفوقنا به الفرنج من الثروة، وأسباب القوة، قد جاءهم من عدم مبالاة كثير منهم بالدين واتباع غير سبيل المؤمنين. أو من عاداتهم في طعامهم وأزيائهم، وفسقهم وفجورهم، واجتماعهم وافتراقهم. أو بمحض تشييد المدارس، وتأسيس المكاتب والمعاهد. فطفقوا يقلدونهم في شرّ ما عندهم، ويدعون المسلمين إلى تقليدهم، على أنّ منها ما هو من سيئات مدينتهم وقبائحها التي ينكرها عليهم حكماؤهم، ومنها ما هو مناسب لطبيعة بلادهم وأجيالهم دوننا. ومنهم ما لا نفع فيه ولا ضر لذاته، ولكنه يضرّنا من حيث هو تقليد لهم، يضعف روابطنا الملية،

ومقوماتنا الاجتماعية، ومشخصاتنا الإسلامية، ويحقر أمتنا في أنفسنا، ويعظم أممهم فيها، فيكون تمهيدًا لقبول سيادتهم علينا بغير امتعاض. وبهذا كان وجودهم "الجيش السلمي" لثكناتهم، ولا يتم لهم ما يسمّونه "الفتح السلمي" (غير الفتح الحربي) بدونهم: ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ (26/24)

نعق به ناعق أئمة الفتن والفساد، ونصير الظلم والاستبداد، أن لا نجاة لكم من البلاء الذي أصابكم، ولا أمن لكم من الخطر الذي يوشك أن ينزل بكم، إلا بفناء إرادتكم في إرادة حكامكم. لا بتغيير ما في أنفسكم من أوهام وخرافات، وأخلاق ذميمة وعادات، ولا بتربية العقل والإرادة على الاستقلال، والتعاون على البر والتقوى، والاشتراك في الأعمال، ولا يجعل الشورى قاعدة الأحكام، وإقامة الشريعة في الحلال والحرام، ولا بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر، ولا بالأمر بالعرف والنهي عن المنكر. وصاح بهم "خطيب فتنة الأفرنجية" أن لا حياة لكم بالرابطة الإسلامية، لأنها ممقوتة في نظر أهل المدنية الغربية، وما اعتز المسلمون الأولون من آداب القرآن، فقد نسخته مدينة أوربا في هذا الزمان فالأفرنجية! الأفرنجية! الزموها تكونوا من الفائزين، والقومية! القومية! أعلنوها إن كنتم مؤمنين، والعلماء! العلماء! احذروهم وإن خدموا الأمة والدين، والصلحاء! الصلحاء! أهلكوهم إن كنتم فاعلين. فَأُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (16/58)

علّمتنا التجارب والاختبار، ونطقت مراضي الحوادث والأخبار، بأن المقلدين من كل أمة المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الأعداء إليها، وتكون مداركم مهابط الوساوس، ومخازن الدسائس. بل يكونون بما أعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم وأسوأ بهم واحتقار من لم يكن على مثالهم، شؤما على أبناء أمتهم، يذلونهم، ويحقرون أمرهم، ويستهينون بجميع أعمالهم. وإن بقي في بعض رجال الأمة بقية من الشمم أو نزوع إلى معالي الهمم، انصبّوا عليه، وأرغموا من

أنفه، حتى يمحي أثر الشهامة، وتخمد حرارة الغيرة ويصير أولئك المقلدون المضلون طلائع لجيوش الغالبين وحماة الغارين. يمهدون لهم السبيل، ويفتحون عليهم الأبواب. ثم يثبتون أقدامهم ويمكنون سلطتهم، ويخربون بيوت الأمة بأيدهم، ذلك بأنهم من الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم. أولئك هم الخاسرون. لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (19/59)

صدق حكيمنا ابن خلدون في قوله: "إنّ المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب، في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده" نقول ولكنه قلما يقتدي به في معالي الأمور، وأسباب القوة التي بها كان غالبًا لأنّ المغلوبين المخذولين يستحوذ عليهم الخمول والكسل ويصيرون عالة على الغالب في عامة شؤونهم وهذا معنى قوله تعالى: وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (76/16) وقد يخدع الغرور أكثر المتفرنجين المقلّدين، فيتوهمون أنهم بتقليدهم للأفرنج في أسلوب التعليم ودعوة "القومية" و"الأفرنجية" قد ساروا على طريقهم إلى الاستقلال الذاتي والكمال المدني وهيهات هيهات ما يتوهمون. لا تجد أكثرهم إلا مخدوعين مخذولين، وطريق العاملين المستقلين، غير طريق المقلدين الخاسرين: فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ (38/16)

يقولون "التعليم! التعليم! التعليم!" ويقولون "الاجتماع والمؤتمرات، والأحزاب والجمعيات" وهم لا يعرفون حق ذلك من باطله، فنحن نرى فسادًا كبيرا وعصيانًا مبينا دخل على الأمة من قبل هذه الأشياء وهم لا يشعرون. فالعبرة بروح التعليم والجمعيات لا بصورها، والحقيقة في أساسها لا في أشكالها. وهذه لا تكون صالحة مصلحة إلا إذا كان القائمون بهذه الأشياء صالحين مصلحين، والهادين المرشدين، والمؤمنين الراسخين، فهل من السهل أن تعرف الأمة من عساه يوجد فيها من هؤلاء

الرجال فتكل أمرَ الإصلاح إليهم؟ أنى ذلك؟ وعوامها جاهلون وخواصها المتفرنجون وعلماؤها المقلدون!! ولكن: وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ. (87/12)

ياللأسف يا للعار! راجت في سوقنا فتنة الخبيثة الأفرنجية، فحلت روابطنا، وأضعفت جامعتنا، ومزقت نسيج وحدتنا، واغتالت معظم ثروتنا، ونحن إلى الآن نتوهم أننا نرقي بذلك أنفسنا، ويغش الذين تفرنجوا منا أنهم صاروا أرقى من سائرنا عقولا وأعلى آدابا، وأصلح أعمالا حتى أنّ بعض أحداث المدرس منهم يرون أنفسهم بتأثير فتنة التفرنج أنهم أرقى من سلفنا الصالح الذين فتحوا الممالك، ومصّروا الأمصار ودوّنوا العلوم، وبنوا لنا ذلك المجد الذي ساعدنا أعداءنا على هدمه منذ قرون ولما ينهدم كله! ألا، إننا قوم جاهلون مخدعون مسحورون نخرب بيوتنا بأيدينا وأيدي أولئك الخادعين لنا. ووصل البغي والعدوان علينا إلى هذه الدرجة، ولم تزل الغشاوة كلها عن أبصارنا ولا الرين عن قلوبنا، ولا يزال في آذاننا وقر، وبيننا وبين الحقيقة حجاب: وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ (178/7)

فياأيها المتفرنجون! لا تغلوا في تفرنجكم ولا تقولوا على دعاة القرآن غير الحق. وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ (77/5) لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا (118/3) وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (23/9) واعلموا أنّ أفرنجيتكم الباطلة لا بقاء لها إذا عارضها إسلامنا الحق. فإنما بقاء الباطل في لوم الحق عنه. والعاقبة للمتقين.

اختلفت عليكم الدعوة أيها المسلمون، و كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ، فـ" أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ

۞ (32-31/46) ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۞ (127/7) فله دعوة الحق، وما خالفها باطل وفسق، فاتقوا الله وأطيعون، ولا تطيعوا أمرَ المسرفين، ها نحن أولاء قد خرجنا عن استقلالنا الجثماعي زمنًا طويلا، أطعنا فيه ساداتنا وكبراءنا فأضلّونا سبيلا، وأخذنا الأجانب من ناحية سلطتهم أخذًا وبيلا، فما أغنت عنا ذلة العبودية لهم فتيلا، إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا (21/73) ولا سبيل إليه إلا باتباع هدايته، والسير على سنته في خليقته: هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ. (108/12)

فعليكم أيها المسلمون وقد اعوذت النجاة، واختلفت دعوة الدعاة، أن تجيبوا داعي الله إذا دعاكم لما يحييكم وتكونوا من "حزب الله" المفلحون، وأولياء الله الغالبون، أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ. (180/7) الذين تأسّوا بهدي الأنبياء والصديقين، وأقاموا أمر الدنيا والدين، والذين يوحدون بهداية القرآن المتعددين، ويجمعون بإرشاده المتفرقين، والذين يوجبون على الأمة مقاومة استداد المستبدين، كما هدى إليه الكتاب المبين، ولا يخافون لومة لائم وهم أذلة على المؤمنين، ويقولون الله ورسوله والله يتولى الصالحين، وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۞ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۞ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۞ (65/25، 67، 73) وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ، وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34-33/70) وٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وبه يذكرون ويعقلون، والذين يسبحون بكرة وأصيلا وحين تمسون وحين تصبحون، فأُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (22/58)

فيا أهل القرآن! أقيموا القرآن، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسوا الميزان، قد غلبتم على ما فرطتم فيه من حقكم، فنزا على مصالحكم الملاحدة والفاسقون من ملتكم، وكانوا هم المنافذ والكوى لدخول الفساد في أرضكم، تركتم لهم دنياكم، فطمعوا في دينكم، يريدون إطفاء نوره، والإحاطة بوليه ونصيره، فأفيقوا من نومكم، واتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، وانشروا دعوة الإيمان، واجعلوا أمامكم القرآن: وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ (2/5)

يا أهل القرآن! إنّ القرآن كان حجة لكم، فصار اليوم حجة عليكم، أخبركم الله فيه أنّ الأرض يرثها عباده الصالحون، وأنّ العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ولكن المنافقين لا يعلمون، وأنه وعد الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض، ويمكّن لهم دينهم ويبدّل خوفهم بالأمن، وبيّن ذلك بقوله: مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ، إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ، فما بال الناس يرثون أرضكم وأنتم لا ترثون أرضا؟ بل لا تحفظون إرثا؟ وما بالهم يسلكون كل سبيل للافتيات عليكم، وما بالكم تخربون بيوتكم بأيديهم وأيديكم؟ كيف ذهبت عزتكم، وكيف خضدت شوكتكم؟ كيف كنتم تأخذون فتحمدون، فصرتم تعطون فتذمون؟ إلى متى هذه الغفلة أيها الغافلون؟ أ أنتم مصدقون بوعد الله ووعيده أم مكذبون؟ ألم يعدكم الله بأن يمكّن لكم دينكم الذي ارتضى لكم؟ بلى، ولن يخلف الله وعده وإنما أنتم المخلفون، وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ (117/11) فهل رضيتم بأن تكونوا من الظالمين الباغين، بعد أن كنتم خير العادلين المصلحين؟ أليس منكم رجل رشيد؟ أترضون أن تكونوا ممن نزل فيهم بأسهم بينهم شديد؟ ألا تتدبرون قوله تعالى: وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٞ.

يا أهل القرآن! كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وجعلكم الله أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس، ولكنكم غيّرتم ما بأنفسكم، فغيّر الله

ما بكم، فتنبه الوثنيون وأنتم غافلون، واجتمع اليهود وأنتم متفرقون، وسبق النصارى وأنتم متخلفون، فاعتبروا بتاريخ مَنْ قبلكم، وبأحوال الأمم في عصركم، وتدبّروا القرآن، وما بيّنه من سنن الله في نوع الإنسان، فقد آن الأوان، واستدار الزمان، واتصل القريب بالبعيد، وامتاز الغوي من الرشيد، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ.

جلت قدرة الله تعالى ونفذت مشيته، وغلب قدره وعلت كلمته، جعل الأيام دولا، وجعل للدول والأمم نواميس وسننا، فلا مبدّل لسنته، ولا محول لنواميس خلقته، فلا يغرنك إملاؤه للظالمين، واستدراجه للمفسدين: إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰر (42/14)

لا ينفع من قدر حذر، ولا ينفد من محيط سننه سلطان البشر، فلا يهولنك ما ترى من رسوخ الاستبداد، ولا يؤسنك ما تشاهد من غلبة الاستعباد والإفساد، فقد مضت سنة الله بأنّ الشيء إذا جاوز حدّه، جاور ضدّه، وأنّ شدة الضغط، توجب شدة الانفجار: وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ. (11/13)

لقد صدقنا الله وعده ووعيده، وأرانا بأعيننا مصداق كتابه: ظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ! (2/59)

نعم، إنّ في ذلك لكبرى العبر، لمن يعقل ويتدبر، ويتذكر ويتفكر، كَلَّا وَٱلْقَمَرِ، كَلَّا وَٱلْقَمَرِ، وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ، وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ، إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ، نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ، لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (32/74) فالحمد لله أنّ ليل الحق قد عسعس، وصبحه قد تنفّس، وطفق أهله يهبّون من رقادهم، ويمسحون النوم عن أعينهم، وقد أذّن اليوم بينهم مؤذن التوحيد، وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ (22-21/58)

لقد رخصت النوازل هذه الأمة رخصًا، ثم مخضتها النوائب مخضًا، وقد آن أنْ تخرج زبدها محضًا، وأنّ ذلك لواقع، ما له من دافع، أنهم يرونهم بعيدا، ولكن نراه قريبا، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ؟ (81/11)[1]

[1] صحيفة "البلاغ"، 45-40/2/1

ISSN: 2321-7928

ندوة دولية حول موضوع:

(الثقافة والحضارة الهندية في كتابات العرب وغير العرب)

- د. غياث الإسلام الصديقي[1]

استضاف قسم اللغة العربية بجامعة دلهي، ندوة دولية حول موضوع "الثقافة والحضارة الهندية في كتابات العرب وغير العرب"، استغرقت يومين 15-16 مارس، 2023م، وتلك امتدادًا لاحتفاء الذكرى المِئَوِيّة لتأسيس الجامعة. أدارها البروفيسور نعيم الحسن رئيس القسم المستضيف، ونسّقها البروفيسور سيّد حسنين اختر (أحد أساتذة القسم).

انعقدت الجلسة الافتتاحية برئاسة البروفيسور تشند شيكهار رئيس العلاقات الدولية بجامعة دلهي، ورحّب فيها البروفيسور نعيم الحسن الأثري جميع الضيوف والمساهمين والحضور بالإضافة إلى تقديم تعريف موجز للقسم المستضيف ونشاطاته العلمية والثقافية. نسّق هذه الجلسة البروفيسور سيّد حسنين أختر وقام بتعريف موضوع الندوة، وقال: "العام الجاري عام تخليد الذكريات المئوية لتأسيس هذه الجامعة، فكان من المناسب أنْ يحدّد لهذه الندوة هذا الموضوع الذي يدلّ على علاقة الهند والعرب منذ زمن بعيد. والواقع أنّ المؤلفين العرب هم أول من قاموا بتعريف حضارة الهند وثقافتها في مؤلفاتهم ورحلاتهم. فلم يكن موضوع أحسن ممّا قد تقرر لهذه الندوة". وبالإضافة إلى ذلك، التمس الأستاذ من البروفيسور تشندر شيكهار والبروفيسور أميتاف إنشاء اتفاقيات بين جامعة دلهي وجامعات المملكة العربية السعودية على تنشيط التعاون والتبادل العلمي والثقافي فيما بينهما. وقدّم البروفيسور محمّد ثناء الله الندوي رئيس قسم اللغه العربية بجامعة علي كره الإسلامية، خطابَه الرئيسي باللغتين الإنكليزية والعربية،

[1] محاضر ضيف للغة العربية بالكلية الطبية الآيورفيدية اليونانية التابعة لجامعة دلهي.

وأحاط فيه بعدة جوانب للحضارة الهندية، ومواضع متجانسة بين الحضارتين الهندية والعربية وقدّم دراسة مقارنة بينهما، وتحدّث بقدر من التفصيل عن فلسفة وحدة الوجود، والقيم الثقافية، والروابط التجارية بين الهند والعرب، وذكر المؤلفين الذين اهتمّوا بالكتابة حول الحضارة الهندية، وفي هذا السياق ذكر الأستاذ المحاضر ابن بطوطة والبيروني واليعقوبي والمسعودي والشهرستاني وابن النديم وغيرهم.

ثم تحدّث البروفيسور محمّد نعمان خان، ضيف الشرف في الجلسة، وأبدى فرحه وابتهاجه على عقد هذه الندوة، ولفت انتباه الحضور وهو يقدّم تهانئ قلبية للقسم على اختيار موضوع مهمّ لهذه الندوة الدولية، بالإضافة إلى ترحيب الضيوف والحضور.

وبهذه المناسبة ألقى البروفيسور أميتاب تشكرورتي ضيف الشرف في هذه الجلسة، وعميد كلية الآداب بجامعة دلهي، كلمتَه باللغة الإنكليزية، وذكر أهمية الترجمة التي قام بها الأكاديميون العرب، ونقلوا العلوم الهندية من اللغة السنسكريتية إلى اللغة العربية، وبذلك أدّوا خدمة عظيمة في مجال العلم والثقافة. وبالإضافة إلى ذلك، أبدى الأستاذ رضاه على ما قاله البروفيسور سيّد حسنين أختر في صدد التبادل العلمي والثقافي بين العرب والهند.

وبالتالي تقدم سعادة الملحق الثقافي السعودي بالهند أ. د. خالد بن يوسف برقاوي كضيف رئيسي، ونوّه في كلمته بأهمية كتابات الرحالة العرب عن الهند ودورها في التعريف بالهند وحضارتها وتقاليدها وعلومها وفنونها ورجالها والعادات في الأكل واللباس، وترجمة العديد من كتب اللغة السنسكريتية إلى العربية ممّا ساهمت مساهمة جبّارة في الحركة الأدبية في العالم العربي. وألقى الضوء على جهود الملحقية الثقافية في التبادل الثقافي بين المملكة العربية السعودية وجمهورية الهند. كما أعرب عن امتنانه وشكره لجامعة دلهي على عقد الندوة الدولية حول موضوع مهم كهذا، وذكر في كلمته سمات الحضارة الهندية وتأثيرها في الحضارات الأخرى.

قدّم البروفيسور تشند شيكهار كلمة الرئاسة باللغة الإنكليزية، وألقى فيها ضوءًا على تاريخ قسم اللغة العربية بجامعة دلهي بحيث كان القسم فرعًا من مجموعة أقسام أخرى تحت المظلة الواحدة، واستعرض الأستاذ الأعمال الأكاديمية التي تم نقلها من اللغتين السنسكريتية والهندية إلى اللغات الأجنبية عبر التاريخ، وأكّد على ضرورة التبادل الثقافي بين الهند والبلدان الأخرى. وقدّم الدكتور أصغر محمود (عضو هيئة التدريس بالقسم) كلمة الشكر لجميع الضيوف والحضور في هذه الجلسة.

انعقدت الجلسة الأكاديمية الأولى لهذه الندوة برئاسة البروفيسور كفيل أحمد القاسمي عميد كلية الآداب ورئيس قسم اللغة العربية بجامعة علي كره الإسلامية سابقًا، والبروفيسور عبد الماجد القاضي رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة الملية الإسلامية، ونسّقها الدكتور قطب الدين (جامعة جواهر لال نهرو، نيودلهي). قدّمت فيها تسع مقالات كما يلي:

	المحاضر	الجامعة	موضوع المقالة
.1	د. محمّد أكرم نواز	جامعة جواهر لال نهرو، نيودلهي	دور الترجمة في تطور الثقافة
.2	د. محمّد سليم	جامعة إنديرا غاندي المفتوحة، نيودلهي	Glimpses of Indian Culture as reflected in Kitab al-Masalik wa al-Mamalik and Akhbar al-Hind wa Assin
.3	د. جمشيد أحمد	جامعة مومباي، مهاراشترا	الحضارة والثقافة الهندية في رحلة "حول العالم في 80 يومًا لجون فيرن

.4	د. فخر عالم	جامعة علي كره الإسلامية، علي كره	كتاب عجائب الهند لبزرك شهريار: دراسة تحليلية
.5	أ.د. محمّد ثناء الله الندوي	جامعة علي كره الإسلامية	الثقافة والحضارة في الهند
.6	أ.د. كفيل أحمد القاسمي	جامعة علي كره الإسلامية	التعريف بعدة كتب بطريقة موجزة
.7	د. زرنكار	جامعة جواهر لال نهرو	ثقافة شمال الهند في منظور الرحالين المصريين في القرن العشرين
.8	د. مشتاق عالم	كلية سينت إستيفان، جامعة دلهي	جهود العلامة محمّد تقي الدين الهلالي المغربي في توجيه المسار الأدبي والثقافي في الهند
.9	د. محمد قطب الدين	جامعة جواهر لال نهرو	الثقافة الهندية

ثم ألقى البروفيسور عبد الماجد القاضي كلمة الرئاسة، ونوّه فيها بالمقالات المقدمة في هذه الجلسة بالإضافة إلى ذكر تنوع الحضارات على أرض الهند، وقال: "يبدو لي عندما نقوم بمراجعة الكتب التي ألفت عن الهند وحضارتها، أنه يمكن أن نوزّعها في فئتين: القدامى في الحقيقة كان بعضهم يمتاز بروح علمية وبروح البحث والاستطلاع الميداني، ولذلك جهودهم في الحقيقة تعتبر النواة الأولى وهي تمتاز بمصداقية وموضوعية، لأنها في الحقيقة جاءت نتيجة لبحث ميداني ومن مصادر مباشرة؛ من أمثال ما كتبه البيروني وابن بطوطة. ثم بعد ذلك هناك يوميات وذكريات، وإنما

يجمع صاحبها بين العجائب والغرائب".

انعقدت الجلسة الأكاديمية الثانية لهذه الندوة افتراضيًا برئاسة الأستاذ الدكتور ناجي القبيلات (جامعة البلقاء التطبيقية، الأردن)، والبروفيسور نسيم أختر الندوي (الجامعة المليّة الإسلامية، نيودلهي)، ونسّقها الدكتور محمّد أجمل (جامعة جواهر لال نهرو). قدّمت فيها ثلاث مقالات كما يلي:

	المحاضر	الجامعة	موضوع المقالة
1.	**أ.د.** مظفر عالم	جامعة إيفل، حيدر آباد	الهند كما تنعكس في كتابات الرحالة العامري
2.	**د.** شفيع هاشم	دولة الكويت	الثقافة الهندية كما تتجلى من كتابات البيروني
3.	أ.د. نسيم أختر الندوي	الجامعة المليّة الإسلامية	غاندي ومحمّد علي جوهر في شعر شوقي

ثم ألقى الأستاذ الدكتور ناجي القبيلات كلمة الرئاسة، وألقى فيها الضوء على موضوع الندوة وأهميته، وأشاد باهتمام الهنود أساتذة وباحثين وطلابًا ومساهمين في مجالات متنوعة تتعلق باللغة العربية، كما عبّر عن انطباعه حول المقالات المقدّمة في هذه الجلسة.

وقال البروفيسور نسيم أختر الندوي في كلمته الرئاسية: إن موضوع الكتابة حول ثقافة وحضارة نشأت في بلد أجنبي، شائك جدًا. فمن ورد الهند من الرحالة والسيّاح، ليس من الضروري أن يكونوا موفقين في كتابتهم حول الهند، بل يمكن أن يخطئوا في ملاحظاتهم ومشاهداتهم. فالأمر يتطلب فهمًا عميقًا وحسًا لطيفًا فعلى الباحثين أن ينتبهوا لهذا الأمر في دراستهم حول الموضوع، وتقديم نتاجهم في البحوث والمقالات.

وبهذه المناسبة جاء في خطاب الأستاذة الأديبة وفاء عبد الرزاق أنّ اللغة العربية قد

ازدادت قبولًا وانتشارًا في العالم حيث نالت مكانة مرموقة بين لغات منظمة الأمم المتحدة، كما نوّهت الأستاذة بخطوة القسم المستضيف إلى عقد ندوة عالمية حول موضوع جادّ ومهم، وقدّمت كلمة الشكر للمساهمين والحضور في هذه الندوة.

في اليوم التالي أقيمت الجلسة الأكاديمية الثالثة برئاسة البروفيسور فوزان أحمد، نسّقتها الدكتورة زرنكار، وقدّمتْ فيها 13 مقالة:

	المحاضر	الجامعة	موضوع المقالة
.1	د. عبد القدوس الندوي	مركز جامعة مولانا آزاد الوطنية الأردية، لكناؤ	العلاقات الثقافية المبكرة بين الهند والعالم العربي
.2	د. سعيد بن مخاشن	مركز جامعة مولانا آزاد الوطنية الأردية	الثقافة الهندية في رحلة ابن بطوطة
.3	د. رياض أحمد رياضي	جامعة لكناؤ، لكناؤ	الثقافات والحضارات الهندية في كتابات محمّد بن ناصر العبودي: كتابه "الشمال الشرقي من الهند أنموذجًا
.4	د. أختر عالم	جامعة جواهر لال نهرو	قصيدة غاندي لأحمد شوقي: دراسة
.5	د. محمّد قاسم عادل	كلية ذاكر حسين دلهي	ملامح المجتمع الهندي في كتب الرحالة العربية المعاصرة

.6	د. غياث الإسلام	الكلية الطبية الآيورفيدية اليونانية، جامعة دلهي	تاريخ حضارة الهند: دراسة
.7	د. محمّد طارق ظلي	جامعة لكناؤ	الهند في كتابات علي الطنطاوي
.8	د. محمّد عزير محمّد عبد المعين	الجامع الأزهر	ثقافة هندية في عيون مصرية
.9	د. سبحان عالم	جامعة لكناؤ	هندوستان كا تمدن مرتب انداز مين" (حضارة الهند بطريقة منهجية)
.10	د. أبوتراب	جامعة دلهي	انعكاسات الثقافة الهندية في كتابات وديع البستاني
.11	د. مجيب أختر	جامعة دلهي	تمثيلات الحضارة الهندية في رواية "نهر النار" لقرة العين حيدر
.12	د. محمّد أجمل	جامعة جواهر لال نهرو	العلاقات الهندية العربية: مساراتها الثقافية المبكرة في ضوء كتابات القاضي أطهر المباركفوري
.13	أ.د. عبيد الرحمن طيب	جامعة جواهر لال نهرو	ملامح من حضارة الهند وثقافتها كما تتجلى في رحلة سليمان التاجر

ثم قدم البروفيسور محمّد ثناء الله الندوي كلمة حافلة بالحقائق التاريخية والمشاهدات الذاتية والنكات العلمية والملاحظات القيمة. وفي الختام، ألقى البروفيسور فوزان أحمد كلمة الرئاسة، وأشار إلى بعض الحقائق الثقافية كما قام بالتقييم العلمي للمقالات المقدّمة في هذه الجلسة، وقدّم كلمة الشكر للحضور بهذه المناسبة.

انعقدت الجلسة الأكاديمية الرابعة برئاسة الأستاذ الدكتور عبيد الرحمن طيّب، وقم بتنسيقها الدكتور أكرم نواز (وهما من جامعة جواهر لال نهرو)،

	المحاضر	الجامعة	موضوع المقالة
.1	د. أورنك زيب الأعظمي	الجامعة الملية الإسلامية	أسباب الحرب وآلاتها الهندية في كلام العرب الجاهلي والإسلامي
.2	د. هيفاء شاكري	الجامعة الملية الإسلامية	المجتمع الهندي خلال ثورة 1857م كما يصوره كتاب "دموع الأميرات"
.3	د. شمس كمال أنجم	جامعة بابا غلام شاه بادشاه، راجوري	كلمة "الهند" واستخدامها عند العرب
.4	د. دردانا شاهين	كلية Villa Marie Degree، حيدرآباد	India in the writings of Anwar al-Jundi
.5	د. محمّد إرشاد	الجامعة الإسلامية أونتي فورة، جامو وكشمير	تأثير الحضارة العربية الإسلامية على الهند
.6	د. معراج أحمد	وزارة السكك الحديدية	مساهمة الهند في الأدب العربي

ثم قدّم الأستاذ الدكتور عبيد الرحمن طيب كلمة الرئاسة، وهنّأ جميع المتقدمين بالأوراق وأشاد بها قائلًا: "إنّ هذه المقالات كلها غنية بمعلومات قيمة نافعة فقد قدّم الأستاذ أورنك زيب أسباب الحرب وآلاتها الهندية مزوّدًا مقالته بالشواهد والنظائر من القرآن والشعر العربي بأسلوب رائع. وعرضت الدكتورة هيفاء شاكري موضوعًا شيّقًا قلما اختاره أحد وقدّمتْ مقالتها بأسلوب رائع أثار رغبة في المستمعين بقراءة ذلك الكتاب". كما أشار الأستاذ عبيد طيب إلى أنه ينبغي لكل متداخل أن يختار ناحية من نواحي قضية محددة حيث لا يتسع المجال لعرض طويل في مثل هذه الندوات و يقدم أبرر النقاط فحسب. وشكر الأستاذ جميع القائمين على هذه الندوة وسجّل تهانئه لهم.

عقدت الجلسة الأكاديمية الخامسة افتراضيًا برئاسة الدكتورة وفاء عبد الرزاق الشاعرة والروائية والقاصة الكبيرة الحائزة على عدد كبير من الجوائز العربية والعالمية ورئيسة المنظمة العالمية للإبداع من أجل السلام، الكائنة في لندن، وأدارها البروفيسور مجيب الرحمن رئيس قسم اللغة العربية بجامعة جواهر لال نهرو سابقًا، كما نسّقها البروفيسور سيّد حسنين اختر (أحد أساتذة القسم). قدّمت في هذه الندوة ثلاث مقلات كما يلي:

	المحاضر	الجامعة	موضوع المقالة
1.	د. خزعل الماجدي	الشاعر والمفكر العراقي المقيم في هولندا	المنجزات المتفردة للحضارة الهندية
2.	أ. نبيل سليمان	الروائي السوري	تمثيلات الهند في الرواية العربية
3.	د. ندا عادل	الشاعرة والصحفية العراقية المقيمة في القاهرة	تأثير أدب النساك الهنود على متصوفة العرب: الشيخ زين الدين المخدوم الأول نموذجًا

ثم قدّمت الدكتورة وفاء عبد الرزاق كلمة الرئاسة وتحدثت بالتفصيل عن المنظمة العالمية للإبداع من أجل السلام، كما ذكرت الأستاذة أنّ الثقافة الهندية ليست مختلفة تمامًا عن ثقافة الأقطار العربية، ولاحظت في زيارتها للهند أنّ مراسيم الزواج تتشابه كليًا مع مراسيم الزواج في العراق. ألقت الأستاذة ضوءًا على بعض أوجه التشابه بينهما، وصرحت بأنها ثقافات متوارثة في العرب والهند منذ القدم. وبالتالي قدّم البروفيسور مجيب الرحمن كلمة الشكر لجميع المساهمين، ولاسيما المساهمين العرب، كما أحاط الثقافة الهندية بجوانب عديدة.

انعقدت الجلسة الختامية برئاسة البروفيسور سيّد كفيل أحمد القاسمي، ونسّقها الدكتور محمّد أكرم (أحد أساتذة القسم)، وأدلى عديد من الأساتذة المشاركين بانطباعاتهم عن هذه الندوة بمن فيهم البروفيسور عبيد الرحمن طيب الذي جاء في كلمته أنّ قسم اللغة العربية بجامعة دلهي يمتاز عن أقسام اللغة العربية الأخرى المتواجدة في الجامعات بأن يحضر في ندوته كلّ سنة عدد ملحوظ من أساتذة وطلاب الأقسام الأخرى الأردية والفارسية وغيرهما.

قدّم البروفيسور فوزان أحمد تهاني قلبية للقسم المستضيف على عقد هذه الندوة، وأشار إلى أهمية موضوع الندوة كما نوّه بالمقالات المقدّمة في الندوة حضوريًا وافتراضيًا، وقال: "تفتح هذه الندوات أبوابًا جديدة للبحث والتحقيق وخاصة للباحثين الذين يريدون أن يلتحقوا بسلك الدكتوراه في الجامعات".

وعبّر الدكتور عبد القدوس عن انطباعاته باللغة الإنكليزية وجاء فيها أنّ الندوة كانت تتضمن جلسات رائعة ومقالات علمية قيّمة، ونصح الأستاذ للطلاب والباحثين بأن ينتهزوا مثل هذه الفرص وهي تمرّنهم على إلقاء البحوث، وتقضي على الخوف والارتباك في قلوبهم عند التقديم كما شكر الأستاذ للقسم المستضيف لإتاحة الفرصة. وعلى هذا المنوال عبر الدكتور طارق ظلي عن خواطره باللغة الإنكليزية. وقدّم

الدكتور أبوتراب تقريراً موجزًا لهذه الندوة.

ثم عبّر البروفيسور محمّد ثناء الله الندوي الضيف الرئيسي لهذه الجلسة، عن خواطره المتدفقة بالحماس والمودة للقسم المستضيف وعدّ عقد هذه الندوة العلمية سبباً لتواصل اللقاء بين الأكاديميين والباحثين، كما قدّم الأستاذ جزيل الشكر والامتنان للأساتذة القائمين على هذه الندوة.

وبعد ذلك ألقى البروفيسور سيّد كفيل أحمد القاسمي كلمة الرئاسة وأشاد بجهود المساهمين الذين قدّموا مقالات علمية قيمة حول موضوعات شتى تتعلق بالحضارة والثقافة، وأبدى تمنياته لأن يواصل القسم المستضيف عقد مثل هذه الندوات العلمية والأدبية والثقافية كل سنة، ودعا الله أن تأتي هذه المناسبة العلمية مرّات وكرّات.

قُدِّمَتْ في هذه الندوة الدولية حوالي أربعين مقالة علمية وأدبية باللغات العربية والأوردية والإنكليزية، ومنها بعض المقالات التي قُدِّمَتْ افتراضيًا. شارك فيها نخبة من الشعراء والكُتّاب والباحثين العرب بمداخلاتهم افتراضيًا عبر منصة "جوجل ميت"، كما حضرها كثير من كبار الشخصيات العلمية والثقافية وأساتذة اللغة العربية، والأكاديميين والباحثين والباحثات من مختلف الجامعات والمؤسسات المتواجدة في مختلف أرجاء الهند وخارجها، وإضافة إلى من سَبَقَ ذكرُهم، حضر هذه الندوة البروفيسور رضوان الرحمن رئيس قسم اللغة العربية بجامعة جواهر لال نهرو، والدكتور محمود فياض عميد كلية ذاكر حسين المسائية سابقًا، والدكتور عبيد الله، والدكتور سيد محمّد طارق، والدكتور عبد الملك، والدكتور قمر الدين من كلية ذاكر حسين دلهي، والأخ محمّد كليم الله من الملحقية الثقافية السعودية في نيودلهي. ووصلت الندوة إلى نهاية المطاف بعدما قدّم الدكتور آصف إقبال (محاضر ضيف بالقسم المستضيف) كلمة الشكر والتقدير لجميع المساهمين والحضور.

ISSN: 2321-7928

إلى رحمة الله:

الشيخ صلاح الدين الإصلاحي

(1943-2023م)

كل نفس ذائقة الموت، ولكن لحظات الوداع والفراق تسجّل الحزن في القلب وتخلّد الذاكرة وتخنق الدموع من العيون وخصوصًا حينما نودّع واحدًا من جيل المربين والأساتذة الأفاضل ألا وهو أستاذنا جميعًا المربي المرحوم الشيخ صلاح الدين الإصلاحي الذي فارق الدنيا بعد مسيرة عطاء عريضة، ومشوار حياة في السلك التعليمي والعمل التربوي والاجتماعي، تاركًا سيرة عطرة، وذكرى طيّبة وروحًا نقية، وعبق أريج نرجسة في ربى الروحة وشذا شجرة برتقال يافية وميراثًا من القيم والمثل النبيلة فجعنا بهذا الحدث المؤلم صباح يوم 19/يونيو 2023م وقضى الرحيل أكثر من خمسين عامًا في سلك التدريس في مدرسة الإصلاح وهو كان أستاذ التفسير والأدب العربي والبلاغة فيها.

تُعدّ مدرسة الإصلاح بسرائمير(أعظم كره، الهند) إحدى دور العلم الكبيرة، وأنجبت علماء ودعاة كبارًا أدّوا خدمات جليلة ولهم أثر بالغ في تنوير أذهان الجيل الناشئ في الهند وخارجها. ولم تنحصر أعمال هؤلاء العظام في مجال التعليم ومناهج الدراسة، بل وقدّموا في مجال البحث والترجمة والتحقيق والتأليف ما لا ينسى ولا يستهان به، وبذلوا كلّ غال ورخيص في سبيل ترويج اللغة العربية وآدابها، وكانت لهم صلات قوية بهذه اللغة حتى قدّموا إنتاجاتهم باللغة العربية على وجه الخصوص. ومن أبرز خريجيها الشيخ الجليل أمين أحسن الإصلاحي الذي كتب تفسير القرآن بالأردوية باسم "تدبر قرآن" في تسعة مجلدات ضخمة على منوال شيخه الإمام عبد الحميد الفراهي في أسلوب ممتع جذّاب، والشيخ نجم الدين الإصلاحي الذي ساهم في تطوير اللغة الفارسية والأردوية،

والشيخ أبو الليث الإصلاحي الذي كان أمير الجماعة الإسلامية بالهند، والشيخ صدر الدين الإصلاحي الذي قام بتلخيص تفسير "تفهيم القرآن"، والبروفيسور ألطاف أحمد الأعظمي الذي ألّف تفسير "ميزان القرآن" وساهم في تطوير الدب اليوناني في الهند، والدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي الذي له مساهمات جليلة في مجال البحث والتحقيق والأدب العربي، وهو الذي قام بتحقيق معظم مؤلفات الإمام عبد الحميد الفراهي، والدكتور ظفر الإسلام الإصلاحي الذي يعتبر أحد المهرة في العصور المتوسطة في الهند وكان مدير تحرير مجلة "علوم القرآن" الفصلية، والدكتور أورنك زيب الأعظمي الذي هو مدير تحرير "مجلة الهند" الفصلية التي تعرف بأعدادها الخاصة بسير وأعمال العلماء الهنود لاسيما عن العلامة شبلي المعماني والإمام عبد الحميد الفراهي.

فالشيخ صلاح الدين بن نظام الدين أحد الأعلام الإصلاحيين الذين قدّموا خدمات جليلة في مجال التدريس. ولد الشيخ الإصلاحي في يوم 25/يوليو 1943م في قرية راجه فور سِكرَور (Rajāpūr Sikraur) التي تقع على قرب كلومترين من مدرسة الإصلاح وثلاثة كلومترات من بلدة سرائ مير. تعلم الإصلاحي في مدرسة الإصلاح وتخرج منها في مايو 1963م حائزًا شهادة "الفضيلة" ثم عُيِّنَ معلّمًا في نفس المدرسة يوم 25/ يوليو 1963م الموافق يوم 20/شوال 1385هـ، ودرّس بها الأدب والتفسير حتى 29/ مايو عام 2016م الموافق يوم 20/شعبان 1437هـ. قضى فيها حوالي 53 عامًا في سلك التدريس وحين التقاعد عن منصبه بقي في منزله وكان مواظبًا على تلاوة القرآن ومواصلًا التدبّر في آياته كما كان يزور بلدة "ماليغاؤن" (Malegaon) (ولاية مهاراشترا) لفترة بعد أخرى لبعض حاجاته الشخصية. ووافته المنية في نفس المدينة يوم 19/يونيو عام 2023م.

وما من شك في أنّ الأستاذ صلاح الدين (رحمه الله تعالى) قد امتاز عن أقرانه من أساتذة مدرسة الإصلاح باطلاعه الواسع وفهمه العميق للأدب العربي القديم

والقرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين، وقد وهبه الله ذكاءً حادًا ساعده في حفظ قصائد الشعر العربي القديم وآيات القرآن الكريم فكان يستشهد بنظائر القرآن بطريقة يخيل للسامع أنه يحفظ القرآن الكريم ولو أنه لم يكن حافظًا له، وكان يخرج نكات علمية دقيقة وطريفة يندهش لها الحضور.

ومن أبرز تلاميذه؛ الشيخ سلطان أحمد الإصلاحي والدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي، والشيخ الأستاذ أبو سفيان الإصلاحي والشيخ محمد عمر أسلم الإصلاحي والشيخ نسيم ظهير الإصلاحي والدكتور راشد أيوب الإصلاحي والحكيم معراج أحمد الإصلاحي والدكتور عرفات ظفر الإصلاحي والحكيم بلال أحمد الإصلاحي والحكيم شميم إرشاد الأعظمي والدكاترة الجامعيون الآخرون الذين يعملون في مختلف جامعات الهند ومعاهدها وشركاتها.

كان الشيخ صلاح الدين بن الحافظ نظام الدين ربعة من الرجال ضاربًا إلى القصر، كثّ اللحية، واسع الجبين، متبسم الوجه ومستديره، معتدل الجسم لا نحيلًا ولا مفتولًا، أسمر اللون، قوي الذاكرة، ذكيّ الفؤاد، واسع المعرفة، حريص التدبر في القرآن الكريم وكثير الوعظ على تدبر وفهم القرآن الكريم لمن يأتيه لزيارته خصوصًا الطلاب الذين يروون غليلهم منه، ووجدناه دائمًا حريصًا على تلاوة القرآن وفهمه، ويا لسعادتنا والشرف الكبير لنا أننا كنا من طلاب وتلامذة هذا الراحل المرحوم الذي درّسنا أولًا "محاسن الشعر" في الصف الرابع من العربي عام 1997م-1998م ثم تشرّفنا بلقائه مرة الأخرى كأستاذ التفسير في الصف السابع من العربي عام 2001م-2002م واستفدنا كثيرًا من أسلوب تفسيره الذي اختار في تدريسه منوال القدماء فأفضل أسلوبه كان تمييز العديد من الآيات المتشابهة وكان يحبّ أن يعلّم القرآن بالقرآن وإنه كان صورة حقيقية لمنهج مدرسة الإصلاح لتعليم القرآن بالقرآن.

ومن أوصافه الشخصية اللياقة وتنقية الذات ونقاء الفكر وصدق النية وحبّ اللباس الأبيض مع القلنسوة الإصلاحية والحفاظ على تقاليد الأجداد. وقد كان معتادًا أن يأتي من المنزل إلى المدرسة بالدراجة. واضعًا في فمه حبَّ الهال وبذور الشمر ودائمًا كان يتحدث بالأردوية الفصحى. وكان يحثّ الطلاب على الأخلاق الحميدة ويذكّرهم بأنهم "ورثة الأنبياء" وينصح لهم أنْ ينّموا الصفات الحميدة مثل المعرفة والحكمة والتقوى والطهارة، والصدق والعمل الصالح.

رحم الله هذا الشيخ الجليل الذي جعل القرآن شغل ليله ونهاره وأثبت نفسه أسوة حسنة للطلاب الأساتذة على السواء.

د. محمد معتصم الأعظمي[1]

[1] نائب مدير تحرير المجلة ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها، سيوري فيديا ساغر، بنغال الغربية، الهند

ISSN: 2321-7928

رثاء العلامة أبي عبد الجليل محمد طيّب المكي

- الشيخ محمد يوسف السورتي[1]

ألا إنما الدنيا بلاء ومعطب فليس سوى عيب بها الدهر مطرب
ألا إنما الدنيا رزايا وحسرة وزورُ أمانٍ ليس عنهن مذهب
ليبك أبا عبد الجليل سميدع لكلِّ معالٍ باكرات تقضّب
ليبك أبا عبد الجليل معالم من العلم أضحت نالیات تجنّب
ويبكيه علم الدين والشعر واللغه وروضةُ آدابٍ تسقّى فتخضب
خليل لعلم العُربِ عمروٌ روايةً وكالباهلي في نطقه مصوّب
وأما علوم العقل فهو نقابها طوى قفرها والقوم حسرى ولغّب
لقد كان يُبدي الحق محضًا لطالب ويزري بأقوال سخاف ويضرب
إذا أعضلت بالقوم عقدة آية رماها بقول صائب فتشعّب
فقد غيّبوا في اللحد بعدك كلَّ ما يروع ويثني والذي هو أطيب
وأصبح روض العلم بعدك ذاويًا وقد كان رطبًا قبل ذاك يرغّب
لقد رزي الإسلام منه مجربًا أبيًا قريعًا ذا عواطف يجدب
تولّى كنصل السيف يهتز للعلى وعند البلا ماضٍ همام ومقضب
عليك سلام الله ثم صلوته ورحمة تترى وأهل ومرحب
ووافاك رضوان وحور ونعمة وأكرمت في دار الخلود وتقرب

[1] محقّق وشاعر هندي تلمذ على العلامة محمد طيّب المكي ودرّس بالجامعة الملية الإسلامية بنيودلهي.